د.محدين حمدابن شقرون







verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مَنْظِ الْمُؤَلِّدُ مِنْ الْمُؤْلِدُ مِنْ الْمُؤْلِدُ مِنْ الْمُؤْلِدُ مِنْ الْمُؤْلِدُ مِنْ الْمُؤْلِدُ مِنْ ومنذياه بالنه بينا السالية



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

د بمحدبن حمدابن شقرون

مِظَامُ النِّفَ النَّفِي الْمُعَالِمُ الْمُعَلِمُ الْمُعَالِمُ الْمُعَالِمُ الْمُعَالِمُ الْمُعَالِمُ الْمُعَلِمُ الْمُعَلِمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمِ الْمُعِلَّمِ الْمُعِلِمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلِمُ الْمُعِلَّمِ الْمُعِلَّمِ الْمُعِلَّمِ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمِ الْمُعِلَّمِ الْمُعِلَّمِ الْمُعِلَّمِ الْمُعِلَّمِ الْمُعِلِمُ الْمُعِلَّمِ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمِ الْمُعِلَّمُ الْمُعِلَّمِ الْمُعِمِي الْمُعِلِمُ الْمُعِمِ الْمُعِلِمِ الْمُعِلِمِ الْمُعِلِمِ الْمُعِلَّ الْمُعِلَّ عِ

دراسه في لأدب المغرب في العصالم ين

توزيع



32 - 34 شارع فكتور هيكو الهاتف 30.76.44/30.23.75 ص ب. 4038 الدار اليضاء المغرب nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جميع حقوق الطبع محفوظة 1406 – 1985 nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خلمة شكر وتقدير

يسرنى أن اتقدم بالشكر الجزيل الى العلامة الاستاذ الكبير السيد علال الفاسى الذى كثيرا ما شجعنى وأفادنسى بنصائحه العلمية والى معالى وزير الدولة الكلف بالشؤون الثقافية والتعليم الاصلى الاستاذ السيد محمد الفاسى الذى استفدت كثيرا من أبحائه المتعددة في ميدان التاريخ والثقافة .

كما اعترف بالاستفادة الكبيرة التى حصلت عليها من ابحاث العلامة فضيلة الاستاذ السيد عبد الله كنون ومن توجيهات الغبير فى شؤون المخطوطات الاستاذ السيد ابراهيم الكتانى ومن المعونة التى قدمها الى الاستاذ السيد عبد الله الرجراجى ومساعدوه ، فالى هؤلاء والى جميع من رجعت اليهم فى هذا البحث اجزى شكرى والسلام .



onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلمسة

أنجز هذا البحث سنة 1965 . أما العنوان اللذى اخترناه له فهو مظاهر الثقافة الغربية وقد بدأنا بهله المرحلة للتعريف بالبيئة المغربية من الناحية الادبية في حقبة معينة من تاريخ المغرب تاركيس دراسة المظاهر الاخرى لنقوم بها على حدة في بحث مستقل .

وقد قمنا بالفعل بانجاز المرحلة الثانية تحت عنوان : البيئة المغربية ومظاهرها الثقافية في عهد بني مرين وطاس .

الا أن ظروفا خاصة اضطرتنا الى استعمال اللغة الفرنسية لتحرير هذا البحث وتقديمه الى القراء كجزء من كل متكامل مع ما سبقه ومسا سيلحقه بحول الله ، فالموضوع واحد وان تعددت جوانبه واختلفت مظاهره وتغيرت لغته على أننا سنحاول فى دراسة موسعة مقبلة ان شاء الله تعريب ما فرنسناه لتعسم الفائدة ويتصل البحث بعضه ببعض .

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

•

.

بيغ لقرالرحمة الرجيح

مقدمت

ليسى من شك فى أن التراث الادبى المفربى معتقر جدا الى جهود كثيرة ومتواصلة لبعثه والعمل على التعريف به فى مختلف مجالات نشاطه . ذلك أن الجهود التى بذلت فى هذا الميدان ضئيلة جدا لا تكساد تذكر اذا ما قيست بالابحاث المتنوعة الكثيرة والمؤلفات الضخمة النفيسة التى تناولت الادب العسربى فى الشرق بكثير من التدقيسة والتحليل .

ونتيجة لذلك ظل ادباؤنا مفهورين ، وظل ادبنا مجهولا في الاوساط العربية بصفة عامة ، وفي الاوساط الاجنبية بسل وحتى في الاوساط المغربية نفسها التي لا تعرف منه النزر القليل . ومع ذلك فا باؤنا واجدادنا لسم يتخلفوا عن الركب الحضاى العام ، ولم يكونوا دون غيرهم معرفة وعلما ، كما لم يكونوا اقل حظا في هلا التراث

العربي العام الذي ساهموا فيه مساهمة سيطلع القاريء في . هذا البحث على مدى أهميتها وفعاليتها .

لذلك رأينا من واجبنا ، خدمة لوطننا واحياء لهذا التراث ان نقوم بمجهود في هذا الباب ، وان نقدم للقاري، هذا المجهود المتواضع كي يطلع على ما كان لنا ... في فترة معينة من تاريخينا في مختلف مجالات العلم والمعرفة من نشاط ، وعلى ما خلفه ادباؤنا وعلماؤنا من آثار خلات ذكرهم وأعلت شانهم وجعلتهم يتبوأون مكانة لا تعل عن مكانة ادباء وعلماء عصرهم .

أما الموضوع السلى اخترناه فهو (مظاهس الثقافية للغربية في عهد بني مرين) .

ولقد وقع اختيارنا عليه نظرا لكون البيشة المغربية عرفت في هذا العصر نشاط ادبيا ملحوظا الساد اهتمسام الباحثين والمؤرخين ، فوصفوه باوصاف كلها تقديس ، واعجاب وتنويه ببني مرين وبادباء وعلماء المغرب الذيس عاشوا في عهدهم .

الا أن هذه الاحكام وهذه الاوصاف قليلا ما تتصف بالموضوعية وكثيرا ما تجمل وتعمم بدون اسناد الى حجج كافية وادلة مستمدة من واقع البيئة المغربية التي كانت مجالا لهذا النشاط لذلك راينا من الضروري أن نخص هذا الموضوع ببحث شامل وان نتوسع فيه قدر الامكان كي نوفيه ما يستحق من العناية والاهتمام ، رائدنا في ذلك الحقيقة

المجردة ، والنزاهة الفكرية واستقصاء العوامل الظاهرة والباطنة التى كانت وراء الظواهر الاجتماعية والثقافية التى ميزت المغرب فى عهد بنى مرين عن المغرب فى عهود سابقة أو لاحقة ، فمجال هذا البحث اذن واضح وزمنه معين ، ومكانه محدود لا يتعلى البيئة المغربية التى تعرف اليوم بالمغرب الاقصى وان تعدها فى بعض الاحيان فما ذلك الا لكوننا اردنا الالمام ببعض العناصر والجوانب التى كانت لها صلة وثيقة بالمغرب آئذاك ،

تلك هي غايتنا ، اما وسائل تحقيقها فلم تكن ، في الواقع سهلة ولا متوفي لاول وهلة . نظرا لقلة المصادد التي عنيت بالوضوع عناية مباشرة ، ونظرا كتناثس الملومات الضرورية هنا وهناك ، في ثنايا كتب النقه ، والتاديخ ، والادب والنحو ، واللغة وغير ذلك من المصادد التي قد تسلط على موضوعنا بعض الاضواء وتعرض لبعض جوانبه مباشرة أو بصفة غير مباشرة .

فكان لابد اذن ـ رغم جميع الصعوبات التى اعترضت سبيلنا ـ من الوقوف على الصادر المختلفة التى تغيد موضوعنا من قريب أو من بعيد : اعتمدنا على المخطوط منها والمطبوع سواء كان عربيا أو بلغات اجنبية كما استفدنا من مجلات ووثائق مختلفة (يجدها القارى، مفصلة في اخر هذا البحث) واجرينا اتصالات مباشرة مع ذوى العلم والاختصاص لتحقيق وضبط التواريخ والامكنة التى بقيت الى الآن آثارا ماثلسة للعيان ، أو تعولت الى انقاض بعد ان كانت مساكن لبعض

الشخصيات التي تعرضنا لها في سياق هذا البحث .

ورغم كوننا اثبتنا جل هذه الصادر في الكان المغصص لها ، نرى من المناسب هنا ان تتعرض لبعضها بالذكر لا سيعا تلك التي اتخذناها كهرجع أساسي أفادنا في كثير من الاحيان في طرق هذا الموضوع :

تاريخ المبر وديوان البتدا والغبر لابن خلدون ، الاحاطة في اخبار غرناطة لابن الخطيب ، جلوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة عاس لابن القاضي ونفح الطيب من غصنالاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب للمقرى ، الاستقصا لاخبار الغرب الاقصى للناصري احمد بن خالد السلاوي : روضة النسرين في اخباد دولة بني مرين لابي الوليد اسماعيل ابن الاحمر: الظرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن ابي ردّع : اللخيرة السنية في تاريخ الدولة الرينية نشر ابن أبي شنّب، بلغة الامنّية وقصد اللبيب فيمن كان بسبتة من مدرس واستاذ وطبيب نشر ابن تاویت : زهرة الاس فی بناء مدینه فاس لابی الحسن الجزنائي ، اختصار الاخبار عما كان بسبتة من سنى الآثار لحمد ابن القاسم الانصارى ، تهاية الاندلس وتاريخ العرب النتمرين لعمد عبد الله عنان ، تاريخ السلمين باسبانيا لدوزي تاريخ الغرب لهنري طراس ، السند الصحيح الحسن في ما الر مولانا ابي الحسن لابن مرثوق ، الخطيب محمد التلمساني (مخطوط الخزانة العامة) الرحلة المفريية للعيادي (مخطوط الخزانة العامة بالرباط) الذيل والتكملة لابن عبد

الملك الراكشي (مصور الخزانة العامة بالرباط) مل العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين الى مكة وطيبة (مخطوط الاسكوريال) لابن رشيد.

هذه بعض المصادر الرئيسية التى اعتمادنا عليها فى هذا البحث وهى وان اختلفت من حيث القيمة واتصفت احيانا بعلم النقة والشمول وتعليل الاخبار التى توردها والاحداث التى تصفها الا أنها فى مجملها تتضمن معلومات قيمة استنتجنا منها كثيرا من الحجج والادلة التى بنينا عليها احكامنا فكانت لنا بمثابة أعمدة متينة وأسس راسخة استطعنا الوقوف عليها مع اتخاذ الاحتياطات والتحريات الضرورية .

يتضمن هذا البحث اربعة أبواب رئيسية . اختص الاول منها بدراسة البيئة المغربية في عهد بنى مرين دراسة تحليلية تعتمد على وصف معطياتها المادية والاجتماعية على الخصوص وتعنى بابراز العوامل الاجتماعية والنفسية التي تفاعلت في تكوينها وتطويرها ، وذلك كي لا يفاجا القارى، بالمظاهر الادبية والفكرية الناتجة عن هذه البيئة .

اما الباب الثانى فقد تناولنا فيه التعريف بمشاهير الادباء المفاربة اللين تعرضنا لدراستهم وحللنا بعض آثارهم قدر الامكان .

وقد تخلصنا من هذا البحث الى باب آخر خصصناه لدراسة مظاهر الحياة الادبية والثقافية في العهد الذي عنينا به

فكان ضروريا أن نتناول في باب رابع مظاهر آخرى للحيساة الادبية أبرزنا فيها انتاج المفاربة في ميدان العلوم النقليسة والعقلية .

المؤلسف



verted by TIII Combine - (no stamps are applied by registered versi

بنو مرين ، اصلهم ، الخلاف في شانهم

يلعب الفرد في المجتمع دورا قد يكون ايجابيا كما قد يكون سلبيا ، نظرا للعلاقات التي تربط بينهما ، والتفاعل المستمر الذي يطبع وجودهما في الزمان والمكان . ذلك ان هذا التفاعل وهذا الارتباط هما الظاهرتان الميزتان للتطسور الناشيء عنهما والمتجدد حسب قوة وضعف كل منهما ، ونتيجة لذلك ، قد تكون الغلبة للبيئة المادية والاجتماعية التي تتحكم في الفرد الى درجة معينة تجعل منه عنصرا منفعلا متلقيا عاداته وسلوكه منها ، بمعنى ان كل ما يصدر عنه من سلوك نفسي واجتماعي آت من التيار الاجتماعي الناشيء عن الاطار الذي يعيش فيه ، كما قد تكون الغلبة للفرد بحيث يتحرر من القيود ومن الضغط الاجتماعي ليقوم بدور فعال خلاق يطبع البيئة بطابع خاص ويجعلها تسير وفقا لارادته ، خاضعة لسلوكه ، فعتمول تحولا وتنقلب انقلابا فتتغير نظمها وتتطور احوالها كل ذلك ما كان ليحدث لولا فرد من افرادها والدور الخطير الذي قام به من اجل تطورها .

وهكذا يستمر الصراع بين البيئة والفرد الى أن يحدث التكيف ويقع الانسجام والموازن الضرورى لقيام المجتمعات البشرية . واذا كان بعض المؤرخين لا يولون لهذه الظاهرة الاجتماعية اهتماما خاصا ولا يقيمون وزنا لنتائجها ، غايتهم فى ذلك سرد الحوادث وتاريخها ، فان من الضرورى لكل باحث الاستناد اليها ، والعمل على كشف نتاتجها فى تفسير الاحداث وتحليل الوقائع التى على ضوئها يمكن أن تفسر الاوضاع

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقسيرا علميا ، بعيدا عن ضبخة العاطفة وتحكسم العادات وسيطرة الحالات النفسنيسة والذهنية ، سواء في الوصف او المشاهدة او التعليل .

لذلك اصبيع من الضرورى ، فى مثل هذه الدراسات ، التعسرف على الفرد الذى يلعب دور العنصر المحرك فى البيئة المراد دراستها حتى لا نفاجاً بالتأثير الذى يحدثه فى هذه البيئة وبالاتجاهات التى تنتج عسن سلوكه فيها كفسرد له نفوذ وسلطة .

وهكذا يتطلب البحث الرجوع الى الفرد نفسه ، قبل الانطلاق فى الطريق ، لمعرفة ماهيته ، ماضيه وحاضره ، طبيعته ونوع ثقافته والروابط التى تربطه بالبيئة التى دخلها كى يعيش فيها او يحكمها او يسوسها كما هو الشأن بالنسبة لموضوعنا . كل ذلك ضرورى ومفيد لمعرفة مدى قونه وضعفه ومدى تكامله أو تناقضه مع المجتمع الذى ينطلع الى تسبيره . فالنتائج التى يسجلها فى الميادين الاجتماعية والاقتصادية مرتبطة به أشد الارتباط وخاضعة حتميا والى درجة ما لشخصيته وسلوكه . كم من مجتمع تغيرت أحواله وتطورت انظمته نتيجة سلطة قوية حازمة حكيمة أخذت بزمام أمره ، فقادته نحو الرقى والازدهار ، وكم من مجتمع اصابه التخلف والانحطاط وحلت به مصائب كادت تقضى غلى كيانه نظرا لضعف الشخصية التى استبدت بامره وتحكمت فى مصيره .

ومعنى ذلك بالنسبة لموضوعنا ان التعريف ببنى مرين يشكل عنصرا اساسيا في هذا البحث ويلقى كثيرا من الضوء على الطريق الذي سنسلكه كما يساعد على الوقوف على كثير من العوامل التي كانت وراء طواهر برزت وأخرى الدثرت في هذا العصر.

لقد تضاربت الاقوال حول بنى مرين واختلفت الآراء حول اصلهم ونسبهم ، فكثرت النظريات وتشعبت الاحكام ، فكان من المؤرخين من ارجع نسبهم الى البربر وكان منهم من أكد عروبتهم كما كان منهم من ادعى أنهم أوربيون كسائر القبائل البربربة ، الا ان هذه الاحكام لم تكن ، فى جملتها ، مبنية على أسس علمية وحجج موضوعية ، مستمدة من التاريخ نفسه ومن الواقع الاجتماعى الذى عاشته البيئة المغربية عبر العصور : فتحيز البعض لعنصر كان قويا فى ظروف معينة وتاثر البعض الاحر بعاصه دينيه او عنصريه دما اكتفى عدد كبير من المؤرخين بالرواية والنقل المجرد . مع ان القضية ذات أهمية عظمى من الوجهة التاريخية المحضة ومن الناحية الاجتماعية ايضا . واذا كنا لا نريد الخوض فى هذا انميدان الشائك الذى ظلل المياه مستمصيا على كثير من العلماء المختصين ، نظرا لقلة المصادر التى يمكن الاعتماد عليها وكثرة الاساطير المتعلقة بالاجناس التى سكنت العالم فى العصور المسحيقة ، فاننا كذلك لا نربد أن نمر ساكتين عن أهم ما جاء فى هذا الموضوع من نظريات وبدون ابداء موقفنا منها .

inverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version

نظريـة ابن خلـدون:

أهم ما جاء في هذا الباب ، في نظرنا ، هو ما ما رواه ابن خلدون عن البربر وعن نسبهم وتاريخهم بصفة عامة . ذلك أن معظم المؤرخين عربا كانوا أو مستشرقين استندوا اليه واعتمدوا عليه اعتمادا يكاد يكون كليا عند البعض ، فأتوا بحججه وأدلته ونقلوا ما جاء في مقدمته وتاريخه تأييدا تقولهم واستشهادا لروايتهم فكان ما قالوه هو في غالب الاحيان ما قاله ابن خلدون قبلهم عن البرير عامة وعن زناتة خاصة مع شيء من التفصيل والتعليق في بعض الاحيان .

يستخلص مما جاء في مقدمة ابن خلدون وتاريخه ان البربر كلهم يرجعون في نسبهم الى فرعين رئيسيين تفرعت عنهما شعب وبطون كثيرة : فرع البرانس ، وفرع مادغيش او البتر ، الى الفرع الاول تنتسب قبائل صنهاجة وكتامة ومصمودة ولمتونة وغيرها من القبائل التي سكنت ما يسمى اليوم بالمغرب العربي ونقاسمت أطرافه في موطنها كما لعبت دورا اساسيا في تاريخه السياسي وحياته الاجتماعية أما قبائل مادعيش أو البتر فتتمثل على الخصوص في قبائل زنانة المتفرعة الى مغراوة وبني يفرن وبني مرين وبني عبد الواد وغيرها . هذا هو انتقسيم الاول الذي اعطاء ابن خلدون للبربر أو بعبارة أخرى سكان افريقيا الشمالية في عهده أي في القرن الرابع عشر ، وهو تقسيم ازدواجي مقصود عند ابن خلدون مبنى على طرفى نقيض كما جاء في تاريخه . ذلك ان جميع قبائل البتر أي فبائل زناتة تتعارض مع البرانس في المسكن وفي أسلوب العيش وفي كثير من العادات والسلوك . بل عرف الفرعان الكبيران بكثير من التنافر والتناحر ، والعداوة المكينة مدى العصور وعبر المجتمعات التي وجدت فيها هذه القبائل جنبا الى جنب . عرفت القبائل الاولى في معظمها بنوع من حياة الاستقرار والتشبث بالمسكن وتعاطى الفلاحة والاهتمام ببناء الدور ، بينما اشتهرت قبائل الغرع الثاني بحياتها البدوية والقائمة على التنقل والترحل الدوري من مكان الى آخر ، بحثا عن الرزق وسعيا وراء ايجاد كلا للماشية اينما وجد الخصب وحيثما ظهرت المراعى والمياه ، مهما كانت الظروف ولو ادى الامر الى التسلط على الغير والسطو على ممتلكاته ومزروعاته . وبذلك قوى الصراع واشتدت المداوة والبغضاء بين الطرفين المتصارعين اللذين ظل كل منهما يكيد للآخر ويتربص بــــ عساه يقضى عليه نهائيا ، ولو ادى الامر الى التحالف مع عدو مؤقت او مع اجنبي كما حدث لقبائل زناتة عند ما تحالفت مع بنى امية في الاندلس .

والذى يهمنا هنا فى نظرية ابن خلدون ان قبائل بنى مرين قبسائل بربرية ترجع فى نسبها الى قبائل زناتة المسهورة وانها بانتمائها الى هذه القبائل تشكل عنصرا من العناصر التى ناصبت العداء الدائم لقبائل مصمودة وصنهاجة وغيرها من فروع البرانس ويؤكد ابن خلدون بربرية هذين العنصرين من سكسان المغرب فى عهده بتقسيم آخر جعل فيه البربر ثلاثة أقسام رئيسية : صنهاجة ، زناتة ،

مصمودة ، اي القبائل التي لعبت في المغرب دورا رئيسيا في حيساته السياسية والاجتماعية الا أننا نراه ، وهذا مهم بالنسبة لموضوعنا ، يخص قبائل زنساتة بعناية كبيرة ويدرسها في تاريخه دراسة طويلة مركزة ، الشيء الذي لم تحظ به القبائل الاحرى التي تتدرج تحت لواء البرانس ، لماذا اذن هــــنه الاهمية وهذه العنايه ؟ هل كان ذلك لغاية مادية او سياسية يرمى اليها من تاريخه الطويل ؟ كما أكده كوتيى في تاريخه «ماضي افريقيا»(I) نظرا لكون الدولة القائمة في عصره هي دوئة بني مرين وهي من زناتة ؟ نحن نعلم ان ابن خلدون كان كثير المطامسيم والشهوات ، ميالا الى العز والجاء داهية في خلق الاسباب للتقرب من ذوى النفوذ عارفا بخبايا الاحداث وبدفائن الامور متحينا الفرص ، متقلباً في سلوكه لنيـــل مراده وتحقيق أهدافه الكبرى والبعيدة ، كل ذلك نعلمه منه ، لكننا لا نظن ان ابن خلدون في بحثه العلمي ينزل الى هذه الدرجة على حساب استقسامته ونزاهته في التفكير وموضوعيته في البحث لما اشتهر به من خصال علمية وخلقية يعرفها القارىء ، لقد خدم بالفعل البلاط المريني وسمى في السيطرة على أهم مناصبه ، لكنه لم يكن من هذا النوع الذي يخدم مصالحه عن طريسق التعلق والتزلف نظرا لكفاءته وثقته في نفسه واعتزازه بمكانته الاجتماعية ، وقدرتــه العلميــة وشهرته الواسمة التي اجتازت حدود المفرب الى الشرق وغيره .

تلك هى ، باجمال ، نظرية ابن خلدون فى أصل البربر بصفة عامة وقبائل زناتة بصفة خاصة وهى نظرية تتصف بكثير من الشمول والدقة والايضاح ووفرة المعلومات وغم ما يبدو فيها من تناقض وتطرف فى القول ، ولقد كانت الصراحة التى ابداها ابن خلدون فى هذا الموضوع سببا لكثير من الانتقادات التى وجهت اليه والحملات التى قامت ضده لاسيما من طرف بعض المحدثين الذين نعتوه بأوصاف جارحة ، واتهموه بتهمة التفرقة بني العرب والبربر تلك التفرقة التى اعتمد عليها فى نهاية القرن المنصرم وفى بداية هذا القرن ، كثير ممن مهدوا الطريق للاستعمار وايدوا خطته فى التفريق بن عناصر السكان للقضاء على القوميسة وردود الفعل الوطنية فابن خلدون فى نظر هؤلاء هو الذى أوحى بهذه الفكرة للمستعمرين وهسو الذى زودهم بسلاح حاد استعملوه للقضاء على وحدة الشعوب المستعمرة ا

الا أن ابن خلدون رغم هذا التقسيم لعنصر من سكان المغرب ، الذي أطلق عليه اسم بربر أورد في مقدمته (1) استنادا الى ابن حزم أن افريقش ، وهو حميري من التبابعة انتقل الى أرض المغرب بقبائل عربية كثيرة ، استوطنته واستمرت به منذ عصور سحيقة ، ثم زاد واكد في تاريخه ان قبائل صنهاجة وكتامة من القبائل

Le passé de l'Afrique du Nord, p. 71. (1)

⁽¹⁾ راجع المقدمة ص ، ¹27

العربية التي صحبت افريقش هذا من اليمن الى المغرب . وبذلك يلتبس الامر على الباحث في هذا الميدان ، في نظرية ابن خلدون عن البربر . هل هم عرب نزحوا من الشرق الى الغرب فمكثوا فيه الى ان جاء الفتح الاسلامي انعربي ام هم عنصر قائم بذاته له خصائصه ومميزاته التي يتميز بها عن العنصر العربي الفاتح ؟ ثابن خلدوز رغم محاولاته الجريئة ومعلوماته الواسعة عن البربر وتراريخهم وأمساكن استقرارهم في أطراف المغرب لم يذهب بعيدا في هذا الجانب الذي ظل الى اليوم مستعصيا على كثير من العلماء ، ولم يقرر بصفة فسيولوجية وعلمية أن البربرر يشكلون عنصرا من حيث العرف او هم عناصر يختلفون عن العرب مسئ الناحية اللغوية فقط . بل ظل يتحدث عن البربر كعنصر قوى في البلاد له عاداته وتقانيده ، ويختلف عن العنصر العربي في كثير من السمات والصفات .

عروبة بني مرين

ترجع عروبة بنى مرين الى النظرية القائلة بعروبة البربر عبوما ، وهى نظرية كثير من المؤرخين العرب ولاسيما المحدثين منهم وغير العرب الذين كتبوا فى هذا الموضوع ، اما الاسس التى تنبنى عليها هذه النظرية فهى باجمال :

- I) اللغة
- 2) دخول الكنعانيين الى المغرب قبل الفتح الاسلامى ودخول العرب من اليمن الى افريقيا على يد افريقش .
 - :) لفظة بربر لا تعنى وجود عرق او سلالة ،
 - 4) سهولة اسلام البربر وتعريبهم بصفة سريعة .
- 5) تأثرهم بالحضارة الفينيقية تأثرا عميقا وعدم تأثرهم بالحضارة الرومانية المسيحية .

تعبر اللغة من المقومات الرئيسية لقومية ما ، فكثيرا ما اعتمد عليها المؤرخون كمقياس يعرف به مدى تشبت شعب بقوميته أو انسلاخه عن هذه القومية واندماجه فى قومية أخرى تغلبت عليه بالقوة أو بالتأثير الحضارى العالى الذى تتوفر عليه هذه الحضارة الغالبة ، وهذه حقيقة اجتماعية اثبتها التاريخ حيث رأينا شعوبا كانت تتوفر على لغة قديمة ففقدتها أو كادت بفعل التأثير الاجنبي المقصود أو غير المقصود . أما البربر فكانوا يتحدثون بلهجة بل بلهجات مختلفة متميزة عن لغة العرب الا أن هذه اللهجات كلها رغم اختلافها ورغم خصائصها حوت كثيرا من الالفاظ العربية ، كما اشتملت على كثير من ادوات النحو والمخارج المحروفية التى نجدها فى اللغة العربية ، وهكذا نجد أسماء كثيرة فى ميادين مختلفة فى حياة الاسرة او فى مرافق

أخرى تكتسى طابعا حيويا ، تجدها مستعملة عند العسرب وعند البسرير بنفس المعنى : فالموت والحياة ، والبيت والدم والباب والساقية وغيرها من الالفاظ الكثيرة التي لا يمكن حصوها هنا يستعملها العرب كما يستعملها البربر على حسه سواء أو بنسىء من التحريف ناتج عن عوامل بيئية محضة أو حركات هجرية ، أهم من هذا ان الشلحيين ينطقون بحرف الضاد كما ينطق به العرب انفسهم رغم انفراد اللغة العربية بهذا الحرف . هناك طواهر أخرى مشتركة لا يمكن أن نقف عندها هناك لتعددها وحاجة الباحث فيها الى تعليلها باظهار مصادرها والعلاقات التي تربطها بغيرها من الالفاظ وادوات النحو التي تنطوى عليها اللغة العربية ، الا أنه مسن المكن ان نشير هنا في هذه المناسبة الى البحث القيم الذي نشر في مجلة اللسان العربي للاستاذ السوسى المختار حول تأثير اللغة العربية في اللهجة الشلحية(I)فالاستاذ المختار كما يدل عليه نسبه هو من أهل سوس ، قبائل بربرية تسكن منطقة من المناطق المغربية النائية ، اديب مغربي مشهور وفقيه لغوى كرس حياته على دراسة وتدريس اللغة العربية كما احتم خصوصا بتاريخ اقليم سوس (2) وعلمائه وادبائه ومشاهير دجاله ولقد أبرز في هذا البحث وجوه المسبه بين اللغة العربية والسلحية وسرد أسماء كثيرة وعبارات متعددة تحدث عن اصلها وتطورها وما لحقها من تحريف تسم أرجعها الى مصدرها الاصلى وهو اللغة العربية ، ومما يزيد البحث قيمة أن الاستأذ المذاكور خرج بنتيجة أخرى وهي أن الشلحية في سوس وغيرها من قبائل البربس تستعمل كلمات قديمة سبقت الفتح الاسلامي ، الشيء الذي يثبت في نظره مصدوا واحدا لها وهو اللغة العربية كما يثبت وجود العرب قبل الفتح الاسلامي بقرون . ويستدل كذلك على عروبة البربر ان لفظة «بربر» التي اطلقت على هذا العنصر من السكان المفاربة لا يقصد بها العرق وانما اطلقت كوصف تطور مفهومه مع الاحداث ذلك أن دبربر، في الاصبل كلمة يونانية ، حسب كتير من المصادر ، تعنى كل من كان يتكلم بغير لغة اليونان ثم اصبحت تعنى عند الرومان جميع الشعوب التي كانت دون حضارتهم ، بل كانوا يعنون بها الشعوب البدائية التي لا حظ لها دمن الحضارة» أما العرب فقد استعملوا كلمة بربر بمعنى اختلاط الاصوات واضطراب الالفاظ او غموض مفهومها فالكلمة معنهما اذن تحريف واختلاف في الكلام والتباس فيه بل عدم مطابقته لكلام العرب -

وينسب بعض المؤرخين افريقش قوله لما سمع العرب يتكلمون بافريقيا ، «وما أكثر بربرتهم» ثم قوله في شعر :

«بربسرت كنعسان لما سقتها من أراضى الضنك للعيش الخصيب» (3)

 ^{(1) «}ثاثير العربية في اللغة الشلحية» مجلة اللسان العربي سنة 1965 عدد 2 من 32 .
 (2) له سوس العالمة في 21 ج وايليغ قديما وحديثا ...

⁽³⁾ العبر ج 1 ص 111

وهكذا يتضع ان المسالة في « بربر » مسالة لغوية محضة لا صلة لها بالعرق او بالجنس ، ذلك ان البربر هم عناصر من السكان يتحدثون بلهجة خاصة تختلف في قليل او كثير عن لغة العرب . فالبربرى اذن ، حسب ما اوردناه ، يمكن ان يكون عربيا تبربر أو ان صح التعبير متبربر تعرب ولكن أصيبت بتحريفات وتغييرات صطحية او جنرية ، بحكم البيئة او عوامل اجتماعية معينة .

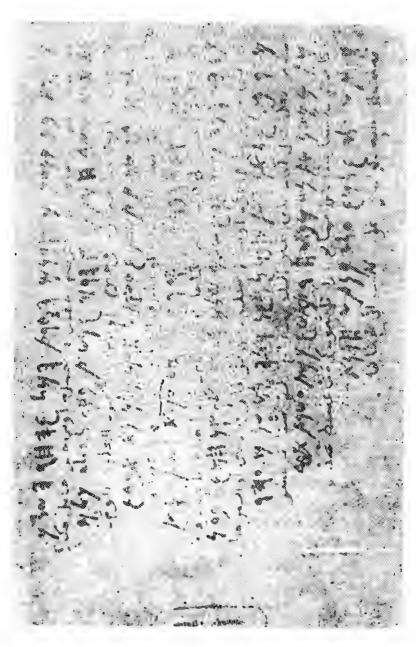
ثم هناك نتيجة اخرى يستشهد بها انصار عروبة البربر ، وهى دخول العرب من اليمن الى المغرب على يد افريقش ، ثم دخول الكنعانيين بعدهم يوم فتحوا المغرب قبل الاسلام ، بل قبل الميلاد ، وقد كان المفنيقيين في المغرب اثر كبير في سكانه ، كما اكده كثير من المؤرخين العرب وغير العرب . لم يترك الرومان في هذا البلد أثرا ، (أو الا أثرا ضعيفا سرعان ما اندرس وزال بزوال سلطتهم الرسمية) والسر في ذلك راجع الى أن الفينيقيين ، كما اثبتته المحفريات (١) كانوا يتحدثون بلغة عربية في جوهرها ، بل قريبة من اللغة العامية المنتشرة في افريقيا الشمالية .

فاذا كان سكان المغرب لم يتخذوا شيئا من الحضارة الرومانية ، رغم سيطرتها وتفوقها ، فهم قداخذوا عن حضارة الفنيقيين الشيء الكثير وانسجموا معهم في كثير من المظواهر لاسيما اللغة . وما هذا الانسجام وهدا التفاعل بدين العنصرين في نظر الكثير ، الا دليل على تقارب المنبعين ووحدة الارومتين .

واذا صحت هذه النظرية ، فبنو مرين كسائر القبائل الاخرى عرب رغسم تحدثهم بلهجة خاصة ورغم وجودهم بمناطق المغرب العربي قبل الفتح الاسلامي ، بل هناك من المؤرخين من خصهم بهذه الصفة دون غيرهم ، وأكد عروبتهم من بين البربر ، وابن خلدون نفسه ، كما سبق ان اشرنا الى ذلك ، لاحظ في عصره أن قبائل زناتة بصفة عامة تشترك مع العرب في كثير من الصفات والاخلاق واساليب العيش لا سيما أهل البدو منهم على أن ابن الاحمر صاحب « روضة النسرين » وهو من معاصرى الدولة المرينية ومؤرخيها أكد في روضته ان « زناتة كلها عربية الاصل ، من مصر ، يجتمع نسبهم بنسب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذاته وهم من بر ابن قيس ابن عيلان ابن مضر بن نزار ابن معاد بن عدنان وبر بن قيس بن عيلان جد زناتة عربي ليس بربريا سكن مع أخواله من البربر ، وكانوا يسكنون بأرض فلسطين وما ولاها من بلاد الشام ومصر ، ويجاورون العرب وكانوا يسكنون بأرض فلسطين وما ولاها من بلاد الشام ومصر ، ويجاورون العرب علوان ، فمات وهو صغير السن ، واما مدغيش فكان يلقب بالابتر وهو ابو البتر علوان ، فمات وهو صغير السن ، واما مدغيش فكان يلقب بالابتر وهو ابو البتر من زناتة ، هذا هو قول اسماعيل ابن الاحمر في عروبة زناتة أي عروبة بني مرين ،

¹⁾ لقد وجد الدكتور البرائلي الاديولوثيتو دخامة تدل على ما ذهبنا اليسية ، انظر اللسان المربى 2\1963 ص

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



1) صورة الرخامة التي وجدها الدكتور البرازلي الادير لونيتو اخذناها عن مجلة اللسمان العربي (عدد 2 سنة 1965) التي يصسرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي بالرباط .

وهو قول كما نرى يعتمد على مجرد رواية ولا يستند الى حجج مقبولة . فمن المكن ان يكون ابن الاحمر قال هذا من قبيل المدح لرؤساء الدولة الحاكمة لما عرف عنه من تحبب وتودد ورمى خصومه بنى عبد الواد باقبح الصفات وابشع النعوت وهو معروف بذلك التحيز السافر ويعترف به صراحة فى كتابه «روضة النسرين» حيث خصص القسم الثانى منه لنشر مثالب ونقائص بنى عبد الواد . ونفس الموقف يلاحظ عند عبد العزيز الملزوزى(I) فى أرجوارته (نضم السلوك) حيث وقف من بنى مرين نفس الموقف الذى وقفه نحوهم ابن الاحمر ، لقد نسبهم هو الآخر الى العروبة وتأسف على التحريف الذى أصيب به كلامهم من ذلك قوله (2) :

فجاورت زناتة البرابسرا ما بدل الدهر سوى اقوالهم بل فعلهم اربى على فعل العرب فانظر كلام العرب قد تبدلا كذاك كانت قبلهمم مريس اتخذوا سسواهم خليسلا

فصيروا كلامهم كما تسرى ولم يبدل مقتضى احوالهسسم في الحال والصواب ثمنى الادب وحالهم عن حالمه تحولا كلامهم كالمدر اذ تبسسين فبدلسوا كلامهم تبديل

السخ ...

وليس من البعيد أن يكون الملزوزى متأثرا في كلامه هذا كاسماعيل ابن الاحمر بقوة ونفوذ رؤسائه بنى مرين اذ كان أحد السفراء الملازمين لهم ، والانتساب الى العروبة أصبح بعد القتح الاسلامي مفخرة المستعربين ، وعزة للذين اقبلوا على الاسلام نظرا لكون اللغة العربية هي لغة القرآن ولغة السنة والحديث ، ولكون العرب هم الذين قاموا بالفتوحات الاسلامية ونشر الاسلام اينما حلوا ، قلا غرابة ان يصبح الانتساب اليهم والاندماج فيهم وحمل رايتهم موضوعا من مواضيع الفخر ، ومعنى من معانى المدح والثناء ، والتاريخ يجدثنا في هذا الموضوع عن كثير من الشخصيات المغربية التي بعد اندماجها في دائرة انعروبة والاسلام ، اصبحت تتنكر لاصلها وتبحث لها عن اصل عربي صحيح ، ولا غرابة ان يكون ما قاله اسماعيل ابن الاحمر وعبد العزيز المنزوزي من هذا القبيل .

ذلك ما قيل عن البربر عامة وعن بنى مرين خاصة ، وسواء صحت تلك النظريات أم لم نصح ، فلوافع المغربي ، أى المجال الذي كان مسرحا لانفعالات بنى مرين وعواطفهم وافكارهم واعمالهم ، هذا الواقع الذي شاركروا في صنعه ، وبذلوا فيه قصارى جهودهم ، جعلنا نميل في غير تأكيد الى عروبتهم أو على الاقل

¹⁾ انظر ترجمته في الفصل المقبل الخاص بمشاهير ادباء هذا العصر .

نصرح بالصبغة العربية الشديدة التي اكتسبوها في البيئة المغربية وفي الزمن الذي سيطروا فيه عليها .

واذا كان ما قاله ابن خلدون عنهم في اشتراكهم مم العرب في كثير من الصفات كانتنقل وركوب الآبل والعيش تحت الخيمة ، أذا كان ذلك لا يكفى لتاكيد عروبتهم ، فان لنا في سِلوكهم مظاهر أخرى لا تخلو من ايجابية في هذا المضمار ، فلقد اجمع كثير م نالمؤرخين الذين كتبوا ووصفوا حياتهم ان بني مرين اكثر القبائل واسرعها اندماجا في العرب وأقواها استعدادا للتكيف والانسجام معهم في حياتهم اليومية في مواقفهم الاجتماعية المختلفة اكد هذه الحقيقة كثير من المؤرخين الذين يطول بنا المقام لو تتبعنا اسماءهم كلهم ، ذلك ما جعل كوتى(x) يتساءل في استغراب عما بقى م نقبائل زناتة ويبعث عنها في مختلف مواطنها التي عرفت فيها من قبسل فلا يكاد يجد لها اثرا دانه ، يقول ، اندثرت بعد ما كانت قـــوية وانمحت اعقابها وكانها لم توجد بهذه المناطق الصحراوية والتراب من افريقيا ومن قلب المغرب الاوسط الذي كان مقرأ لها ، والسبب في ذلك ، كما يقول كوتي ، وانها ذايت ومىيت ني قبائل عربية مختلفة، وقد لاحظنا بالفعل ونحن نتتبع تطور القبائل البدوية في المغرب (بني هلال وبني سليم) أن بني مرين كانوا أكثر من غيرهم انسجاما مع هؤلاء البدو . لقد تحالفوا معهم وقربوهم اليهم وكلفـــوهم بمناصب خطيرة فــى الجيش وفي ميادين مختلفة . ولقد سبق لزنانة أن تحالفت مع قبائل أخرى عربية القبائل خير مناصر لسياستهم ضد الفاطميين المستولين على المغرب ، ثم هناك ظاهرة أخرى بالنسبة لموضوعنا وهي ان بني مرين اتخذوا اللغة العربية لغة رسمية للبلاد في مختلف الميادين خلافًا لم كان عليه الامر في زمن عبد المومن حيث ، كما يذكر التاريخ ، كانت تسود الدواة ازدواجية في اللغة : لهجة بربرية ولغة عربية ، وذلك ما لاحظه الاستاذ كنون (2) حيث يقول : دفالواقع ان بني مسرين كانوا يعملون للنهضة والتجديد في دائرة العروبة ، لا يخرجون عنها اصلا فخدموا العربية خدمة صادقة ، كفي اننا لم نعد نسمع بعد توليتهم ، الحكم بشيء من التمييز الذي كان عليه البربر في دولة بني عبد المومن بل كان هذا آخر العهد بحيلة التفرقة ، والعنصرية، والواقع ان الاستعراب انتشر في البلاد في زمن بني مرين انتشارا لم يسبق لــه مثيل حسبما رأين في التاريخ ، ذلك أن قبائل معروفة ببربريتها وبعدها عن المناطق التي بسكن فيها العرب بكثرة ، استعربت نهائيا حتى أصبح يثمك في أصلها وفي نسبها: ونتيجة لذلك ايضا انتشر الشعر العامي في البلاد وكثر متعاطوه ومتذوقوه لُسُدة تأثرهم بالمُلغة العربية وتعودهم على كثير من كلماتها وعباراتها المتداولة .

¹⁾ ماضي افريقيا ، ص، 411 ،

 ²⁾ عبد الله كنون «النبرغ المغربى فى الادب العربى» (بيروت : مكتبة المعرسة ودار الكتساب
اللبنانية الطبعة الثانية 1961) ج 1 من 183 .

أفليس هذا بكاف للدليل على ما ذهبنا اليه ، وعلى الموقف الذي وقفناه مسن عروبه بني مرين ، واذا كنا في نظر البعض ، قد أطلنا الكلام في هذه الناحية فما ذنك الا اننا نرى كما أسلفنا ان التعريف بانفرد في المجتمع (لا سيما بفرد يلعب نورا رئيسيا في تغيير البيئة وتطويرها) ، امر ضروري من الناحية الاجتماعية لمعرفة نوع النتائج التي تركها او من الممكن ان يتركها . فبنو مريس بصبغتهم العربيسة وبصفاتهم البدوية وبأخلاقهم وعاداتهم وحالاتهم النفسية اثروا بكسل ذنك فسي المجتمع المغربي ، أفلا يتأثر الادب بهذه العوامل كلها ؟

الاطبسار المادي

تلعب البيئة المادية في حياة الامة دورا مهما وخطيرا في نفس الوقت سواء أكان الامر يتعلق بالناحية النفسية ام الاجتماعية ام السياسية ، ونتيجة لذلك يصعب على الباحث بل يستحيل عليه أن يتعرف الى شعب ما دون الرجوع الى هذه البيئة التي كثيرا ما تتحكم في سلوك الافراد المادي والمعنوي وتطبعهم بطابع خاص ، ان الصلة لوثيقة بين الفرد والمجتمع الذي يعيش فيه ، فهمسا عنصران متفاعلان متكاملان متأثر احدهما بالآخر ، فمن التعسف اذن النصل بينهما والعمل على دراسة كل جانب على حدة ، لذلك نرى من انضروري الالمام ، ولو بصفة وجيزة ، بمعطيات البيئة المغربية لا سيما في زمن بني مرين .

تعاقبت على أرض المغرب منذ وطئتها قدم الاسلام دول اختلفت في السلوك والاتجاه وتغاوتت في القوة والضعف حسب الامكانيات والظروف والملابسات المحيطة بها . الا أن المغرب في هذا العصر بقي محافظا على حدوده الجغرافية وعلى وحدته الترابية منذ حققها له يوسف بن تاشفين ، فلم نعد نرى تلسك الاطراف الشاسعة المهتدة الى تونس شرقا والى الاندلس غربا اذ تقلصت الامبراطورية الموحدية وانقسمت على نفسها انقساما كان منه المغرب الاقصى اطارا لمبنى مرين والمغرب الاوسط لبنى عبد الواد بينما تسلط على القطر التونسي بنو حقص ، وهكذا رجع المعرب الى نفسه ابتداء من قيام دولة بنى مرين عليه ، مستمدا امكانياته من رجاله ومن ترابه ، متفاعلا مع معطياته ، عاملا على تثبيت شخصيته ، رغم طمدوحه في التوسع والنشاط اقتداء باسلافه .

تحده شرقا هضاب وأنجاد تتصل بالقطر الجزائرى وشمالا شاطىء البحر الابيض المتوسط وغربا المحيط الاطلنطكى وجنوبا مراكش والصحراء (×) ويمتاز خصوصا بسلسلة جباله الشاهقة الريفية والاطلسية تلك الجبال التى انطبعت بطابع

بر وما ورآءها الى اطراف شاسعة ،

verted by Liff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خاص والتي كان لها أثر فعال عبر القرون في حياته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على السواء . جعلت منه شبه مناطق داخلية واخرى خارجية ، لعبت دورا رئيسيا في حياة أفراده وتحكمت الى درجة ما في سلوكهم وتصرفهم المادى والمعنوى فكان منهم تبعا لذلك المتمسك بأرضه المعتصم بها ، المستورد رزقه منها ، كما كان منهم الراحل المتنقل من مكان الى آخر ، الباحث عن طعامه وكلا ابله أو غنمه ، لايعرف للاستقرار معنى ولا يجد الى الاكتفاء بامكانياته سبيلا وهكذا كان سكان جبال الاطلس والريف محتمين بسلاحهم الطبيعي ، مستقرين منعزنين عس سكان جبال الاطلس والريف محتمين بسلاحهم الطبيعي ، مستقرين منعزنين عس مكان السواحل والسهول الذين سلكوا مسلكا من نوع خاص له أثره في سلوك من سكن الانجاد أو المناطق الصحراوية أو الاراضي الساحلية مما أدى بطبيعة الحال من سكن الانجاد أو المناطق الصحراوية أو الاراضي الساحلية مما أدى بطبيعة الحال وطبيعة هذه المواقع الجغرافية الى تنافر وتصارع ، بل الى فتن سياسية وهزات اجتماعية لامجال لذكرها والتفصيل فيها هنا ، كل ذلك كان له أثر قوى وخطير في تطور حياة هذه البيئه التي نتحدث عنها ،

ويكفى القارىء مثالا على ذلك أن يرجع الى تاريخ هذه البلاد ليعرف ما لعبـــه شمالها من دور في حياتها وما جلبه اليها من مؤثرات خارجية ، وما تسبب فيه من أحمار نظرا لامتدده على البحر الابيض المتوسط وقربه غربا من شاطيء اسبانيا . ألم تكن حياة المغرب مرتبطة الى درجة ما بحياة اسبانيا نظرا لقرب البقعتين؟ ألـم يكن هذا الارتباط الجغرافي بين العدوتين عاملا من عوامل تفاعل وتكامل الحضارتين الاندلسية والمغربية في زمن معين ؟ الم يترك هذا الاتصال أثرا بقى الى الدوم باديا الى العيان في كل من اسبانيا والمغرب في اللغة ، وفي العادت ، في المباني وفي بعض التنظيمات ؟ وللصحراء المتاخمة لجنوب المغرب وبعض من شرقه دورها كذلك في تطور الاحداث السياسية والاجتماعية التي عاشها المغرب زمن بني مرين أو عبس عصور أخرى : أطراف شاسعة ممتدة ، شكلت منافذ واسعة تسروت ملها أن المغرب عناصر أجنبية مختبفة ، سيطرت عليه وأخضعته لحكمها وتصرفها مدة تطول أو تقصر حسب اعتبارات زمنية وأخرى مكانية . فمن هذه الابواب دخل المرابطون الذين يرجع لهم الفضل في توحيد تراب الغرب ثم المرينيون أنفسهم الذين سأسوا البلاد زهاء قرنين ونصف ثم السعديون ثم العلويون الذين يحكمون البلاد منذ سنسسة 1659 ، ولم تكن الحدود الشرقية ولا الغربية باقل أهمية وخطرا من الحدود الاخرى التي لعبت دورا رئيسيا في تاريخ الغرب السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، فالحضارة الشرقية الاسلامية خضمت في تنقلها إلى المغرب إلى هذا العامل ، فتسربت اليه في بداية أمره اوقبل أن يشتد الاتصال بالاندلس عن طريق افريقية . اننا هنا لسنا بصدد بحث موضوع تاریخی او جغرافی (شرحه وتفصیله) ولکنا لانری بدا فی بعض الاحيان ومتى اقتضى البحث ذلك من الجوء الى حقائسة تاريخيسة واخسرى جغرافية نفسر بها ونستدل على حقائق ادبية تقتضى منا الشرح والتعليل ، ذلك ال الطواهر الاجتماعية كما اثبته علم النفس الحديث وعلم الاجتماع متفاعلة متكاملة

مؤثرة ومتاثرة مهما اختلفت وتنوعت مظاهرها ومهما بدت الشقة بعيدة بين جوانبها. كم من هزة سياسية كان السبب فى وقوعها عاملا اجتماعيا أو أدبيا ! كم أذمة العتصادية لم تنشأ الا عن ظروف اجتماعية محضة أو تصرفات خلقية معينة . ان الظواهر يفسر بعضها البعض الآخر ويعلل جانبها الجانب الآخس . وتبعا لذلك ، لابد فى بعث ما من الالمام بها كلها لمعرفة مقدار تأثيرها وتأثرها وتلمس ما ظهر منها وما خفى ، وللتمييز بين الاسباب والمسببات والاصل والفرع تمسكا بالموضوعية واظهارا للحقيقة المجردة .

الاطبار الأجتماعيي

العناصر الكونة للمجتمع المغربي في عهد بني مرين

۔ ممیزاتہ۔۔۔

ـ مـدى اختلافها وانسجامها

تكونت البيئة الاجتماعية في هذا العصر من عناصر اختلفت في أصلها ، فسى تكوينها وفي سلوكها النفسى والاجتماعي ، كما اختلفت في قرتها وضعفها ، الشيء الذي أدى حتما الى نتائج معينة لابد لشرحها وتعليلها ، من التعرف الى هذه العناصر سرلاميما تلك التي كان لها من قريب أو من بعيد أثر على الحياة الادبية سرالتسمى تعايشت جميعها وتفاعلت في اطار واحد وفي زمن واحد .

فالى جانب بنى مرين ذوى السلطة الرسمية ، نجد قبائل اخرى لعبت في تكوين المغرب ، وما زالت ، دورا رئيسيا وأثرت في تطور مراحل حياته تأثيسرا خطيسرا . بالإضافة الى قبائل صنهاجة التي شكلت المغرب تشكيلا واعطته شخصية جغرافية احتفظ بها عبر العصور نجد قبائل المصامدة التي تكونت منها الدولة الموحديسة الزائلة ، فرغم كون هذه القبائل كلها بربرية أو على الاصبح تتحدث الغة بربرية الا أنها كانت كثيرة التطاحن والتصارع في الخفاء تارة وفي العلانية مسرة اخرى فالقبائل الموحدية على الخصوص كانت مناوئة مضمرة الشر ، متربصة بالقبائل المتسلطة القائمة على انقاضها ، فالمسألة خلافا ألما أكده بعض المؤرخيس وما نقسل عنهم (1) لا تعدو أن تكون سياسية محضة ومادية صرفة . فهزيمة المصامدة امام قوة بني مرين وانقراض دولتهم رغم ماكان لها من السلطة العائية والنفسوذ القسوى في المشرق أو المغرب ، والقضاء على ماكان لها من السلطة العائية والنفسوذ القسوى في المشرق أو المغرب ، والقضاء على ماكان الها من السلطة العائية عادية واعتبارات

الدار البيضاء 1951) ج 1 ص. 15-22.
 الدار البيضاء 1951) ج 1 ص. 15-22.

معنوية ، كل ذلك أدى الى ردود فعل كان لها اثر على الحياة المغربية سواء من الناحية الاجتماعية أو الناحية السياسية ، فالحقد كان حادا والتنافر مستمرا والعداء كامنا شديدا نظراً لحداثة الهزيمة وما كان لها خصوصا من أثر نفسى فى قبائل المصامدة .

فالمرحدون الى هنا ، وخلافا لبنى مرين ، أهل البدو والقوم الرحل ، عرفوا بحياتهم المستقرة وباستيطانهم للجبال وباعتصامهم باهاكنهم وبتشبثهم بأرضه واستغلالها ، الشيء الذي يتطلب العناية المستمرة والمراعاة الدائمة . اليس في هذا النوع من السلوك في الحياة تناقض حاد وخلاف يؤدى حتما الى تصادم لله اشره اقتصاديا واجتماعيا وبالتالي أدبيا ؟ ألا ينتظر من هذه الظاهرة الاجتماعية وحدها مسلوك خاص في الادب وغيره ؟ أضف الى ذلك أن العناصر المصمودية لازالت تحمل في نفسها وفي ذهنها أثر « العقيدة الجديدة » التي أتى بها المهدى بن تومرت وعمل والطريقة الاشعرية» مجددا ومجتهدا ، عاملا على تطوير مفهوم العقيدة الاسلامية وعدم الركون الى تصوص الشريعة الاسلامية وحدها دون اعمال العقل بينما قسام بنو مرين منذ اعتلائهم عرش المغرب بمحاربة هذه « البدعة » والرجوع الى الاصسل بنو مرين منذ اعتلائهم عرش المغرب بمحاربة هذه « البدعة » والرجوع الى الاصسل الحديث والابتعاد عن أعمال الرأى والاجتهاد . وبذلك تكون اختلاف من نوع آخر ، اختلاف في المذهب وفي فهم القواعد الاسلامية أو بلغة العصر معارضة مذهبيسة ان شئنسا .

العنصيس العربسي

منذ الفتح الاسلامى (١) دخلت المغرب فاستوطنته عناصر عربية ، سكنت هنا وهناك حسب اعتبارات مادية واخرى معنوية فاعلة متفاعلة مع العناصر الاخرى التى جاورتها فى نفس الاطار . الا أن الهجرة الكبرى حسب مصادر التاريخ ، كانت على يد الفاطميين يوم غادروا المغرب الى الشرق تاركين وراءهم خلفاءهم الذين مالبثوا أن انفصلوا عنهم وشقوا عصا الطاعة معلنين استقلالهم وقيام دويات تقاسمت المغرب العربي . وكرد فعل ضد حؤلاء العصاة المغاربة بعث الفاطميون الى افريقية قبائل «لا يحصى عددها» من بنى حلال ثم من بنى سليم (2) احتلت المغرب احتلالا وانتشرت في مختلف نواحيه « كالجراد المنتشر » عابثة بانظمته ، وعاثية فسادا فى أراضيه ومدنه وقراه . هؤلاء العرب بل هؤلاء الاعراب قوم بدو أتوا المغرب ولهسم

¹⁾ بل قبل الفتح الاسلامي حسب روايات مختلفسة .

²⁾ وغيرهم ه

لغتهم الخاصة وعاداتهم وتقاليدهم المرعية وسلوك في حياتهم يختلف عن سلوك الآخرين . الا يحتاج اندماجهم في البيئة الجديدة الى عملية تكييف نفسية واجتماعية قد تكون صعبة كما قد تطول أو تقصر حسب الظروف والملابسات .

ومهما يكن من أمر ، فقد عاش منهم بالإضافة الى عرب يعقل عدد كبير فــــى ظل بني مرين ، متجاورين مع غيرهم من أبناء المجتمع المغربي منفعلين ومتفاعلين ، بل لعبوا دورا في الحياة الرسمية وغير الرسمية كما لعبوا دورا في المحياة الاجتماعية في هذه البيئة ، ففي الميدان الاول نجدهم يحتلون مناصب مختلفة سواء في الجيش أو في الادارة . لقد بواهم بنو مرين مناصب عالية كان لايتمتع بها الا بنو مريسين أنفسهم ، أو عناصر من فبائل زنانة على العموم ، بل أخطر من هذا لقد وجدوا بجانب جنود بني مرين على رأس الجيش جيش الدولة رغم مايتطلبه هذا الميدان من حـــذر ونقه واخلاص . لقد علل طراس هذه الثقة التي أولاها بنو مرين لهؤلاء العرب بكون د القبائل المرينية المسيطرة على السلطة القائمة في المغرب غير متوفسرة على العدد الكافي من أبنائها لتشكيل الجيش ولتزويد المخزن بالعناصر الصالحة ، ، (I) ولكنه لم يذكر لماذا لجأ بنومرين الى العرب دون سواهم من القبائل الاخرى الموجودة فــــى المغرب أكان ذلك من فبيل العفوية والصدف أم هو أمر محكم ومدبر ؟ أما نحن فنرى لهذه الثقة أسبابا أخرى منها ما هو اجتماعي ومنها ما هو نفسي . ان بني مرين(2) عرب كما رجحنا ، بدو ورحل كهؤلاء العرب لهم تقاليد متشابهة وطقوس مماثلة رغم ما ظهر بينهم من اختلاف في السياسة أو الاجتماع . يدلك على ذلك الانسجام الـذي حصل بين الاولين والآخرين اثناء ممارستهم للسلطة والذي لم يسبق ان حصـــل بينهم وبين غيرهم من صنهاجة أو مصمودة أو عناصر أخسرى . أن طراس يؤكيد هذا ويكرره بقوله : «لم يتمكن أبدا بنو مرين من الاستغناء عن العرب»(3) .

ولقد كان من نتائج سلوك هؤلاء الاعراب ان انطبعت البيئة المغربية في هذا العصر بطابع الحياة البدوية بجميع أشكالها وضروبها المختلفة نظرا لما اتصغوا بسه من كثرة التنقل وعدم الاستقرار . فكانوا بطبيعتهم البدوية يحتلون بقعة من الارض لخصبها ووفرة مياهها ثم سرعان مايفادرونها بعد أن قضوا حاجتهم فيها. وبذلك شجعت الحركة انبدوية في المغرب وتطورت معالمها حتى أصبحت بحكم العسدوى والاضطرار قبائل كثيرة عرفت نوعا من الاستقرار تنحو نحوهم وتتخذ طريقهم في مبيل العيش والملبس والنوم . ولقد تحدث ابن خلدون عن هذه الحركة البدوية واصفا مظاهرها السلبية ومفصلا نتائجها الوخيمة من الناحية العمرانية اذ ، كما يقول في مقدمته ، د ان كثيرا من القرى والمدن الصغرى انمحت معالمها بلاندثرت

¹⁾ تاريخ المغرب ج 2 ص 98 .

²⁾ او على الاتل يصطنون اكثر من غيرهم بصبغة عربية قوية .

³⁾ انظر تاريخه (السدار آلبيضاء 1951) ج 1 ص 220 .

نهائيا ولم يبق لها أثر منذ ذلك التاريخ نظرا للاتلافات التى الحقها بها هولاء الاعراب . «(I) ولقد تأثر ابن خلدون وانفعل حتى أصبح يؤكد أن الديار خربت وان الاحجار نقلت وان الاشجار اقتلعت الى الابد . ولقد نسب ابن خلدون هذه الظاهرة الى العرب بينما الامر يتعلق بقبائل الاعراب البدوية ثم ان هذه القبائل العربية لسم تكن هى المسؤولة الوحيدة ، كما أكده ابن خلدون ومن نقل عنه (طراس) عن هذه الظاهرة الاجتماعية ذات الاثر السيء على العمران وعلى الاقتصاد بصفة عامة . ذلك أن قبائل أخرى(2) وخاصة منها قبائل بني مرين وزناتة بصفة عامة شاركت بحكم تكوينها الاجتماعي وتقاليدها البدوية في خلق هذه الظاهرة وانتشارها .

وليس بخاف مالهذا النوع من الساوك في الحياة من أثر بالنسبة للسكان الذين كانوا يعيشون على خلاف ذلك ، حياة الاستقرار والحضر _ ولو بصفية نسبية _ اذ كان الخلاف شديدا والتعصب قويا بين الطبقتين نظرا لتعارض المصالح واختلاف الامزجة وتناقض الاخلاق والذوق والخسارة التي يلحقها هؤلاء بأولئك ، الشبيء الذي تنبه اليه كثير من المؤرخين ، وفي مقدمتهم ابن خلدون ، واعتبروه نوعا من العصبية التي كثيرا ما تنشب في بقم العالم بين أهل البدو وأهل الحضر .

ونتائج هذا كله ان الحياة الاقتصادية تأثرت الى درجة ما بحياة هذا العنصر من السكان الذى سلك هذا السلوك في كسب رزقه واقتناء موارده ، اذ كان مسن الصعب على البدوى أن يمتهن حرفة أو يتخذ صناعة يتدرب عليها ويتغنن فيها أو يستقر بارض يغلحها ويرعاها ، حتى يستغل ثروتها ، الشيء الذى يتطلب منسله الاستقرار والصبر والصبود والبناء والتعمير ، بل عندما تشتد الحاجة يضطر بحكم وضعيته الى التسلط على الغير واغتصاب ممتلكاته وفرض سيطرته عليه ، مما يؤدى الى التفقير والتجويع ، ولقد ازدادت الحالة خطورة والازمة شدة بسبب ماكسان لهؤلاء الاعراب من نفوذ ومن جاء لدى رؤساء بنى مرين الذين ، اتقاء لشرهم ، أو جزاء لهم على خدمتهم ، ما فتثوا يغدقون عليهم من الاراضى المغربية أجودها وأكثرها خصبا ، ومئ المناصب أعلاها منزلة بالنسبة للعناصر الاخرى من السكان . وهكذا تمتصوا بنظام الاقطاع الذى كان سائدا في هذا العصر وتصرفوا في كثير من الاراضى تصرف بنظام الاقطاع الذى كان سائدا في هذا العصر وتصرفوا في كثير من الاراضى تصرف كذلك أن قل خصب هذه الاراضى وتفهقرت فلاحتها وفتر عمرانها وعم فيها الفساد والظلم نتيجة رد فعل أصحابها .

الا ان البيئة المغربية قد افادت كثيراً من وجود هذه القبائل العربية بين طهرانيها وانتشارها في كثير من الجهات التي تتفق وطبيعتها . لقد انتشرت

¹⁾ المقدمة (مصر ـ الطبعة التجارية الكبرى بدون تاريخ) ص. 149-150 .

Marcals (W.), Les Arabes en Berherie ,pp. 162 - 182 مراجع على الخصوص 182 - 182

العربية بفضلها انتشارا لم يسبق للمغرب أن عرفه من قبل وعمت حركة التعريب كثيرا من القرى والبوادى حتى أصبحت اللغة العربية هى اللغة السائدة فى البلاد(I) وهي اللغة الرسمية للدولة (2) خلافا لما كان عليه الامر زمن الموحدين او العصسر الذى سبقه . وهكذا عربت قبائل كثيرة لم تكن تعرف سوى البربرية بل هناك من القبائل من عربت نهائيا وفقدت و بربريتها عصبى اصبح يشك فى امرها ويستبعد أن تكون بربرية فى بدايتها ، ولقد ساعد على هذه الحركة وتنشيطها ماكان لبنسى مرين وهذه القبائل من توافق فى الامزجة وتشابه فى الطبع وتقارب فى كشير مسن العادات والتقاليد وبذلك تظافر الطرفان وتعاونا عن قصد أو غير قصد فى كثير من الاحيان على خلق هذه الظاهرة الاجتماعية التي كان لها كما سنرى اكبر الاثر من النحية الادبية أو جوانب أخرى مختلفة تمت اليها بصلة(3) .

عنصس الانكسيين

هناك عنصر آخر من عناصر سبكان المغرب لايجب ان نغفل عن ذكره ، نظرا لما قام به من دور وما تركه من أثر في هذه البيئة التي كانت اطارا واحدا لجميع المناصر المختلفة التي تعايشت كلها فيه وتفاعل بعضها مع بعض فكونت وحدة احتماعية لها طابعها الخاص ومبيزاتها الخاصة . والامر يتعلىق هنسا بعنصس الاندلسيين الذين ترددوا على المغرب او عاشوا فيه حينا أو استقروا فيه نهائيا لاسباب دينية أو اجتماعية أو اقتصادية . لقد توالت هجرات الاندلسيين على المغرب منذ ارتباط العدوتين إلى أن اشتد هذا الارتباط وقوى في عصر بني مرين قبــل أن يتلاشى وينهار بسقوط دولة بني نصر (4) . لم نجد في المصادر الخاصة أو العامة ما يساعد على معرفة نسبة هؤلاء المهاجرين بالضبط ولم نقف على وثيقة تفيد من قريب أو من بعيد في البحث عن أهمية حركتهم ، ولكننا بحكم التاريخ وتطور الاحداث نستطيع أن نؤكد ان الهجرات مهما اختلفت انواعها ومقاصدها ، قد قويت وتلاحقت في زمن قصير ايام المحن ولاسيما بعد سقوط القواعد الاسلامية بالاندلس وقيام مملكة غرناطة التي كانت بمثابة مقدمة للهجرة الكبرى . والذي يهمنا هنا ان قيام غرناطة وافق قيام دولة بني مرين وأن عمر الاولى كان تقريبا هو عمر الاخرى ، اي منذ أوائل القرن السابع للهجرة الى أواخر القرن التاسع وهكذا عاشت الدولتان

¹⁾ طراس (تاريخ المغرب السداد البيضاء 1951) ج 2 صفحة 26 .

عبد الله كنون النبوغ ج 1 ص 183 .

كل ثم أن هناك قوائد أخرى مس الناحية الاقتصادية لا يتسع المجال لذكرها هنا .

⁴⁾ سنة 1492 •

وجها لوجه تارة فى تعاون مستمر ضد النصارى وأخرى فى تنافر وتنازع ومرة فى حياد قد يطول أمده أو يقصر . وبذلك امكنهما ان تلعبا دورا مهما فى تاريخ كل من المجتمعين بطابع خاص تجلت معالمه فى الحياة الاجتماعية كما ظهرت آثاره فى الميادين الاخرى .

واذا تذكرنا أن القواعد الاسلامية المتداعية هنا وهناك والمتساقطة في يسد الاسبان تركت شعبا أوى كله تقريبا أو جله الى غرناطة ، الملجأ الاخير ، حيتى ضاق سكانها بهؤلاء المهاجرين وأصبح يعادل 600 (1) ، وعلمنا من جهة اخرى الظروف القاسية التي كان يتخبط فيها سكان هذه القاعدة الاخيرة ، أمكننا تقدير مدى ارتباط مصير هؤلاء الاندلسيين بمصير المغاربة ومعرفة اهمية رجالاتهم وتنقلاتهم الى المغرب الذي طالما استنجدوا به هم وأسلافهم ووجدوا فيه في كثير من الاحايين المساعد الامين والناصر القوى والجندى الباسل .

ومهما يكن من أمر ، فقد وجدوا في المغرب في هذا العصر الذي نؤدخ لسه وتناثروا هنا وهناك رغم انحصار جلهم في بعض المدن الرئيسية كفاس وتطوان والرباط وسلا وغيرها من المدن والبوادي والقرى .

وقبل أن نتعرض لصفاتهم وأخلاقهم وما تركبوه من أثس في هذه البيئة المغربية ، يجب أن نعرف قبل كل شيء من هم ؟ مامنبعهم ؟ وما نسوع ثقافتهم بصفة عامة ؟

منهم العربى القع الذي نزح من الشام أو غيرها منذ الفتح الاسلامي وحافظ على قيمه ومثله الاخلاقية والاجتماعية عبر الصور (2) ومنهم المولد ، اين النصارى الذين اعتنقوا الاسلام ، والذين ها زالوا بحكم الوراثة والبيئة التي نشأوا فيها يحملون كثيرا من صفات واخلاق اجدادهم رغم اندماجهم في المجتمع الاسلاميي ، ومنهم المدجن الدي عندما غلب على أمره واصيب في نفسه وذويه ، رضى بالتعايش مع غيره من الاسبان الفاتحين فبقي خاضعا لسيطرة السلطة المسيحية محافظة على أمواله وأمتعته أو لاعتبارات أخرى ، ومنهم النصرائي المعاهد الذي فضل البقاء في ظل الدول الاسلامية المتساقطة لاسباب مختلفة ، متشبئا بديانته وخلقه وتعصبه خصوصا رغم ماتشمتع به من تسامح ديني واجتماعي ، ورغم ماتظاهر به من محبة واخلاص للمسلمين . ومنهم الموريسكي أو العربي المتنصر ، ذلك الذي أرغم على اعتناق الديانة المسيحية والتخل نهائيا عن جميع مظاهر قوميته والذي رغم الوعيد

¹⁾ عنان عبد الله ، نهاية الاندلس وتاريخ المغرب المتنصرين القاهرة ، مطبعة مصر 1953 صفحة 35 ·

 ²⁾ لقد ذكر ابن الخطيب في الاحاطبة عددا . التبائل العربية التي استوطنت الاندلس آنظر صفحة
 40. (دار المعارف بمصر المجلد الاول بدون تاريخ) .

رالتهديد استطاع الالتحاق بالمسلمين فرارا من الاذى ومحافظة على عقيدته (I) ، ومنهم الافريقى البربرى الذى كان قد اختار العودة مع الغزاة أو مع غيرهم يعمل جنبا الى جنب مع باقى الاندلسيين المجاهدين (2) .

والواقع أن الامر يتعلق باجناس أو على الاقل ، بعناصر اختلفت في دياناتها وفي ثقافتها كما اختلفت في اساليب حياتها ونماذج سلوكها رغم البيئة المادية التي كانت اطارا واحدا لتعايشها وتفاعلها ، شعب تكون من هذه العناصر جميعها التي امتزج بعضها في بعض ماديا وفكريا وروحيا فكان منها الاديب والفقيه والتاجـــسر والصانع والفلاح والفنان وغيرهم من طبقات الشعب .

نالآن يحق لنا أن نتساءل عن الاثر الذي تركه هؤلاء الاندلسيون في المغرب وعن الدور الذي لعبوه في مختلف الميادين الثقافية منها والاجتماعية على الخصوص

لم تحفل مصادر التاريخ كمادتها يهذا النوع من الدراسات نظرا لاهتمسام اصحابها بالناحية السياسية والعسكرية على الخصوص ، والاكتفاء فسى كثير مسن الاحيان بالإشارة الى الجوانب الاجتماعية والثقافية ، وقد يرد شيء من ذلك هنا وهناك ، لكن يصفة عرضية وفي مواضيع متفرقة . لذلك يصطدم الباحث في هذا الميدان بكثير من العقبات ، قبل أن يصل الى الغاية المنشودة . ونحن ، وأن كنسا لانريد التفصيل والالم بجميع الجوانب مراعاة للخطوط التي رسمناها لهذا البحث الا اننا نرى ضروريا في هذا الباب أن نقف ولو قليلا عند بعض المظاهر التي تجلى قيها اثر هذا العنصر من انسكان .

نعم لقد دخل المغرب هؤلاء المهاجرون وازداد عددهم كما راينا في هذا العصر، نظرا لما حل بهم من أزمات وما لحقهم من ويل وبعدما تأكدوا من النهاية الحتية لفرناطة المحتضرة ، دخلوا ولهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة وعقليتهم ، وطبائمهم واخلاقهم التى كانت تختلف عن اخلاق من أقبلوا على التعايش معهم في هذه البيئة المغربية .

لقد عاش الشعب الاندلسى ، كما لا يخفى ، فى احتكاك مستمر مع النصارى وغيرهم ، فى اصطدام تارة وفى استسلام طورا وفى تعايش سلمى موقت أحيانا ، مما أدى الى ردود فعل سلبية وايجابية ، نفسية واجتماعية ودينية على الخصوص ، أساسها التنافر والتناقض ومحاولة قضاء جانب على الجانب الآخر . وكيان من نتائج هذا الصراع ان تاثر الاندلسيون بصفة شعورية وغير شعورية رغم محافظتهم على عقيدتهم ، بنظريات ومفاهيم من خالطهم من النصارى واليهود الذين كثيرا ما

¹⁾ عنان عبد الله ، نهاية الاندلس (القاهرة مطبعة مصر 1958) صفحة 472 .

²⁾ منهم بثو ادريس وبنو الملا مثلا

افشوهم فى أمور دينية طالما اجتنبوا الخوض فيها والتساهل فى تأويلها ، فاتصغوا تبعا لذلك او عن طريق التأثير غير المباشر بجرية التفكير ، وانطلاقة التعليل ، ومحاولة فهم الاشياء ، طاهرها وباطنها ، الشيء السنى لم يكن مألوفا فى البيئة على العموم ، اذا استثنينا بعض الاوساط . ألم تكن هذه الظاهرة وحدها كفيلة بخلق نيار معارض قد يكون سريا لا يتعدى الانفعال المكبوت ، وردود فعل نفسية تنتظر فرصة التنفس والتعبير ، كما يكون علنيا يتجاوز دائرة الانفعال وينتقل الى بعض الطبقات الاجتماعية ، لا سيما ونحن نعلم ان المغاربة عرفوا منسذ القديسم بشدة محافظتهم وتسكهم بتقاليدهم التي طالما دافعوا عنها ، وكافحوا من اجل ابقائها على ما هى عليه نظرا لماهية البيئة التي كانوا يعيشون فيها واسلوب انحياة التي كانوا يعيشون فيها واسلوب انحياة التي كانوا يحيونها .

لقد حاول الموحدون مثلا ، بشتى وسائل الضغط والاكراه ، ارغام رعيتهم على اعتناق افكارهم الجديدة والتخلى عن مذهب مالك . لكن هذه الوسائل لم تزد المغاربة الا عنادا وتصلبا فى الموقف ، رغم ما لحقهم من أذى ومحن . وفى هذا المضمار نورد منا فقرة للاستاذ كنون(١) هذا نصها : دوالذى نريد أن نسجله هنا هو أن المذهب المالكي لم ينهزم مطلقا أمام الدعوة الى الاجتهاد التي كان الموحدون يتزعمونها ولا امام المذهب الظاهرى الذى عرف نشاطا كبيرا في هذا العصره . ويفيد النص كذلك أن الظاهرية عرفت نشاطا ملحوظا الى جانب المذهب المالكي والتيارات الفكرية الاخرى من شيعية وسلفية وغيرها . ألا يعني هذا أن دعوة ابن حزم عرفت مكانها في البيئة المغربية ووجدت معارضة قوية من طرف الفقهاء والعلماء وطبقات الشعب الاخرى(2)

لقد حدث من معارضة ومقاوءة ما أشار اليه الاستاذ كنون أيام بنى عبد المومن حيث كانت الهجرة محدودة وتلقائية في غالب الاحيان . فما ظنك بعصر بنى مرين حيث اشتدت الهجرة وقوى الارتباط بين العدوتين وتساقطت جميع القواعسيد الاسلامية في يد الاسبان باستثناء غرناطة التي كانت على وشك السقوط والانهيار، وسواء ظهر ذلك أو لم يظهر لمن أرخوا لهذا انعصر من الماصرين وغيرهم . فأن طبيعة الاجتماع وقوانينه تجعلنا ننتظر تلك انتيجة رغم ما بدا في الافق من طواهر أخرى سائدة حالت دون ملاحظات تلك التيارات المعاكسة التي تعمل عملها في الافكار وفي النفوس ولو لم تتخذ شكل الظاهرة السيطرة .

هذا فيما يرجع لبعض خصائص الذهنية الاندلسية ، اما الجوانب الاخرى فجديرة بانذكر لما لها من أثر في الوصف والتعليل . لقد عاش الاندلسيون في

¹⁾ النبوغ المغربي ج 1 ص. 122-123 •

²⁾ النبوغ 1 ص 137 حيث يذكر الاستاذ كنون ما لقيه المذهب الظاهرى من معارضة على يد النقيه ابى زكرناء الزواوى ايام الموحدين .

بيئه وصفها الشمراء والكتاب والمؤرخون وغيرهم وباوصاف لا تكاد تختلف فسمى جملتها ، وهي من شبأنها أن تؤثر في الفرد وتكيف سلوكه النفسى والاجتماعي ، وتجمل منه عنصرا له مذهب خاص في الحياة واخلاق تبعث على التفاؤل والانشراح والاقبال على الحياة الرحة للتلذذ بها وبشهواتها . قالوا انها خصبة وجميكة تحف بها الحدائق الغناء ، وتخترقها الوديان الجارية وتعلوها القصور البديعة المتناثرة هنا وهناك ، وتتلاقى فيها جميع العناصر المتعايشة اليهودية والنصرانية والعربية وغيرها وتعيش كلها تحت ظلالها الوارفة وجناتها المثمرة ، بيئة شاع فيها الغناء والطرب والرقص وانتشرت فيها دور الملاعي والمقاحي التي كان النسساس يؤمونها من سائر الطبقات تفاعلت فيها حضارات مختلفة في صفاتها فتكونت منها حضارة راقية ، حضارة الشعب الاندلسي على العموم ، ولقد أكد ابن الخطيب(I) في حديثه عن غرناطة قائلا: «أخلاقهم جميلة وصورهم حسنة ، وشعورهم سود ، والسنتهم فصيحة عربية واخلاقهم أبية ، وحديث حريبهم جميل ، مومسوف والسحر ، وتنعم الجسوم واسترسال الشمود ، رخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المجاورة ، وقد بلغن من التغنن في الزينة لهذا العهد والمظاهر في المصبغات والتنفيس بالذهنيات ، والديباجيات والتماجن في اشكال الحلى الى غاية نسال الله أن يفض عنهن فيها، .

تاك هي بيئة الاندلسيين التي تركوها وتنك أعلاقهم وصفاتهم التي حملوها معهم يوم أقبلوا على البيئة الجديدة ليتخذوها مقرا نهائيا لهم .

ومى بيئة تختلف ، كما نرى ، عن البيئة المغربية ، ذات النزعة البدوية ، كما أسلفنا ، والطابع المحافظ . ألم يكن حتميا أن يقع بين العنصر انتقليدى والعنصر الجديد نوع من التناقض والتصادم قبل أن يقع الاندماج والانسجام ؟ الا تقتضى ظروف التفاعل والاحتكاك المباشر أن يتأثر جانب بجانب آخر والعكس بالعكس ، ذلك ما كنا فنتظره وما لمسنا منه فى مختلف مظاهر الحياة المغربية بعد قسدوم هؤلاء المهاجرين ، رغم كون دائرة استقرارهم لم تتعد بعض المدن الرئيسية كالرباط وتطوان وفاس . لقد كيفت هذه العناصر الاندلسية حياة المغرب الثقافية والاقتصادية والاجتماعية . وتركت آثارا مباشرة وقوية فى جميع الميادين ، مما جعل بعض المؤرخين ومتهم طراس(2) يؤكدون أن حضارة المغرب فى عصر بنى مرين حضارة الدلسية معضة مستوردة من العدوة الاخرى ، لا دخل للمغاربة فيها . ورغم ما فى هذا الحكم من تسرع وتطرف ، لتجاهله عملية التفاعل الاجتماعي من أخذ وعطاء ،

¹⁾ الاحاطة ، تحقيق وتقديم عبد الله عنان (دار المارق بمصر بدون تاريسين) المجلد الاول ص 133 .

²⁾ تاريخ المغرب الدار البيضاء بدون تاريخ ج : 2 ص 76 .

نلاحظ ان العنصر الاندلسى كان له أنر فعال فى جميع مرافق الحياة المغربية . كما سنرى قيما بعد بتفصيل ، الا انه يمكن الاختصار والاكتفاء هنا بذكر بعض الامثلة فيما يرجع لميادين رئيسية .

ففي الميدان الثقافي مثلا ، نجد عناصر أندلسية اكتسحت الميدان ولعبت دورا رئيسيا فيه . نظرا لما كانت تتوفر عليه من مكانة سامية ومركز اجتماعي مهم ، لقد وقد على المغرب في هذا العصر من المهاجرين شخصيات ذاع صيتها في المجتمع المغربي وانتشر مفعولها نفسيا وروحيا وماديا ، فكان لوجودها في المغرب فائدة للطلبة بصفة خاصة ولجميع الاوساط المثقفة بصغة عامة وليست هذه الشخصيات بالعشد القليل الذي يمكن حصره في هذا المجال الضيق ، لذلك نكتفي هنا بذكر بعض الاسماء مشيرين الى الدور الذي قامت به عذه الشخصيات .

في المقدمة نجد الشاعر الكبير ، والكاتب البليغ والمؤرخ العظيم الوزير لسان الدين ابن الخطيب (ت) الذي تردد على المغرب كسفير او كلاجيء وشهرته لا تخفى على أديب او مؤرخ نظرا لثقافته الواسعة والدور الذي لعبه في الميدان الثقافي والمبيدان السياسي ، اذ كان ابن الخطيب أمعتافا يقتدي به أينما حل وارتحل فكانت تلك الإيام التي قضاها بالمغرب عبارة عن دروس يستفاد منها ، او مادة غزيسرة يستقى منها سواء في الميدان الثقافي او في السياسة او في البلاط الملكي ، ولا أدل على ذلك مما ألفه أثناء مقامه بالمغرب من كتب كثيرة ومتنوعة ستأتي عبلى ذكرها من بعد . وفي عالم الروحيات نجد صخصية أخرى لسردها على سبيل المثال نظرا للدور الذي لعبته في ميدان الزهد والتصوف وأعني بهذه الشخصية أبا العباس احمد بن عاشر ، دفين سلا ، لقد انتقل من غرناطة الى المغرب حيث أصبح العباس احمد بن عاشر ، دفين سلا ، لقد انتقل من غرناطة الى المغرب حيث أصبح شيخا يتطارح عليه ويتبرك منه . طمعا في نضائحه ودعواته ، يكفيك دليلا على ذلك ما قام به السلطان أبوعنان من جهود للاتصال به والاستفادة من نصائحه . فله القد ذهب اليه راجلا وانتظره طويلا لكن محاولاته باعت بانفشل فرجع خائبا ، يائسا

وفى البلاط المرينى نجد كذلك عددا لا يستهان به من هؤلاء الاندلسيين الذين خدموا الدولة وأدوا من المهام ما جعلهم يتقلدون مناصب عالية مخزنية نظرا لثقافتهم وقوة نفوذهم والشهرة التى كانوا يتمتعون بها سواء فى بلادهم او خارجها . فرجودهم فى البلاط دليل على تأثيرهم المادى والمعنوى ، وشرف للمخزن المريني الذى أصبحوا من المنتمين اليه وهكذا ، على سبيل المثال ، كان لابى عنان من الكتاب الاندلسيين ابن جرى ناسخ رحلة ابن بطوطة وأبو القاسم ابن يحى الفسانى البرجى وغيرهما ..

أما في الجيش قلقد احتل الاندلسيون كذلك مناصب سامية ، اسوة بغيرهم

¹⁾ تونى 776 بفاس حيث أحرق •

من العرب والبربر ، كقواد او كمشاة ، فاتصفوا بالخصال الحسنة ، وبالطاعة وحسن الترتيب واللون الجميل في اللباس . ومن المفيد ان ننقل هنا عن الاستاذ المنوني ما جاء في بحثه عن جيش بني مرين حيث يقول مستندا الى دفيض العباب، فقد كان في مقدمة الموكب قواد الجيش من بني مرين وانعرب والاندلسيين والاعلام وجاء بعد هذه الجموع المشاة الاندلسيون (1) .

وهكذا يتضبح من هذا النص أو غيره من المراجع ان الاندلسيين لعبوا دورا هاما في الجهاز الادارى للدولة وأدوا خدمات مدنية وعسكرية ، لا تقل شأنا وخطورة عن المهام التي اسندت لغيرهم من بني مرين والعرب وهي ، كما نرى ، وظائف سامية لا تسند الا لمن حظى بثقة الرؤساء وتوفرت فيه شروط الامانة والكفاءة والاخلاص . وبذلك كان للدور الذي قاموا به في هذه الميادين اثر بليغ في ذهنية ونفوس المغاربة الذين عاشروهم او اتصلوا بهم من قريب او بعيد . وأنت تعلم ما في الاحتكاك المباشر او غير المباشر ، لا سيما بمن تتمثل فيه السلطة او الكفاءة ، من اثر في التكييف وقدرة على التنشيط، وبعث دوافع التقليد والتنافس والتسابق .

وليست هذه هى الميادين الوحيدة التى تجلى فيها أثر الاندلسيين بالمغرب ، ان تأثيرهم تجاوز هذا الحد الى مرافق أخرى اجتماعية واقتصادية وعمرانية لا سبيل للتعرض لها هنا نظرا لما سقناه من أمثلة نظن أنها كافية لاخذ فكرة عن الدور الذى لعبه هذا العنصر من السكان الى جانب العناصر الاخرى . ورغم كونهم انحصروا فى بعض المدن الرئيسية فإن تأثيرهم المادى والخلقى والمعنوى تجاوز حدود هذه الدائرة الضيقة ، وانتقل كما قلنا ، الى آفاق أخرى بقيت الى الآن تحمل طابعا اندلسيا . فهر ذلك التأثير فى فن البناء وفى اللباس وفى أسلوب الاكل وفى الغناء ، وفى الرقص وفى تقاليد وعادات ما زال بعضها حيا الى اليوم .

عنصر اليهسود

أجمع المؤرخون او كادوا على ان أهل النمة ، اليهود والنصارى ، بصغة عامة، عاشوا فى المجتمعات الاسلامية عيشة كريمة محترمة ، لا يمسهم سوء ، ولا يصيبهم اذى الا في أحوال نادرة ، نظرا لما تمتعوا به فى هذه المجتمعات من تسامح دينى واجتماعى ، خلافا لما كان عليه غيرهم من المسلمين فى بلاد النصارى حيث ساد واجتماعى ، خلافا لما كان عليه غيرهم من المسلمين فى بلاد النصارى حيث ساد التعصب والاضطهاد والابادة فى بعض الاحيان وأصدق مثال وأقربه الى عصرنا ما شاهدته اسبانيا المسلمة على يد الكنيسة اتر سقوط غرناطة ونفى المورسكيين

¹⁾ مجلة البحث العلمي العدد 2-1964 صفحية 98 .

وفي هذا يقول آدم متز (1): وان ما يعيز الملكة الإسلامية عن بأوربا النصرانية في العصور الوسطى ان الاولى يسكنها عدد كبير من معتنقى الاديان الاخرى غير الاسلام ، وليسبت كذلك الثانية ، وان الكنائس والبيع ظلت في المملكة الإسلامية كأنها خارجة عن سلطان الحكومة ، كأنها لا تكون جزءا من المملكة ، معتمدة في ذلك على العهود وما أكسبتهم من حقوق ، وقضت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين ، فتسبب ذلك في خلق جو من التسامح لم تعرفه أوربا في القرون الوسطى، هذا ما قاله آدم متز عن وضعية أهل الذمة في المجتمع الاسلامي ، وما قال عنهم غيره لكثير سواه في تاريخ الاسلام او تاريخ المسيح . واذا كان الامر كذلك ، فلا غرابة فيه ، اذ أن القرآن وهو دستور الاسلام ، وأساس شريعته نص على معاملة النصارى واليهود معاملة أساسها انتسامح والتعاطف والتعايش السلمي ، الشيء الذي يفرض احترام شعائر الدين وعاداته واخلاقه ، ولو كان في ذلك ما حرمه القرأن على المسلمين . فقد قال تعالى : «ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي الينا وانزل الينا وانزل اليكم ، والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون » ، (2)

ولم يكن المجتمع المغربي في عهد بني مرين بأقل من غيره من المجتمعسات الاسلامية تسامحا نحو اليهود . لذلك نجد منهم في هذا العصر أقلية كان لها دورها وتأثيرها المباشر وغير المباشر في الحياة المغربية واذا كنا نجهل بالضبط. نسبة هذه الاقلية وأماكن استقرارها لعدم اهتمام المؤرخين بصبغة عامة يهسذا البجانب ، فمن الممكن أن نؤكد ان نسبتها ارتفعت في هذا العصر خصوصا ، وفي العصور التي بعده ، نظرا لما حل بالمسلمين باسبانيا من تعذيب ونغي نتيجــــة تعصب الكنيسة ضدهم اثر سقوط غرناطة وبعد النفي العام . ذلك أن اليهود كانوا يعيشون في ظل القواعد الاسلامية بالاندلس آمنين مطمئنين ، متمتعين بحقوقهم المادية والمعنوية ، كما أكد ذلك كثير من مؤرخيهم وغيرهم من المسلمين والنصاري ، الى أن نفوا مع المسلمين ولقوا نفس الصير من اضطهاد وتعديب ، فتوافدوا بكثرة على أرض المغرب، واستقروا ببعض مدنه وقراه لاسيما في فاس حيث البلاط المريني وحيث الاسر الموسرة والعناصر الاندلسية التي هاجرت من العسدوة واسته طنت هذه المديينة منذ قرون . وجدير بالذكر هنا كما أكده الى مالكا(3) أن أهم الإصلاحات التي أدخلت على قانون الاحوال الشخصية اليهودية يرجع عهدها الى هذا التاريخ الذي قويت فيه الهجرة اليهودية الى المغرب ، اذ أن كثيرًا من الحاخامات الذين هاجرواً الى المغرب بادروا بتشريع هذه الاصلاحات مستمدينها من العادات والتقاليد اليهودية التي كانت سائدة في الاندلس فكانت اذن تلك الهجرة عاملا من عوامل وضعية المرأة اليهودية بالمغرب وأساسا لكثير من التشريعات التي ما زال معظمها يطبق حتى

الحضارة العربية ، ص، 172 .

²⁹ المنكبوت ، 29

³⁾ مالكا : وضعية المرأة اليهودية بالمرب ، (باديز 1952) ص 115 م

انيوم (I) . ونلاحظ كذلك ان حؤلاء اليهود المهاجرين هم السفرديون الذين كانوا يتحدنون بلهيجة اسبانية (لاتينو) . أقد نقلوا الى المغرب علاوة عن ثقافتهم الدينية عاداتهم وأخلاقهم وما اكتسبوه من مميزات خاصة وعمة في المجتمع الاندلسسسي الاسلامي الذي كان يعج حينذاك بعناصر مختلفة المشارب والمنازع . فكان منهم من بلغ درجة كبيرة في العلم والاداب ، كما كان منهم أطباء وتجار وصناع وأصحاب حرف بدوية وفنون مختلفة سنتعرض لها فيما بعد .

وعلى كل فقد عرفوا في كنير من نواحي المغرب ولا سيما فاس ، وعاشوا جنبا الى جنب مع المغاربة المسلمين كما نائوا عطف الرسميين وغيرهم من رؤساء بني مرين الذين قربوهم اليهم وأغدتوا عليهم عطفهم وأدخلوا بلاطهم ومجالسهم وأطلعوهم على أمورهم الخاصة ، انشىء الذي جعل المسلمين ، في بعض الابيال يغيرون على أويثورون ضد الطغيان والتحكيم . وإذا كان أبو الحسن المريني شذ عن غيره من ملوك بني مرين(2) واستغنى عن هذا العنصر ولم يستخدمه ولم يقربه ، فأبو يوسف يعقوب وهو مؤسس دولة بني مرين عندما بني فاس المدينة البيضاء ، لم يفته ان يعقوب وهو مؤسس دولة بني مرين عندما بني فاس المدينة البيضاء ، لم يفته ان خصص لليهود جزءا من ساحتها كمساكن يستقرءن بها ، فانتقلوا اليها على عهده، بل من أمره ، حماية لهم ، ودفاعا عن حقوقهم . أما السلطان أبو بعقوب فكان لا يغارقهم لا في سرائه ولا في ضرائه «حتى التحموا به التحاما وامتزجوا امتزاجها يجانسونه في خلواته وينادمونه في أنديته ، فعظم بأسهم لدى الحاشية لاقبال السلطان عليهم» (3)

وفى أيام السلطان عبد الحق آخر ملوك بنى مرين برز على مسرج السياسة يهودى يدعى هارون عين وزيرا فكان من أمره ما كان حتى قام قاضى فاس وخطيبها أبو فارس الورياكلى يخطب فى الناس ويحثهم على شق عصا الطاعة وخلع السلطان عبد الحق والانتقام من هارون الذى طغى واستبد بالحكم وصار يعذب هذا ويرحم الآخر . وإذا كان ما حدث أيام ابى يوسف الموحدى الذى أمر بتمييز اليهود عن غيرهم بلباس خاص(4) يجعل المعترض يشك فى المعاملة الحسنة التى لقيها اليهود فى بعض المجتمعات الاسلامية من طرف الرؤساء والملوك ، فالسبب فى ذلك على ما يستنتج من الاحداث والملابسات راجع أولا الى كون عناصر من اليهود قد اسلمت او تظاهرت بالاسلام ثم أصبحت تسلك سلوك من ارتد او سلوك المنافقين . لذلك فرض عليهم السلطان المذكور زيا خاصا عقابا لهم على ما أبدوه من نفاق وخداع ووقاية من تصرفات أخرى قد تثير الغوضى وتسبب الاضطراب ، ثم ان هذه التدابيل

¹⁾ نغى المصدر ، ص 116 .

²⁽ ابن مرزوق المسئد السحيح ؛ مجلسة هميريس ج 60 ، 1925 ص 127 .

³⁾ الناصري ، الاستقصاء العزء 3 (دار الكتاب الدار البيضاء 1955) من 80 .

⁴⁾ عبد الواحد الراكشي ، المجب (القاهرة 1949) تعقبق وتقديم محمد بسعيد المهربان ومحمد الرحماني سنحة 304 و 305 .

كانت على العموم فردية بمعنى ان المسؤولية فيها كانت تقع على ابى يوسف الموحدى ولم نصدر عن الشعب كرد حماعى . فالامر اذن كان يكتسى صبغة خاصة ويعتبر شيئا قليل الوقوع .

وهكذا يتضبح لنا الدور الذى قام به اليهود فى عصر بنى مرين . والنفوذ الذى حصلوا عليه على يد ملوكهم بصفة خاصة ، فكانوا فى البلاط ندماءهم وخزنتهم مدبرى شؤونهم الخاصة ، بسل مارسوا السلطة وخاضسوا فى شؤون السياسة وحكموا فكان منهم الرئيس وكان منهم الوزير .

الا أن دورهم الخفى داخل البلاط المرينى كان أقوى وأشد ثأثيرا ، نظسرا لاتصالاتهم السرية بالحاشية والاسرة المالكة ولتعاطيهم لحرف وصناعات فنية تمت الى النساء باكير صلة وترتبط بميدان الانفعال والوجدان ايما ارتباط .

وعن طريق هذه الوسائل السرية النفسية استطاعوا ان يضربوا على الوتر المسعاس ، فاستمالوا القلوب ونانوا من العطف ما جعل بعض ملوك بنى مرين يستمعون اليهم وينتصحون بنصائحهم ، فيطبقون ما يوحون به اليهم ولو كان ضد الزعايا المسلمين ، وذلك ما حدث بالفغل أيام السلطان أبني الربيع الذي قتل الكاتب الشهير العلامة أبى مدين عقلا بنصيحة اليهودي خليفة ابن وقاصة الاصغر(1) .

وفى الميدان الاجتماعي برز تأثير اليهود في نواحي كثيرة من الحياة المغربية الاسيما في فاس ارتبطوا بأهلها ارتباطا وثيقا وتفاعلوا معهم تفاعلا مستمرا كان أثره واضحا في المعاملات المشتركة والاتصالات المختلفة في كثير من العادات والتقاليد السائدة بين الفريقين . ان كثيرا من العادات الاجتماعية ، والعادات المتعلقة بحياة الاسرة أو بنظام الاكل أو اللباس أو بظواهر أخرى أصبحت مشتركة بين بعض الاسر المهودية بحيث قوى التشابه في بعض الميادين .

ولعل السر في ذلك راجع ، في نظرنا ، الى أن فاس كانت تحوى في هذا العصر كثيرا من العناصر الاندلسية المسلمة التي هاجرت اليها اثر سقوط القواعد الاسلامية والتي كانت تعيش ، كما أسلفنا ، جنباالى جنب مع اليهود قبل نزوجهم الى أرض المغرب . كان اذن ماض مشترك ، وطول الفة ، ثم كان النفي العام الذي وحد المصير ، فهذه كلها عوامل اجتماعية ونفسية كانت الاساس في تكوين هذه الروابط الودية بين بعض الاسر المغربية والاسر اليهودية .

واذا كنا نجد صعوبة فى تحديد هذه الظاهرة الاجتماعية ومعرفة مدى التأثير والتأثر فى مظاهرها ، فمن الممكن أن نسجل بعض العادات والتقاليد التى انتقلت مباشرة من عنصر اليهود الى المسلمين ، ويرجع انتشار كثير من هذه العادات والتقاليد

ألناصرى الاستقصاء ج 3 صفحة 99 100٠

الى هذا العهد الذى نؤرخه . لقد كانت هناك صناعات مختلفة خاصة باليهود انفردوا بها بنسفة عامة .

فالصياغة والصيرفة لم تكن بيد المغاربة المسلمين في أول الامر ، ولم تكن لهم كذلك مهارة كبيرة في صنع الاقمشة والملابس النسوية على الخصوص كنظم العقد ونسج القيطان وحبك السفيفة، وتطريز القفطان بالصقلى ، وانما انتقلت اليهم عن طربق اليهود الذين كانوا يباشرونها ويتفننون فيها . وفيما يرجع لاساليب الطبغ يمكن أن نلاحظ أن قلى الفلفل وتقطيعه وغمسه في الخل وتحميضه مع تحميضات بأخرى كالباذنجان والجزر ، كل ذلك كان مألوفا في أطعمة اليهود قبل أن ينتقل الى أطعمة الاسر المسلمة .

هذا فيما يرجع لبعض التقاليد والعادات الاجتماعية التى بوزت في بعض الاوساط المغربية التي سكنها اليهود مع غيرهم من المسلمين ، أما من الناحية الثقافية فلا نكاد نجد في مصادر التاريخ أو غيرها وخصوصا تاريخ المغرب ، اهتماما كبيرا بهذا الجانب رغم كون اليهود عرفوا منذ القديم بثقافة دينية لاهوتية كانت تقريبا الميدا نالوحيد الذي خاضوا فيه وتوسعوا(I) ورغم كون يهود الاندلس على الخصوص نشطوا نتيجة احتكاكهم بالمسلمين في هيادين صوفية وأخرى دينية محضة تدور حول التوراة والتلموذ ويؤكد هذا ما أنبته المدرى شراقي(2) في كتابه عناليهود حيث يقول : (أن الثقافة اليهودية عرفت في المجتمع الإسباني ساعاتها الذهبية في القرون الوسطى وذلك في اطار الحضارة الرقيقة التي أدخلها بنوا أمية الى قرطبة . ولقد أعطى التعايش العربي اليهود أحسن ما يمكن من الثمار) . أفما كان اذن من الممكن أن يترك اليهود أثرا في هذا الميدان كما قعلوا من بعد في المجتمعات الاسلامية الاخرى ، بحكم اليهود أثرا في هذا الميدان كما قعلوا من بعد في المجتمعات الاسلامية الاخرى ، بحكم الإنسان وما ينتج عنه من ردود فعل نفسية واجتماعية تبعل العنصرين المتجادلين يدليان بحجج وأدلة ولا سيما وقد ورد في القرآن مسائل جاءت في التوراة بتفصيل يدليان بحجج وأدلة ولا سيما وقد ورد في القرآن مسائل جاءت في التوراة بتفصيل الخياء وغيرها ، وذلك ما لم نعثر عليه تعصبا للعاطفة الدينية أو لاسباب أخرى لسنا نعلمها لحد الآن .

وهل ما هنالك أن بعض المصادر اشارت اشارة خفيفة الى شخصية من علماء اليهود بفاس وهبو موسى بن ميمبون القرطبى(3) . ويذكر بعض المؤرخين أن موسى هذا خرج من قرطبة خوفا من اضطهاد الموحدين وسكن مع أسرته بفاس قبل أن ينزح عنها الى مصر ، كما يذكرون انه كان يحفظ القبرآن ويتظاهس بالاسلام . ولا غرابة في كون موسى بن ميمون يحفظ القرآن لان التوراة والقرآن

¹⁾ اندرى شراقى : تاريخ الديائة اليهودية ، سلسلة «ماذا اعرف» باديز 1964 س 97 ٠

 ¹⁰² نفس المدر سفحة 102 .

کان نی عصر آلوحدین بھ

متحدان كما قلنا فى أمور كثيرة رغم اختلافهما فى الجزئيات والتفاصيل . وقد ورد فى بعض المصادر ذكر شخصية أخرى عرفت بعلم واسع واطلاع كبير وهى خلوف اليهودى ويضيف نفس المصدر أن خلوف هذا كان من أساتذة محمد بن ابراهيم الابلى التلمسانى فى عصر بنى مرين(4) .

تلك بصفة وجيرة أهم مميرات العنصر اليهودى فى هذا العصر وأبرز مجالات نشاطه فى الميادين الرسمية والثقافية والاجتماعية . ويتضح مما تقدم أن أثر هذا العنصر ومخلفاته ظهرت بشكل قوى فى فاس رغم وجود اليهود فى مدن أخرى مغربية كتطوان والرباط ومكناس ومراكش وذلك يرجع الى الاسباب التى ذكرناها آنفا .

 ⁴⁾ عبد الكريم بن الحسنى: جامعة القروبين (الكتا باللحبى ، الذكرى المائة بعد الالف نشر
 وزارة التربية الوطنية 1954) صفحة 166 نقسلا عن ابن القاضى جلوة الانتباس .

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version

الحيساة السياسيسة العامسة

حضع المجتمع المغربي في هذا العصر كالعصور التي سبقته أو لحقته لقانون النشوء والارتقاء ، فشهد قيام دولة وسقوط دولة أخرى . دولة تنشأ وترقى وتتطور ، ودولة تشبيخ وتعجز فتحتضر وتبوت . ذلك ما عاشه المغرب في هذه الفترة الاول التي تبدأ يقيام دولة مرين وسقوط دولة الموحدين . وليس الامر بسيطا كما قد يتبادر الى الذهن وكما يتصوره بعض المؤرخين الذين كثيرًا ما يغفلون هذه المرحلة الانتقالية نطرا لبعدهم عن الاحداث وتأثرهم بالالفاظ التي كثيرا ما تضلل القارىء وتخفي عليه ما تتضمنه من قوة وضعف وايجابية وسلبية ، وحيوية وشدة انفعال ، وتذهب به بعيدا عن الواقع الاجتماعي وتوقعه في الجفاف اللفظي ، وبذلك يميل الى الاختصار والتجريد الذي كثيرًا ما يفسد الحكم ويشوهه ؛ ونحن لا نريد من المؤرخ أن يتأثر بعاطفة أو بأخرى ، فذلك يتنافى والبحث العلمي وانما نريد أن ينتبه الى هذه الظاهرة النفسية ويقيم لها وزنا ويتخلص من تأثيرها فيقف منها موقف الحياد ليبني أحكامه لا على ما تمليه الالفاظ والعبارات المختصرة وما قد توحى به هذه الالفاظ من ذكريات بل كذلك على نتائج الجهود التي يبذلها لتفهم الاوضاع وسبر غورها ومعرفة ما يحركها وما يتفاعل في خلقها من عوامل نفسية واجتماعية واقتصادية . ذلك أن كثيرا من المصادر التاريخية لا تعير لهذه الفترة الانتقالية أهمية كبيرة ، رغم خطورتها وشدة تأنيرها في الاوضاع السائدة ، فتكون النتيجة الاختصار والايجاز والتطلع السريم الى معرفة خصائص ونتائج الدولة الجديدة ؛ مع أن الامر ذو أهمية كبرى ، لا بالنسبة فقط للدولة الناشئة والدولة المنهارة ، بل كذلك بالنسبة للبيئة التي تكون مسرحا لهذم الحوادث . هناك صروح تشيد وأخرى تهدم ، هناك عادات تتزحزح وأخرى تتكون ، وبعبارة أوجز هناك صراع بين الحياة والموت . ولقد حملنا على ايثار هذه الملاحظات ما رأيناه من اختصار وتحريف في وصف هذه المراحل الدقيقة من تاريخ المجتمعات الاسلامية على العموم والمجتمع المغربي بوجه أخص ، وحرصنا على الالمام بالعناصر السلبية والإيجابية في الموضوع والاسباب القريبة والبعيدة التي كتبيرا ما تكون وراء الاوضاع والاحداث والذي يهمنا هنا أن مثل هذه المراحل كثبيرا ما تكون هي الاساس في خلق مجتمع جديد ، ترسم له الخطوط التي يسير عليها في مستقبله ولا تحيد عنها الا في جزئيات أو ميادين خاصة لان المجتمع في بدايته كالطفل في حداثة سنه يتأثر الى حد بحيد في حياته المقبلة بما عاشه من أحداث في صباه وما يتكون فيه من عادات سلبية وايجابية في هذه المرحلة من حياته التي تترك فيه من العوامل ما سيطبع شخصيته وما سيتحكم في سلوكه الى درجة معينة . وليس

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مناك اذن حد فاصل ، كما في الاشياء المادية المحضة ، بين دولة قديمة واخرى في جديدة قامت على انقاضها ؛ وانما هناك صراع بين قوة آخذة في الهبوط وأخرى في طريق الصعود ، تشتركان معا في هذه العملية في نفس الزمن والمكان ، رغم بروز القوة الحديدة في مسرح السياسة والنفوذ الرسمي . فقيام دولة بني مرين منذ بداية القرن الثالث عشر ليس معناه انمحاء دولة الموحدين نهائيا وخلو الميدان لبني مرين وحدهم ، ذلك ما لا يقبله العقل ، وما لا يسمح بتصوره علم الاجتماع . وانما هناك اختفاء دولة من الميدان الرسمي وحلول دولة محلها فيه . أما الصراع فيبقى دائما مستمرا في النفوس وفي العواطف والتفكير ، والا فكيف يعقل أن فيبقى دائما مستمرا في النفوس وفي العواطف والتفكير ، والا فكيف يعقل أن نصحي عادات تكونت منذ قرون وترول من الاذهان والعواطف والوجدان لتحل محلها حبين عشية وضحاها ... عادات أخرى أتت بها عناصر جديدة استولت على زمام الحكسم .

وعلى كل ، فالمرحلة الانتقائية التي عاشها المغرب في هذا العصر ، مرحلة كان لها شديد الاثر في تاريخه السياسي والاقتصادي والاجتماعي بصفة عامة . وهي مرحلة استفرقت حسب العؤرخين أي حسب الاعتبار السياسي الرسمي نصف قرن على وجه التقريب أي منذ ما قبل 2213 الى سنة 1269 وهو التاريخ الذي قضي فيه السلطان أبو يوسف يعقوب على مقر سلطة الموحدين ابتداء من سقوط مراكش . أما حسب الواقع الاجتماعي والنفسي فسلطة بني مرين بدأت قبل سنة 1213 ، بدأت أما مسب الواقع الاجتماعي والنفسي فسلطة التي كثيرا ما كانت تقاوم العناصر الزناتية أيام الموحدين ، بل قبل قيام هذه الدولة التي كثيرا ما كانت تعيكها ضدها ؛ بل وتحاول بشتي الوسائل استمالتها ، نظرا للمؤامرات التي كانت تحيكها ضدها ؛ بل هناك ما يؤكد أن جدور هذه الدولة المرينية تمتد الى القرن العاشر والحادي عشر حيث كانت قبائل زناتية تصول وتجول في ربوع المغرب ، ممهدة الطريق بصفة المبراطورية لدولة بني مرين التي سيطرت على الحكم بصفة رسمية اثر تفكك امبراطورية الموحدين وانقسامها . ويحدثنا التاريخ أن هذه القبائل الزناتية التي المبراطورية الي وجودها في المغرب ما بين الفرن العاشر والحادي عشر كان لها من النفوذ أشرنا الى وجودها في المغرب ما بين الفرن العاشر والحادي عشر كان لها من النفوذ والقوة ما جعلها تشكل امارتين مستقلتين بالمغرب وهما امارة مكناسة وامارة مغواوة .

ونتيجة لما سبق أن ذكرناه ، اشتد الصراع بين القوات المنهارة والقوات الصاعدة حيث دام أكثر من نصف قرن ، الشيء الذي تسبب في كثرة الفتن والحروب بالاضطرابات الداخلية التي عصفت بالبلاد وهزت أركانها وزحزحت أمنها وأحدثت تغييرا في نظمها ، مما كان له أثر على حياة هذه البيئة التي عاشت في جو من الاستقرار والسلم النسبي على عهد الموحدين ، لم يكن من السهل القضاء على قبائل المصامدة التي ظلت تقاوم وتصارع الى آخر لحظة من حياتها السياسية الرسمية التي انتهت بسقوط مراكش في يد أبي بسقوط مراكش في يد أبي يوسف يعقوب بقيت العناصر المصمودية منبئة هنا وهناك ، ومعتصمة بالجبال ،

منحينة الفرص ومترقبة الحوادث ، تعمل فى الخفاء كائدة وناقمة . وما استقرار بنى مريى فى فاس حسب بعض المؤرخين الا احتياط وخوف من الجبال المطلة على المدينة والسى التجأت اليها قبائل مصمودية كثيرة .

وقد كان على بني مرين أن يواجهوا كذلك قوة أخرى ويحسبوا لها حسابها ، انقاء لشرها ، ورغبة في استخدامها لصالحهم . ذلك أن قبائل الاعراب المنتشرة في بلاد افريقية وفي المغسرب الاوسط دخلت على يد الموحديس الى المغسرب الاقصى واستقرت في نواحي كثيرة منه لاسيما في السهول والاماكن الصحراوية . فكانت بطبيعتها البدوية وبحكم تكوينها العام وسلوكها الخاص ، وبوصفها عنصرا أجنبيا ، كانت بحكم هذه العوامل كلها حدثا اجتماعيا له عواقبه وأثره في المجتمع المغربي . فالمشكلة اذن كانت مشكلة اندماج ، تحتاج الى وقت والى عملية تكييف قد تكون سهلة أو صعبة حسب الظروف والملابسات المحيطة بميدان التفاعل والتعايش ، واذا علمنا أ ذالمغرب كان يعيش نسبيا عيشة استقرار فبل دخول هؤلاء الاعراب الى عيدار، الاجتماع والسياسة ، وإن هذه القبائل لم تعرف سوى التنقل والترحل من مكان الى آخر ، أدركنا خطورة الموقف بالنسبة لبنى مرين أنفسهم وللبيئة المغربية المشاكل الاخرى وذلك حفظا على سلامة سلطتهم ومراعاة للتوازن الاجتماعي العام ، واتقاء كل ما من شأنه أن يمس بعرشهم من قريب أو من بعيد . كان عليهم اتخاذ هذه الاحتياطات رغم ما كان بينهم وبين القبائل البدوية من تشاب في المسزاج والطبع ،كما أسلفنا ، وتوافق في كثير من العادات والاخلاق ، وانسجام في ميادين الساوك العام .

ومن العوامل الاخرى التى زادت فى توتر الحالة العامة قيام دولة بنى عبد الواد بالقطر الشقيق ، وتعتبر هذه القبيلة الزناتية اعدى عدء لبنى مرين(1) ويرجع عداء كل منهما للاخرى منذ زمن طويل الى العصبية القبلية ولاسباب اقتصادية لا مجال المتفصيل فيها هنا . لقد نشب بين الدولتين نزاع مسلح استعمل منذ قيامها الى النهاية فكان لذلك أثره فى سياسة المغرب الداخلية والخارجية وفى حياته الاجتماعية والاقتصادية على العموم اذ أن كثيرا من الحروب والفتن قامت بالمغرب بسبب وجود عدو دائم على الحدود الشرقية المغربية . فكانت النتيجة حدوث اضطرابات متوالية نطلبت من بنى مرين ومن الشعب المغربي مجهودات بشرية ومادية لمجابهة همنه الواجهة الثالثة وللقضاء على هذه الفتن التي أصبحت تهدد الدولة الجديدة وهي لم تستقر بعد بصفة نهائية .

ا) من تتاليج ذلك كاليف كتاب دوشة النسرين في محاسن بني مرين ومساوى بني عبد السواد
 لابن الاحمر .

ثم بحكم طبيعة البيئة المغربية ، وبحكم الجوار وعوامل دينية صرفة أصمحت من المعايير السائدة في المجتمع المغربي لتقييم الاوضاع الجديدة ولتحديد مشروعية الدول القائمة والحكم على مدى استجابتها نرعبات الشعب العميقة ، بحكم هذا كله وجدت الدولة المغربية نفسها في وضع يفرض عليها ، تكيفا مع البيئة الجديدة، ان تجابه مشكلا آخر لا مفر منه ، ولا تملص من تحمل أعبائه ، مهما كانت الظروف ومهما كلفها ذلك من ثمن وتضحية ؛ كان عليها اذن أن تفتح المعركة في هذه الواجهة الاخرى حيث كأنت حرب الاسترداد الاسبانية على أشدها ومملكة غرناطة في خطر شديد ومستمر . فمنذ تسلط بنو مرين على الحكم ووقعوا تحت الضغط الاجتماعي شعروا بثقل الوزن وأدركوا أنها مسؤولية سيضيفونها الى مسؤولياتهم الاخسرى ، حفظا على مركزهم وتأكيدا لسمعتهم . منذ بداية أمرهم وجه اليهم النداء التقليدي وتلقاء أبو يوسف يعقوب وهو لم يستكمل بعد تصفية القواعد المصمودية ، وهو ما زال في هجوماته ضد الفتن الناشئة هنا وهناك وضد المؤامرات التي كثيرا سا تقوى في مثل هذه المراحل التي تجتازها الشموب ، وبالفعل أخذ السلطان أبو يوسف يستعد للمعركة منذ هذا التاريخ ويمهد لها الطريق ويرسم لها الخطط حتى اذا ما جاءت سنة 1275 وجدته على أتم استعداد ليلتحق بجيشه الذي عبر البحر الى العدوة الاندلسية حيث تتأهب حيوش الغريقين لخوض غمار المعركة .

وهكذا يتضع لنا أن هذه المرحلة الانتقالية التى عاشها المغرب في همذا العصر والتى أبرزنا بعض مظاهرها ، كانت خطيرة وقوية الاثر في سياسته الداخلية والمخارجية ، اذ فيها تحددت معالم هذه السياسة واتضبحت خطوطها وبرز كثير من أهدافها ، كما كان من المكن توقع نتائجها سواء في الميدان الاجتماعي أو الاقتصادي أو الثقافي على العموم حتى أصبحت كثير من الوقائع التى حدثت فيما بعد والتغييرات التى طرأت على الانظمة والعادات والتقاليد نتيجة لهذه المقدمة التى رسمت الخطوط الرئيسية وفتحت أبواب مجالات بقيت مفتوحة الى آخر أيام بنى مرين وخلقت أوضاعا كان لها نتائج قوية في مستقبل حياة المغرب الثقافية والاجتماعية . ألم تكن هذه الحروب والفتن والاضطرابات السياسية والاضطهادات الدينية خليقة بتحريك العواطف وبايقاض الشعور وخلق ردود فعل نفسية خاصة واجتماعية تؤثر بتحريك العواطف وبايقاض الشعور وخلق ردود فعل نفسية خاصة واجتماعية تؤثر قي الميدان الادبي وتتأثر به ؟ ألم تكن سببا لفتح أبواب المغرب على مصراعيها قي العموم ؟ لاستقبال عناصر أجنبية لها ثقافتها الخاصة (1) ولها دينها (2) ؟ ألم تكن فرصة لاتصال أهل المغرب الاقصى بأهل المغرب الاوسط والادني والشرق العربي على العموم ؟

الاندلسيون .

²⁾ اليهود والماهدون ،

onverted by liff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبعبارة أدق الم يكن لها في ميدان الادب تأثير مباشر أو غير سباشر ؟ ذلك ما سنراه في موصعه بحول الله .

وتلي هذه المرحلة الانتقالية مرحلة أخرى أطول (1269 ــ 1358) عرف فيها المغرب على يد بني مرين كثيرا من الاستقرار وتطورت فيها العادات واستفحلت فيها المشاكل التي برزت الى الوجود في المرحلة السابقة . لقد بذلت فيها أكبر التضحيات وأعظم الجهود لاقرار الامن وتركيز أسس الدولة وتحقيق الاهداف التي رسمت مز قبل ، وتعتبر هذه المرحلة من الناحيتين الزمنية والمكانيسة وحسب النتائسج المستخلصة أطول المراحل التي قطعها المغرب في هذا العهد وأغناها أحداثا وأشدها تركيزا وأكثرها عمرانا وأرقاها ازدهارا . يكفيك أن أعظم ملوك بني مرين عاشوا فيها وان أعظم المؤسسات والمنشآت العمرانية يرجع تاريخ تأسيسها الى هذا العهد، وان أهم المنجزات وأقوى العمليات العسكرية والاتصالات الدبلوماسية حققت أثناء هذه الفترة . ففيها تدخل بنو مرين في الاندلس تدخلا مباشرا ومستمرا كانت له نتائج قوية بالنسبة لعمر غرناطة ، آخر قاعدة اسلامية بالاندلس ، وفيها قاموا بمعارك طاحنة ومتوالية ضد بني عبد الواد بتلمسان والمغرب الاوسط. كما بسطوا سلطانهم على مملكة الحفصيين على يد أقوى ملوكهم السلطان أبي الحسن الذي حقق انتصارات كبيرة على الصعيدين الافريقي والاندلسي حتى كان الناس يظنون أن الامبراطورية الموحدية قد بعثت على يد هذا السلطان . وفي الميدان العمراني شهد المغرب في هذه المرحلة تأسيس عدد كبير من البنايات الضخمة الجميلة والمؤسسات الدينية والاجتماعية المزخرفة التي بقيت بعض معالمها الى الآن شاهدة ، ناطقة بعظمة هذه الدولة وبالمجهودات الجبارة التي بذلتها في هذا الميدان .

أما فى الميدان الثقافى ، فقد برز فى هذه الفترة كبار الفقهاء والمحدثين وأشهر المؤرخين وعلماء النحو واللغة كما ظهر عدد لا يستهان به من الادباء ، كان من انتاجهم أمهات الكتب التى استفاد منها أهل المغرب وأهل الشرق على السواء ولا يزال الطلاب والقراء الى اليوم فى بعض معاهدنا ينهلون منها ويستضيؤون بنورها . بكفينا هنا أن نشير الى أن ابن اجروم صاحب الاجرومية فى النحو وابن مرزوق وابى زرع وابن الشاط وابن بطوطة وابن رشيد كلهم عاشوا وانتجوا فى هذه الفترة التى نصفها .

على أن الحالة لم تدم طويلا كما هى فى عزها ومجدها وان الزمان ، كما قالوا ، بخيل لا يجود بمثله فى كل الظروف والمناسبات ولان قانون التطور يسير سيره الحتمى لا يراعى فى ذلك سوى الاتحداث وتفاعلها وتكاملها وتناقضها ، فينزل بنمه من قمة مجدها وذروة رقيها الى درجة تنحط فيها وينطفى، نورها . ذلك ما وقع لدولمة بنى مرين فى هذه الفترة الاخيرة التى تبتدى، بنهاية عهد أبى عنان وتستمر الى أواخر سنة 1465 التى شهدت سقوط بنى مرين وزوال نفوذهم الرسمى . الا أن الامر ليس معناه انحطاط الدولة نهائيا فى هذه الفترة وانقضاء كل شىء من سلطتها

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الزمنية والروحية وتوقف آثارها الثقافية والحضارية ، ذلك ما يتنافى وأسس علم الاجتماع والقوانين التى يخضع لها فيما يرجع لتطور الامم والمراحل التى تقطعها فى ازدهارها وانحطاطها . ذلك أن الدولة استمرت فى مباشرة مهامها فى الداخل والخارج وحققت انتصارات فى ميادين مختلفة وبقى نفوذها سائدا . الا أن كثرة الفتن الداخلية والمؤامرات والدسائس الوزارية والهجمات الخارجية والتدخيلات الاجنبية وكوارث طبيعية وأمراض اجتماعية خطيرة ، كل ذلك أصابها فى الصميم وكان الزجنبية وكارث طبيعية وأمراض اجتماعية خطيرة ، كل ذلك أصابها فى الصميم الوهن ، وكانت الانهزامات المتتالية فى الداخل والخارج . يكفيك برهانا على ذلك الوهن ، وكانت الانهزامات المتتالية فى الداخل والخارج . يكفيك برهانا على ذلك أن بنى الاحمر ، يعدما كانوا يستنجدون ويستعطعون ، ويستفيدون من قوة أيطال بنى مرين ، بعد هذا كله ، أصبحوا فى آخر هذه الفترة يتأمرون على الدولة ويتدخلون فى شؤون المغرب (1385 – 1380) تدخلا سافرا ، يعزلون هذا وينصبون ذلك وفقا فى شؤون المغرب (1395 – 1380) تدخلا سافرا ، يعزلون هذا وينصبون ذلك وفقا لمصلحتهم وأغراضهم الشخصية . ولا أدل على ذلك من ابعاد السلطان أبى الربيع وتعيين أبى العباس مكانه ومن احراق لسان الدين ابن الخطيب بفاس ، كل ذلك دير ونفذ بايعاز وأمر من السلطان محمد الغني بالله .

ويكفيك حجة كذلك أن بنى مرين فى آخر أمرهم أصبحوا أداة طيعة فى يد وزرائهم يغرضون عليهم اراداتهم ، ان نفذوها نجوا ، والا ، أصابهم ما أصاب السلطان أبا سعيد عثمان الثالث والسلطان عبد الحق المرينى على يد الوزير أبى زكرياء

والذى يهمنا ان نسجله هنا بالنسبة لموضوعنا هو أن المغرب ، نتيجة لما عاسه نى هذا العصر من أحداث واضطرابات وفتن فى الداخل والخارج وما حصل عن ذلك من ردود فعل نفسية واجتماعية ، أصبحت له علاقات مختلفة مع الدول المجاورة ، مع الشرق ودول افريقية أفاد منها رغم ما منى به من انهزامات سياسية واضطرابات اجتماعية استنزفت قواه وأضعفت امكانياته المادية والبشرية مع الاندلس .

لقد فتحت هذه العلاقات أبواب المغرب كلها في وجه الاندلسيين الدين نقاطروا على مدنه وقراه في هذا العصر ، فكان ملجأ سياسيا يقصده كل من نكب وأصيب من أجل أفكاره ونزعاته السياسية ودارا للضيوف يلقون فيها كثيرا من الترحيب والاكرام ، ومقرا للسفارات المتواردة عليه ، كما كان مسكنا لكثير مسن العناصر التي أرادت أن تستظل بظله ؛ فكانت النتيجة أن أصبح التبادل ظاهرة مثمرة استطاع بفضلها كثير من أهل المغرب أن يطلعوا على القطر الاندلسي ويشاهدوا ما يتوفر عليه من امكانيات طبيعية وبشرية وما يزخر به من مظاهر العضارة والرقي ، فكانت فرصة ثمينة سمحت لهم باجراء اتصالات كثيرة مع ذوى العلم والمعرفة وأصحاب الفن والحرف المختلفة ، وتلك نتائج كان لها صدى كبير كما سنرى في ميدان (الادب والنقافة بوجه عام) . ولقد كان من نتائج هذه الاحداث ونوع السياسة ميدان (الادب والنقافة بوجه عام) . ولقد كان من نتائج هذه الاحداث ونوع السياسة الني مملكها بنو مرين أن اتصل المغرب اتصالا قويا بالمغرب الاوسط وبالمغرب الادني،

فالتدخل بل القضاء على دولة بنى عبد الواد كان الهدف الرئيسى لهم ، اذ العداوة كانت قديمة لم تتغلب عليها الايام بحيث استعملت كل من الدولتين جميع الوسائل وسلكت شتى انواع السلوك للقضاء على الاخرى ، فدبرت المؤامرات وحيكت الدسائس ونفذت جميع أنواع الحيل والمكر والخديعة ، تحقيقا للانتصار . فكانت الغلبة لاسباب لا سبيل لذكرها هنا لبنى مرين الذين استطاعوا ، بعسد خسائر كبيرة وتضحيات جسيمة ، القضاء على بنى زيان وضم قطرهم الى المغرب الاقصى ، ثم كان التدخل النهائي لابى الحسن في تونس حيث استطاع بفضل جهاده ودهائه أن يضم هذا القطر الآخر الى باقى اجزاء المغرب العربى ، رغبة في تحقيق الوحدة الكبرى ، وجمع الشمل . ومهما كانت النتائج السياسية لهذا الانتصار ، فالذي يجب تسجيله هنا أن عددا كبيرا من فقهاء المغرب وعلمائه استطاعوا خصوصا في يجب تسجيله هنا أن عددا كبيرا من فقهاء المغرب وعلمائه استطاعوا خصوصا في مهمه ورون آنذاك بالنبوغ والمعرفة الواسعة وبالتطلع في العلوم الشرعية وفي الفقه مشهورون آنذاك بالنبوغ والمعرفة الواسعة وبالتطلع في العلوم الشرعية وفي الفقه في مكان آخر .

ومن العوامل التي ساعدت على اقامة علاقات بين الشرق عبوما الانتصارات العظيمة التي حققها السلطان أبو الحسن في تونس أو غيرها ، فقد كان لها صدى قوى وأثر عبيق في الاوساط الشرقية وفي مصر على الخصوص ، حبيث أصبح السلطان محمد الناصر ابن قلاوون يتلقى السفارات المغربية حاملة كتابا خاصا من السلطان البريني مع هدايا ثمينة كالمصاحف المذهبة وأشياء أخرى نفيسة ، وكثيرا ما كانت تبعث هذه السفارات بمناسبة سفر الحجاج المفاربة أو رغبة في اقامة علاقات طيبة أو لاسباب خاصة كسفر والدة السلطان أبي الحسن الى الديار المقدسة . على أن المهم في هذا هو تنقل المغاربة ، وقد كان ملوك بني مرين يراعون في تعيين على أن المهم في هذا هو تنقل المغاربة ، وقد كان ملوك بني مرين يراعون في تعيين الوفود اختيار الشخصيات التي كانت تتمتع بنفوذ معنوى وروحي وبثقافة متينة (x) وبذلك يقع الاتصال والاحتكاك والتبادل في الافكار وفي الآراء وتقسع المناظرات والمناقشات التي ترجع بفائدة كبرى على الطرفين

العيساة الدينيسة في عصر بني مريسن

بدل الموجدون أقصى ما يمكن من الجهود وتفننوا فى الموسائسل المختلفة للقضاء على المنحب المالكي وعلى انصاره فقاموا بحملة كبرى تعسفية ضد من كان يعتنقه ، أحرقوا كتب الفقها على مرآى ومسبع من أفراد

لك الكاتب أبن مرزوق من طرف السلطان ابى منان بالاتجاه الى تونس قصد تحقيق مشروع الزواج من آخت السلطان الحفصي .

الشعب ، للقضاء على المذهب ، ثم للقضاء على علم الفروع ، تمهيدا لنشر دعوتهم اندينية وتثبيتا لمركزهم السياسى ، فكان الصراع ، وكانت المعارضة وكانت ردود الفعل هنا وهناك ... ذلك أن المذهب المالكى ، فى نظرهم ، أصبح جافا ، خاليا من محتواه الصحيح ، ومبنيا على القشور ، وعلى الشكليات بعيدا عن دعامتيه الاصليتين القرآن والسنة ، اذ أصبح الفقهاء ، وهم كثيرون ، يشتغلون بالتصنيف والتلخيص ، والتجريد ، تاركين الاصول ومهتمين بالفروع ، فأصبحوا تبعا لذلك محتكرين للعلوم الدينية ، ان صبح التعبير ، مستبدين بآرائهم وأفكارهم فارضين سلطتهم الروحية والمادية على الرؤساء وعلى غير الرؤساء من أفراد الشعب ، فاحتلوا سلطتهم الروحية والمادية على الرؤساء وعلى غير الرؤساء من أفراد الشعب ، فاحتلوا

المناصب المالية ووقفوا مواقف عدائية ضد من كان يخالفهم في الافكار والآراء .

الا أنه رغم هذه الحملات المنظمة . وهذه التعسفات الشديسدة والتدابير النظرية والعملية للقضاء على المذهب المالكي وعلى انصاره ، فان الحالة سرعان ما رجعت الى ما كانت عليه من قبل ، فخرج المذهب من هذه المحن منتصرا ومن هذه المعركة التي صمد ضدها قويا . ذلك أن بني مرين بمجرد استيلائهم على الحكم قد أعادوا للشعب مذهبه الرسمي ، وعملوا على توطيده وتدعيم أركانه ولم يجدوا في ذلك صعوبة ولا معارضة جديرة بالذكر . لان الشعب كان قد اختار مذهبه منذ ما قبل المرابطين وانسجم مع مقتضياته ، وتكيف مع متطلباته ، لاسباب اجتماعية لا سبيل لتحليلها هنا ، رغم ظهور مذاهب أخرى لم يكتب لها النجاح ، وتيارات عقدية وسياسية كانت تعارضه وتعرقل سيره ، كما أن المذهب الاشعرى من حيث المقيدة ظل هو الآخر سائدا ، يرعاه ملوك بني معرين ويدين به الشعب كله بصفة عامة .

لم يكن بنو مرين ، كما هو معلوم ، أصحاب فكرة جديدة من حيث الفقه أو في العقائد أو أصحاب دعوة اصلاح يقومون بها ، كبنى عبد المومن سابقا ، لتركيز سلطتهم ولتعليل موقفهم واستيلائهم على الحكم ، وانما انتصروا في هذه الناحية على الرجاع الامور الى نصابها استجابة لمطامع الشعب العميقة ، ولكسب النفوذ المعنوى والروحي في هذا الميدان الذي كان يعتبر من العوامل الحساسة لتدعيم أسس الدولة ، فبنو مرين لم يقصروا ولم يتقاعسوا ، بل بذلوا ما في استطاعتهم فخدموا الاسلام خدمة شهدت بها مواقفهم ومآثرهم ،

لقد زعم بعض المؤرخين أنهم أرادوا تعويض النقص الذي كانوا يشعرون به بالنسبة الى أسلافهم نظرا لكونهم لم ياتوا بجديد يبنون عليه سلطانهم . أما نحن فنرى لهذا الحماس الديني تعليلا آخر راجعا الى ظروف اجتماعية ليست سياسية . دلك أن الدول المتعاقبة على حكم المغرب ، اذا كانت في أغلبيتها دخلت بفكرة جديدة في بداية أمرها لتأييد موقفها ، فإن بني مرين لم يكونوا في حاجة الى هذه البدعة ، بحكم ظروفهم السياسية والاجتماعية السائدة في المغرب بل كانوا أشد قوة وأكثر استعدادا لمحاربة خصومهم كما كان الجو مواتيا لهم ، ان بني عبد المومن ، بسبب

الابهزام الكبير الذى منوا به فى الاندلس ، ضعفوا واستكانوا ، وانهارت قواهم ، وتفككت أجزاء امبراطوريتهم ، وبذلك خلا الجو لخصومهم ، فاستغلوها فرصة للاطاحة بهم والاستيلاء على ملكهم . أما بنو مرين ، بوصفهم أهل بدو وترحل فى المناطق الصحراوية وغيرها ، فكانوا أقوياء أشداء متعودين على المغامرات والشدائد والمحن ، فلم يكن هناك من حاجة الى خلق بدعة يتخذونها وسيلة سياسية نقلب النظام . أما تحمسهم للدين وتعصبهم لقضايا الاسلام ، فلم يكن ، طنا منا ، بدعة ابتدعوها ولا تعويضا لنقص فيهم . فالامر اذن داخل فى دائرة مثل عليا ومقاييس اجتماعية ، وقيم روحية تشبعوا بها فكونت عقليتهم وروحهم وسلوكهم الفردى والاجتماعي .

ومهما كانت الاسباب ، ومهما اختلفت الآراء والاهداف التي كانوا ينشدونها ، فينو مرين قاموا كما أسلفنا بخدمات جليلة في سبيل الاسلام . فما ان استقروا وخلصت لهم أمور البلاد حتى هبوا يدافعون عن اخوانهم المسلمين بالعدوة الاندلسية حيث كان الاسلام وجها لوجــه وفي صراع مستمر مــع المسيحية الاسبانية حيث أصبحت القواعد الاندلسية تتساقط في يد النصاري القائمين بحرب الاسترداد . لقد خاض أبطال بني مرين معارك طاحنة وحروبا مستمرة ، خاضوها بأنفسهم ، وبجيوشهم وباساطيلهم منذ تولوا أمر البلاد الى أن أشرقوا على الهلاك وأصيبوا بما تصاب به سائر الدول عندما تصل الى مرحلة معينة من شيخوختها . فكانت الغلبة لهم كما كانت عليهم حسب الظروف . لقد استنزفوا قواهم وتركوا دماءهم وضموا بكل تعبس لديهم ، غير طامعين في مال أو في كسب سياسي كما يظن البعض . وانما قاموا بذلك للدفاع عن حمى الدين الاسلامي المهدد في هذا القطر ، ومن المعلوم تاريخيا أن الغضل في بناء مملكة غرناطة واستمرار سلطانها أكثر من قرنين راجع الى التدخلات الديبلوماسية والعسكرية التي قام بها بنو مرين في الاندلس ، ولسم يكونوا وحدهم في هذه الحروب وهذه الجهود المادية والروحية ، بل كان من وراثهم مختلف طبقات الشعب من علماء وموظفين وجنود ورؤساء قبائل ، فالدفاع عن حمى المدين كان في نظرنا هو الهدف الوحيد الذي كان يبرر هذه التدخلات الحربية وهذه الجهود المضنية ,

أما فى الداخل فلم يكن موقف بنى مرين من الشؤون الدينية باقل منه حماسا ونشاطا فى الاندلس نهنا نجد أعمالا بارزة ومظاعر متعددة ومختلفة لهذا السلوك الروحى . فكثرة المساجد والمدارس التعليمية واقامة الزوايا كانت ترمى الى نفس الغاية ، كما أن تنظيم وفد الحجاج والاعتناء بسفرهم فى كل سنة ، وارسال مصاحف قرآنيه الى الاماكن المقدسة لدلالة على مدى تشبثهم بروح الاسلام وبتعاليمه ، وعملهم لرفع رايته فى الظاهر والباطن ، فقد ورد أن بنى مرين كانوا لا يشترطون فى موظفيهم ، كمقياس ، سوى اخلاصهم لتعاليم الاسلام بصفة عامة . ذلك كان شرطا أساسيا قبل تعيينهم وتقليدهم مناصب الدولة ، بسيطة كانت أم عالية ، فلم تكن جنسيتهم من الشروط ولا من المقاييس التى يرجع اليها فى هذا الباب ، اذ كان يوجد بالمخزن

المرينى موظفون مغاربة وأندلسيون ومشارقة ، ويؤكد هذه الظاهرة ما رواه بعض المؤرحين فى وصفهم للجيش المرينى الذى كان على جانب كبير من التربية الاسلامية التى كانت تفرض عليه وهو مسافر أداء مهمته واقامة صلواته بقيادة ملوكه وبمجرد

سباعه اذان الصلاة ولقد أوردت بعض المصادر التاريخية(I) ان من بين الوظائف التي كانت تسند لمن هو أهل لها وظيفة صاحب الصلاة وهي مهمة دينية محضة

يتولاها صاحبها بظهير من السلطان ويتقاضى عليها دمرتبا موسعاء .

بهذا السلوك وبهذه المواقف الدينية كان الشعب يحكم على هؤلاء الموطفين ويغدر منزلتهم ويزيد في احترامهم وتقديسهم ، فكان التجاوب بسينه وبينهم على هدا الاساس ، على هذه الرابطة الروحية التي تربطهم وتجعلهم منسجبين متجهين اتجاها واحدا ، هو خدمة الاسلام خدمة مستقيمة واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ولا تعقيد ولا اشكال .

ولا أدل على هذه الروح الدينية المتفلغلة في النفوس وهذا الاتجاه العلمي السائد من كثرة الكتب المؤلفة في هذا العصر ، هي التفسير وفي الفقه وفي الحديث ، وهي اذا قيست بغيرها من الكتب التي الفت في علوم أخرى ظهرت سائدة مسيطرة ، وافرة العدد ، ومتشعبة الفروع حتى كادت تنفرد وحدها بالميدان وحتى أصبحت الحركة العلمية تقريبا مرادفة للحركة الدينية في هذا العصر ، ان أشهر الكتب وأقواها أصالة ترجع الى هذا العصر الذي كثرت فيه الشروح والتعاليق والهواهش . ونظرا لكثرة هذه الكتب وضيق المجال عن ذكرها ، فاني اكتفى هنا كمثال على ذلك ، بالاشارة الى القائمة التي أوردها الاستاذ كنون في كتابه النبوع (صفحة 123) عن هذه المؤلفات وعن انواعها واتجاء أصحابها ففي ذلك دليل على ما لاحظناه من خلال تتبعنا لهذا الاتجاء السائد في هذا العصر .

والى جانب هذه الحركة العلمية الدينية التى كثيرا ما تصطبغ فى نظر البعض بصبغة نظرية محضة بمعنى ان طبقة خاصة من الطلبة والفقهاء ورجال الدين عامة هى التى كانت مصدرا لها _ وان الشعب كان يقوم فيها بدور المتلقى والمتأثر فى أغلب الاحيان ، كانت هناك حركة دينية أكثر التصاقما بالشعب وآكثر اثارة لانفعالات واستجابة لنزعاته الفطرية ، تلك هى الحركة الصوفية التى لعبت دورا خطيرا فى حيا ةالشعب المغربي فى هذا العصر ولا سيما فى آخره . اتصفت بهذه الحيوية وهذه القوة لانها كانت بسيطة فى بدايتها وعملية أكثر منها نظرية ، بعيدة عن التكلف ، لا تحتاج الى مجهود فكرى ولا عناء تلقينى ، اذ المتصوفة قبل كل شىء رجال يعبدون الله ويكثرون من ذكره ، ومن الصلاة فى الليل والنهار ويقومون بحركات خاصة ، تجعلهم ويكثرون من ذكره ، ومن الصلاة فى الليل والنهار ويقومون بحركات خاصة ، تجعلهم فى موقف خاص ، وتؤهلهم للخشوع وللاتصال الروحى بالاله (الفناء) زاهدين فى

¹⁾ محمد المتونى ، «نظم الدولة الرينية» مجلة البحث العلمى ، الرباط عدد 2 سنة 1964 ، معمد 211 ،

الدنيا بكل نعيمها وملذاتها _ كان هذا السلوك الدينى اذن سلوكا عمليا صرفا يتناسب مع بساطة الشعب وصفائه وخلو ذهنه من عادات وتقاليد يتخذها الفرد عن طريق الدرس والتلقين . وبذلك استطاعت الحركة ان تنشط نشاطا واسعا لاسيما فى ضواحى المدن حيث يتصل المريد بشيخه اتصالا مباشرا وحرا وحيث يتم التفاعسل بينهما على أساس عبادة الله والتفانى فى حبه والتطهر من رجس الجسد ومن الرذائل التى علقت به ، ويذكر بعض المؤرخين ان الزوايا بدأت تنتشر فى هذا العصر ، لاسيما فى أواخره . لقد انتشرت بالفعل هذه الزوايا وتوسعت دائرتها ، لكن هذا الانتشار لم يكن يعيدا عن تأثير بنى مرين ، حلافا لما زعمه بعضهم (1) ، ولم يكن يخالف رأيهم ولا اتجاههم ، لان الدولة كما رأينا آنفا ، كانت تعمل جاهدة ومخلصة لنفس الغاية ونفس الاهداف ، كما كانت ترعى هذه الحركة وتحيط قادتها بعنايتها الخاصة . ويكمى مثالا على ذلك أن السلطان أبا عنان كان يتطارح على مقر الشيخ سيدى ابن عاشر بسلا عله يحظى بمقابلته وينال من بركته ، لقد جاه فى مصادر تاريخية متعددة انه كان يتردد عليه كثيرا راجلا تواضعا منه وتشجيعا لرعاياه على اتخاذ نفس المواقف أنه كان يتردد عليه كثيرا راجلا تواضعا منه وتشجيعا لرعاياه على اتخاذ نفس المواقف

وجدير بالذكر هنا ان نشير الى ان هذه الحركة الصوفية التى بدأ انتشارها يقوى شيئا فشيئا في المغرب كانت تسير جنبا الى جنب مع الاتجاهات الاخرى الدينية السائدة في نفس الوقت. ذلك ان الطريقة الاكثر انتشارا في عهد بنى مرين والاقوى تجاوبا مع الشعب كانت هى الطريقة السائلية وهى كما نعلم أقرب الطرق الى المذهب السنى واكثر انسجاما مع التيار الشعبى الجارف في هذا الميدان. واذا تذكرنا ان مذهب مالك في الفقه هو السائل وان المذهب الاشعرى في المقائد هو مدهب الامة بصفة عامة ، اتضع لنا ، رغم فروق شكلية واختلافات بسيطة مدى الانسجام والتكامل بين هذه التيارات الدينية المنتشرة في المغرب والتي كانت من أهم العوامل التي وحدت بين صفوف المغاربة في المقاومة التي نظموها ضد الإجانب (البرتغال ولينس).

من رجال هذه الحركة رغم كونه لم يفلح في مسعاه ولم يتصل بالشبيخ المذكور .

واذا كان المجال لا يسمح لنا هنا بالدخول في تفاصيل هذه الحركة ، في نشأتها ، في تحاورها وفي الظروف الملابسة لها والطرق المتبعة عند مؤسيسها او مربدها ، محافظة على وحدة الموضوع ، فمن المناسب ان نلاحظ انه كان لها ، بقطع النظر عن النتائج السياسية التي أدت اليها ، تأتير عميق في نفوس الشعب وفي سلوكه ومواقفه من الناحية الثقافية والنفسية والاجتماعية وغيرها من الميادين التي لا يمكن التعرض لها هنا .

واذا كان البحو الديني في المغرب كذلك بصفة عامة ، اذا كان قد انطبع بهذا الطابع الذي وصفنا أهم مظاهره ، أفلا يكون له بصفة مباشرة او غسير مباشرة تأثير

¹⁾ طراس ، 3 تاريخ المغرب ، ج 2 من ، 27

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الادب بمختلف اشكاله وانعكاسات قوية او ضعيفة في اغراضه ؟ ذلك ما سنراه في موضعه .

اما النتيجة التى نستخلصها الآن من هذه المرحلة هى ان المجتمع المغربى فى عصر بنى مرين مجتمع يغلب عليه الطابع البدوى ، رغم اشعاعات فاس ومسراكش وتطوان ومدن اخرى ، ومجتمع دينى فى جوهره واشكاله ، بمعنى ان روح الاسلام ونعاليمه بلغت من نفوس المغاربة أشدها وطبعت سلوكهم الفردى والاجتماعى ، كما حددت وكيفت عقلهم ، وما يصدر عنهم من دوود فعل عاطفية وعملية ، فى اجتماعاتهم وعاداتهم وتقاليدهم ونظرهم الى غيرهم من ذوى الجنسيات الاخرى . فكانت النتيجة هى شدة المحافظة والتمسك بالقديم الى درجة التزمت ، وذلك رغم اتصالهم بالاسبان عن طريق الاندلس الى المغرب وسكنت عن طريق الاندلس الى المغرب وسكنت أهم مدنه الرئيسية ؛ والى جانب ذلك فهو مجتمع عربى فى جوهره ومختلف مظاهره

onverted by 11ff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البساب الثسانى

مشاهير الادباء المقاربة

- عالك بن البرحل
- 2) عبد العزيز المازوزي
 - 3) ابو العباس القباب
 - 4) ابسن بطوطة
- 5) أبو العباس احمد زروق
 - 6) ابن رشـــيق
- 7) ابو عبد الله محمد العبدري
 - 3) ابن رشیــد
 - و) ابن داود السلوي
 - 19) ابن عبد الملك المراكشي
 - II) ابن البناء

شخصيات مشتبركة

ابسن الخطيسب ابسن خسلسدون ابسن مسزوق

مشاعير الادباء في عصر بئي مرين

قبل أن ان تبتقل إلى التحدث عن هذه الشخصيات ، ينبغي إن تلاحظ أولا إن كثيرا من الالتباسات والإغلاط وقد متفى تحديد نسب الادباء وردحم ألى اصلهم ، ذلك ان المغرب كان يمني في غرف القدماء المغرب الاقصى والمغرب. الادني وحتى الاندلس. فاذا قالوا أن فلانا مغربي فليس معنى ذلك أنه من المغرب الاقصى بالضبط . فتحديد الجنسية بالمنى الحديث لم يكن مألوفا في العصور الوسطى ولم يكن يقام له وزن كاليوم لذلك كنت ترى في البلاطات عناصر مختلفة لا يشتسرط فيها ان تسكون من المغرب الاقصى وانما كان يتطلب منها شروط أخرى لتلج سلك المخزن . ولقد رأينا في الغصل السابق أن بني مرين لم يكن يهمهم في الشخص سوى الحلاصة للرؤسساء ولاسيما اعتصامه بدين الاسلام وتعاليمه . لذلك اصبح من الصحب ، والحالة هذه ، على المؤرخين التمييز بين الجزائري والسغربي والاندلسي في تحديد الانتاج الادبي ورده ائي معينه الاصلى . اضف الى ذلك ان مما زاد الامر تعقيدا تنقل سكان المغسرب بالمفنى العام بين اطرافه الشرقية رالغربية وعدم استقرارهم في مسكان معسين عسلى العموم ، وذلك حسبما تمليه الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت تفرض على المواطن ان يهجر مسقط رأسه الى مكان حيث الهدوء وحيث يطيب المقام ويلذ . وهو في هذه التنقلات متصل ، محتك بغيره ، متفاعل مع معطيات البيئة المادية والاجتماعية ، عامل ، منتج انتاجا نظريا او علميا معنويا او ماديا . وهكذا اصبح المؤرخون القدماء يردون نسب الاديب تارة الى البيئة التي عاش فيها وطورا الى مسقط راسه ولو لم يقض فيه سوى بضمة ايام ، وطورا الى المكان الذي هاجر اليه ومسات فيه رغم أن آخر ايامه فيه لم تتعد بضعة أشهر . ومما قاله ابن حزم في هذا الباب (١) (ان جميع المؤرخين من أيمتنا السالفين متفقون على أن ينسبوا الرجل الى مكان حجرته الذي استقر به ولم يخرج عنه رحيلا الى ان مات ... فابن مسعود كوفي وانما سكن الكوفة خمسة اعوام وقد بقى 58 سنة بمكة .. فمن هاجر الينا من سائر البلاد فنحن احق به وهو منا ، ومن هاجر منا الى غيرنا فلاحظ لنا فيه والمكان الني اختساره أسمد په) .

 ¹⁾ انظر في وسالة المغرب العددا الرابع سنة 1954 من 38 بحثا الاستاذ عبد الرحمان الفاسي
 تحت عنوان طنجة والارها .

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ونتيجة لذلك ، أصبح من المتعذر التعرف على الانتاج المغربي بدقة وتحديد زمانه ومكانه بالضبط ، ونتيجة لذلك أيضا ان كثيرا من الادباء المغاربة الذين نشؤوا وتوعرعوا في البيئة المغربية وقضوا معظم عمرهم فيها تاركين وراءهم انتاجا أدبيا له وزنه وتراثا فكريا لا يستهان به ، عدوا من الاجانب لمجرد كونهم غادروا المغرب في آخر أيامهم واعتبر انتاجهم من مخلفات بيئة أخرى لا تمت للمغرب الاقصى بصلة ، فاذا سمعت المالقي أو الغرناطي فليس معنى هذا اذن ان الاسر يتعلق بانتاج لا حظ للبيئة المغربية في تكوينه أو في صقله ، بل يقتضى البحث والتحرى في الموضوع ان نتتبع المنتج في رحلاته ونحن اذ نثير هذه الحقائق التاريخية هنا وهذه الملاحظات المتعلقة بالبحث الادبى ، انما نريد أن نلفت النظر الى الصعوبات الناتجة عسن عدم الظاهرة في الادب العربي عموما والادب المغربي خصوصا .

وبعد فالنتيجة التي نستخلصها من هذا العرض هي ان الادباء المغدارية كثيرون لكونهم ينتبون الى ما نسميه اليوم بالمغرب العربي والى الاندلس ثم لكون البيئه المغربية نفسها أنجبت لنا شخصيات كثيرة من الصعب وضع قائمة لها وحصرها في هذا النطاق الضيق . لذلك كان علينا أن نراعي ، فيما سنترجم لهم ، نسبة انتبثيل الواسع والاختيار والاقتصار على عدد يتناسب ومستوى هذا البحث .

أبئ المرحسل

عند ما نبحث في كتب التاريخ والادب وغيرها من مشاهير آدباء هذا العصر، تطالعنا شخصية سيطرن بذكرها وشهرتها على كثير من الشخصيات النابضة في هذا الميدان . فابن المرحل كان ولا يزال اسما تردده الالسنة وتعتز به الاقلام في المحافل الادبية وكتب التراجم والتاريخ ، الا أننا ويا للاسف ، لم نعشر على ما كنا نتوقعه في دراستنا لترجمته وتقصينا لعظاهر سلوكه وتتبعمتا لمراحل اطوار حياته ، من اخبار دقيقة ، واحداث بارزة تتناول حياته بجميع مراحلها ، وتهتم بعظاهر تفاعله مع بيئته المادية والاجتماعية ، وتسجل من قريب او بعيد العوامل التي تفاعلت في تكوين شخصيته بحيث بتجلى لنا بوضوح او بصفة عامة ما كان بتصف به من صفات فكرية ، وطبيعية وتغسية واجتماعية على الخصوص .

وبالرغم من كون اسمه ظل لامعا ومتصدرا في ميدان الادب على العدوم في هذا العصر، فان الذين كتبوا عنه او ترجموا له لم يعنوا غالبا بهذه الناحية من شخصية مترجمنا رغم كونها تشكل عنصرا هاما من عناصر البحث الذي يسقوم عنيه الموضوع. فشخصية الاديب وحالته النفسية ومزاجه، وطبعه وذهنيته ومدى عنها الموضوع عنية، كل ذلك من العوامل التي لا يمكن اغفالها نظرا لما تلقي من أضواه على المحث وما تكشفه من أسباب كانت وراء هذا النوع أو ذاك من الانتاج أو من الاسلوب المدى اهتم له الاديب. ان معرفة المنتج ضرورية في نظرنا فبل معرفة انتاجه واذا كان العذر هو قلة المصادر وعدم اهتمام المؤرخين عادة بها نحن في صدده رغم ما يتطلبه الامر من تمحيص وتقصى لسير الاحداث خوفا بالمنتج اهتمامهم بالانتاج نفسه، فلنا في هذا الانتاج وسيلة نلجأ اليها علها تفيدنا من الوقوع في احكام أساسها العاطفة أو التسرع في الاستنتاج. فابن المرحل هذا ، كما هو معروف عند معاصريه او عند من ترجموا له ، هو ابو الحكم مالك بن عبد الرحمان بن على . كان مولده سنة 604 بمدينة مالقة حسب ما روته كتب التاريخ والادب ، الا ما كان من الاستاذين ابن تاويت وعفيغي (1) اللذين ذهبا الى ان مسقط والادب ، الا ما كان من الاستاذين ابن تاويت وعفيغي (1) اللذين ذهبا الى ان مسقط

¹⁾ الادب المغربي ، صفحة 221 ، (بيروت 1960) .

رأسه كان بسبتة ، وهذا الخلاف كما رأينا ناشيء عن كثرة المتنقلات بين الاندلس والمغرب في عصر بني مرين وعدم الاستقرار في مكان معدين ، نظرا للاضطرابات السياسية والفتن الداخلية من جهة ولئدة الملاقات بين مملكة غرناطة ومملكة بين مرين في هذا العصر من جهة أخرى . فليس بعيدا أن يكون من مواليد سبستنة كما آكده الاستاذان الا أن البشهور في مسقط رأسه هو مالقة ، ولقد وجدنا ، وقحن نبحث عن هذه الحقيقة ، نسخة خطية قديمة من خزانة الكلاوى كستب في أولى صفحاتها المتلاشية ما نصه : وقال الشيخ الامام الاجل-البارع الاديب أبو الحسكم مالك بن عبد الرحمان المالقي نزيل سبئة ، فالمخطوط أذن يشكسل الي درجة منا حجة يعتمد عليها الباحث في اصدار هذا الحكم .

قابن المرحل اذن ولد ببائقة ونزل ، كما جاه في المخطوط القديم بسبتة ، ولكنا لسنا نعلم متى غادر مالقة وكم قضى فيها من عمره . سكتت المصادر عن مذا الانتقال ولم تدل بمعلومات لا عن الزمن الذى قضاه ابن المرحل في مالقة ولا عن الاسباب التى جعلته يغادر مسقط رأسه ، مع كون هذه المعلومات ليست من البجزئيات البسيطة التى لا يؤبه بها كما يظنه البعض فهى في نظرنا ، اساسية لما تلقيه من أضواء على سلوك الفرد النفسى والاجتماعي . فالبيئة الاندلسية ليست هي البيئة المغربية وليس ، تبعا لذلك ، سلوك من عائر في الاولى كمن عاش في الثانية الا المخرى ومن زمس الى آخر ، فالمجتمع الاندلسي كما هو معلوم ، يتكون في هذا العصر الذي تؤرخه من مختلف المناس ، تختلف في العادات والتقاليد والثقافة والطقوس الدينية ، فالبسر كذلك المغرب . لذلك كنا نرغب في معرفة هذه المعلومات للالمام بالعوامل التي تضافرت في تكوين شخصية مترجمنا .

وعلى كل حال فابن المرحل ، كما يستنتج من آثاره ، لم يمسكت طويسلا بمالقة ، وانما انتقل الى سبتة وهو صغير السن . لم نلمس في شعره اثرا للبيشة التي كانت ولادته بها ، ولم تعثر لحد الآن على معلومات او على جزئية تغيد من قريب أو من بعيد في هذا الموضوع .

ومن المؤسف ان لا نجد في بيتين(I) أجاب بهما ابن القاضي بن عبد الملك عند ما سأله عن مولده كلمة او شارة يستدل بها على مقامه الطويل أو القصير سائقة:

یا سائلا عن مولدی کی اذکرہ ولدت بیوم سیمة وعشره من المحرم افتیتاح اربیع من بعد ستمائیة مفیره

¹⁾ مشاهير رجال المفرب للاستاذ كنسون صفحة 6 .

وانها الذي يستنتج يوضوح من شعره انه عاش طويلا بسبتة رغم تنقلاته

وانها الذي يستنتج يوضوح من شعره انه عاش طويلا بسبته رغم تنقلاته منها الى فاس والى الاندلس حسب الطروف والملابسات المحيطة بحياته . ذلك ان اتصالاته واحتكاكاته المادية والخاصة التي سجلتها كتب التاريخ كانت في عبومها نجرى في سبتة ومع رجال سبتة ، الشيء السنى يدل على تفاعله مسع هذه المدينة وطول استقراره فيها .

لقد روت بعض المصادر صدى اصطدامات وقعت بينه وبسين شخصيات أخرى في سبتة ، منها ما جرى بينه وبين ابن رشيق ساكن سبتة في هذا العصر الدن هجاء بقوله(1) :

لكلاب سبتة في النبساح مسدارك شيخ تفاني في البطالة عمره احسل شماثله السبساب المقسري

وأشدها عنسد النهسار بسيس مالسك واجسل يسحمكيه الكلام الأفسك واعف سيرته الهجاء الماحسك

وقد نقل الاستاذ كنون في كتابه مشاهير وجال المغرب خصومات كثيرة حدثت بين ابن المرحل وبين مواطنيه ولاسيما اهل سبتة . فابن رشيد السبتي نصدى للرد عنه عند ما انتقده ابن عبد المالك المراكشي وابن رشيق هجاه بشعره في سبتة والشاعرة سارة الحلبية عند ما دخلت سبتة مدحت ابن المرحل فاجابها بقوله (2):

يا نفرة الدنيا لقد حرن العملا بكمالك وملكت افضعة المورى فالناس فيك كمالك ال قايسوك بمالك مالك

کل هذا یدل علی آن صاحبنا ترعرع فی احضان سبتة وبین ظهرانی رجالها قابن رشید هذا واین رشیق وغیرهما عاصرا مترجبنا وعاشا معه فی مدینته وجها توجه ، وقی شعره ایضا اشارات وتلمیحات اخری کلها صدی لحیاته فی سبتة .

واذا كلنا نعلم أن سبتة من أهم مدن المغرب في ذلك العصر ، ومن أكبر مراكزه الثقافية كما اسلفنا نظرا لموقعها الجغرافي الرابط بين العدوتين ولكونها نقطة ارتكائرية يلتقي فيها الواردون من الاندلس الى المغرب والمغاربة والمشارقة الوافدون الى الاندلس اذا علمنا ذلك أدركنا مدى الدور المندي كانت تلعبه هنه المدينة الشاطئية من الناحية الثقافية ومن الناحية الاجتماعية والسياسية على العموم ، وبقطع النظر من ذلك ، فهي مشبهورة منذ المقديم بحضارتها العريقة وبأصالتها وبرجالها في ميدان الثقافة والحرب ، فاشهر رجالاته المغرب منها أو عاشوا فيها ، لقد انجبت

¹⁾ الاحاطة المجلد الاول تعقيق عبد الله عنان (مصر) صفحة 481 ·

ألاحاطة المجلد الأول صفحة 481.

من العلماء والعفهاء والادباء والزعماء ما لم تنتجه مدينة اخرى فى مستواها . ويكفيك منالا على ذلك ان القاضى عياض صاحب المؤلفات الشهيرة منها ولسنا فى حاجة الى التعريف بهذه الشخصية نظرا لشهرتها فى العالم العربى كله ، وانما الذى يجب ان نلفت النظر اليه هو ما لقيه الموحدون من معارضة على يد هذه الشخصية التى كانت تدافع عن عقيدتها ضد البدعة الموحدية وان العزفيين المشهورين بالعلم والتقوى وابن رشيد وابا العباس السبتى وغيرهم من المشاهير كلهم من هذه التربة الستى تميزت بشخصيتها القوية وبطابعها الخاص فلا عجب اذن ان يتأثر ابن المرحل بهذه البيئة التى شب فيها وترعرع فى احتكاك وتفاعل مع العلماء والادباء والفقهاء والصوفيين ولا غرابة ان يربى تربية اسلامية متينة خالية من كل بدعة وانحراف ، والصوفيين ولا غرابة ان يربى تربية اسلامية متينة خالية من كل بدعة وانحراف ، فمذهب مالك والاشعرية كانا على اشدهما فى زمنه وقبل زمنه لاسيما بسبتة حيث عاش عياض زعيم المالكيسة ورائدها اللذى ضحى بنفسه فى سبيل عقيدته ولم يستسلم امام قوة الموحدين .

ولقد اثرت تلك البيئة الدينية تأتيرا بليغا في صاحبنا ، وطبعت سلوكه بطابع روحى لم يفارقه حتى الممات . لقد كان عفيفا طاهرا ليس في سلوكه ما يخلل بالاخلاق او يمس بتعاليم الاسلام على العموم ، بل ظل متشبثا بهذه الروح الدينية القويه حتى اصبح بعضهم يعده من رجال الصوفية والواقع ان في شعره ما يؤكد تغلب عند النزعة الدينية عليه ويلقى ضوءا على تفانيه في حب لله ولرسول من ذلك قوله:

تناسى فؤادى كل حب بحب كذلك تحيل الشمس ضوء الاهلة

وهكذا يستمر ابن المرحل في مدح النبي اشفاء لغليله وأداء لواجبه سواء في حذه القصيدة أو في قصائد أخرى نظمها لنفس الغاية ، مما يؤكد هذه النزعة الروحية التي تطبع سلوكه ، والظاهر من هذه الابيات ومن غيرها أن الشاعر لم يحظ بتلك الامنية الغالية على كل مسلم ولا سيما في ذلك العصر ، وهي الحج الى بيت الله الحرام ، ظلت الرغبة ملحة لديه الى وفاته دون اشباعها ، ولسنا نعلم السبب الذي حال بينه وبين تلك الرغبة ، رغم محاولاتنا لتفهم الاحداث والوقائم التي شهدتها بيئته والظروف والملابسات التي كانت تحيط به مع أنه عمر حستى تجاوز الثمانين :

يا أيها الشيخ الـذي عبره قد زاد عـشر سبعـين

ثقـــافتـــه

لم تهتم المصادر ألتاريخية كعادتها بتحديد نوع الثقافة التي تلقاطها شاعرنا ولم تبين بتفصيل ودقة المناهج التي اتبعها في دراسته الابتدائية والثانوية والعالية اللهم الا ما جاء في اشارات عابرة ولمحات خاطفة في بعضها كنفع الطيب وازهار الرياض والاحاطة ، الا أننا رغم ذلك يمكننا أن نستنتج من تكوين ابن المرحل

فكرة عن هذه الثقافة وعن الاساليب التي اتبعها ، وليس من الطبيعي أن تكون هذه الثقافه خارقة للعادة أو مختلفة عن الثقافة التي كان يتلقاها غيره من المواطنين المغاربة ولاسيما في سبتة .

لقد كانت هناك تقاليد وعادات فرضتها الظروف الدينية والاجتماعية حتى أصبحت جزءا من القيم والمثل العليا السائدة في ذلك العصر . لقد جرت العادات أن يبدأ الطفل بحفظ القرآن الكريم وباستظهاره قبل كل شيء ، وابن المرحل ، كما جاء في بعض المصادر التي اهتمت بترجمته ، حفظ القرآن كسائر مواطنيه بل اتقن قراءاته السبع ثم انتقل الى المرحلة الثانية وهي دراسة اللغة العربية وما يتصل بها من علوم . فقد كان من المقرر في سبتة وغيرها أن يقرأ الطالب في هذا الميدان كتاب الفصيح لابي العباس ثعلب وكتاب الامالي لابي على القالي ، والفية ابن مالك والاجرومية وغيرهما(1) من أمهات الكتب المصنفة في الفقه والنحو والصرف والبلاغة والعروص . كان الطالب في هذه العلوم وفي غيرها يعتمد على المتن كأساس لتعلمه ويعتمد خصوصا على الحفظ والاستظهار كي تقوى ملكة اللغة فيه ويكتسب الروح العربية عملا بقول الشاعر :

مىدرى وعاء لـ لا بطـن صندوقـى وال كنتق السوق كان العلم فىالسوق علمی معی حیث ما یممت یتبعنسی ان کنت فی البیت کسان العلم فیسه

واذا علمنا أن ابن المرحل كان قاضيا بالاندلس أدركنا مدى تطلعه فى المققه والشريعة الاسلامية على العبوم . ذلك أن القاضى فى هذا العصر كسائر العصور الوسطى ، كان الى جانب المامه باللغة العربية وسائر فروعها ، ملما باصول الفقه وأصول الدين وذلك عن طريق دراسة رسالة أبى زيد والمدونة وغيرهما من أمهات الكتب التى لا مناص منها للفقيه .

ولكن لماذا نذهب بعيدا وامامنا آثار ابن المرحل ، قد نجد فيها ما عساه ينير السبيل ويفيدنا في تحديد تكوينه ، فالى جانب شعره الذي قد تجد منه بعض القصائد وأبياتا متناثرة هنا وهناك ، نجد مخلفات أخرى اشارت اليها بعض المصادر . ففي الادب ترك ابن المرحل ارجوزة في المروض ، ونظم الثلث من أدب الكاتب ، وفي الفقه والعلوم الاسلامية عامة ترك نظم التيسير في الغراءات ثم نظم غريب القرآن وأرجوزة في الغرائض وفي النحو وفقه اللغة نجد له نظم الفصيح لابني العباس ثعلب ، وفي مدح النبي ارجوزة سماها الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والآخرة الى عير ذلك من المؤلفات التي لم نقف عليها لجد الآن .

فنظرة خاطفة على حدا الانتاج تعطينا فكرة عن نوع الثقافة الذى تلقاهـــا مترجبنا فهو ، كما رأينا يكثر من النظم ، بل يعمد الى «ما صنف في النحو أو الفقه

¹⁾ طبعا بعد طهور علاين المؤلفين

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عنه ولو قليلا رغم ما في ذلك من صعوبات تعترض الناظم في هذا العمل وتقيسه أو السنطق أو القرآن فينظمة في أبيات تارذ مختصرا وأخرى متقيدا بالنص ، لا يخرج حريته . ثم نراه الى ذلك يخص النبي صلح بقصائد من عنده يتفنن فيها لغة ويتفانى فيها محبة واخلاصا للرسول وتوسلا به لآخرته كما قال في شعره :

أما لى فى مدحسه تشقيع وفي حسب وفى حسب وفى جبه آخرى قحسبي هسا حسب

مدحی له ثم استشفعت ثم بمجبتسی بسل آن فی ممدح النبسسی وسیلسمة

وهكذا يتضح لنا أن مالك بن المرحل تلقى ثقافة عامـة اسلاميـة في جوهرها ، ولغوية في شكلها وبذلك كان فقيها وعالما لغويا ، قبل كل شيء ، النسيء الذي أهله لتبوؤ منصب القضاء ، وهي وظيفة لا يحظى بها في عصر بني مرين ، كما رأيناً ، الا من برز واشتهر ورقى بعلمه وتفقه في دين الله ؛ وكذلك كان الاص هاتصل ابن المرحل بالقصر واصبح من حدامه كأتبا أو شاعرا . لسنا نعلم عنه شيئا في بداية أمر هذه الدولة لا من الناحية السياسية ولا من الناحية الثقافية ، ولكن الفالب على الفان أنه كان معتصمة في هذه الايام الصعبة أى قبل استقرار الامر ليني مرين ، ببيئته في سبتة التي كانت كما رأينا تمج برجال العلم والادب وشيوخ الفقه والمتصوفة ، فكان ابن المرحل بين ذويه وبين اقربائه وأصهاره الذين كانوا غالباً من ذوى العلم والمعرفة والصلاح . يكفي مثالًا على ذلك أن أبا اسحاق ابراهيم الاتصاري(I) العالم الاديب الفقيه المحدث هو زوج أخته وأبا الحسن التلمساني شبيخ أبن الخطيب هو حفيده ، ومع ذلك لم يلبث أن فارق أهله وأصدقاء رغم كبر سنه فانتقل الى فاس بمدما انجلت الظروف وصفا البحو السياسي وخلص الامر نهائيا الى ملوك بني مرين . لقد تحدث عن هذا الانتقال بعض المصادر دُاكرة أنه كان في خدمة السلطان أبي يوسف يعقوب ثم أبي يعقوب يوسف . كان من سفرا ثهما ، كما كان من كتابهما الاقربين(2) وبالفعل وجدنا في شعره صدى لهذا الاتصال وأثرا لهذه الاحداث التي كانت تقع في العدوة الاندلسية ، وتنعكس على نشاط الدولة المرينية وعلى الشمب المغربي بأجمعه . نعلم من ذلك ما نظمه في مدح الامير أبي مالك ابن أبي يوسف مهنئا اياه بفتح مراكش ثم ما قاله في الحث على الجهاد ضد النصاري في الاندلس وهو يومئذ بالبلاط المريني في عهد السلطان أبي يعقوب يوسف . ويعد هذا الاتصال بالبلاط المريني الذي بدأ منذ استيلاء الدولة نهائيا على الحكم واستمر الى آخر عهد السلطان أبي يعقوب يوسف ، لم نعد نعلم شيئًا عن نشاط ابن المرحل في هذا البلاط ، فانقطع خبره رغم كونه عبر طويلا وعاش إلى آخر هذا العد ، إلى أن توفى ودفن بغاس .

¹⁾ أنظر ترجمته في الاحاطة المجلد الاول صفحة 277 .

²⁾ الناصرى ، الاستقصاء ، ج 3 صفحة 88 انظر كذلك المدخيرة السنية تحقيق ابن ابى شسنت ص • 80 - 90 ه

ماأويعيراجا ومنزابعا وتعضيروازك فالعفائم استلاع كأكانشا بأرة

الصفحة الاولى من الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والاخر لمالك بن المرحل مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ج 80 .

לעני

عبد العزياز الملسزوذي

و نجد كذلك في هذا العصر أديبا آخر بارزا أشارت اليه بعض المصادر وذكرته واصفة آياه بأوصاف النبوغ والبروز ، رغم كون هذه المصادر كلها لم تحفل يحياته الشخصية ولا بجوانب سلوكه النفسى والاجتماعي داخل الاطار الذي كان مسرحا لتفاعلاته وتكيفاته ؛ لذلك لم نعثر على ترجمة وافية لعبد العزيز الملزوزي ولا على ترجمة وجيزة تساعدنا على تفهيم أسس هذه الشخصية . لذلك كان لا بد ، الى جانب هذه الاشارات العابرة في بعيض الكتب ، أن نتيجة الى ما تركه لنا الملزوزي من "ثار ، الا أن هذه الناحية لم تكن مصح الاسف بكافية لإعطاء فكرة عن حياته والاطوار التي مر بها منذ ولادته الى وفاته . لقداتضح بعد مقارنة الرويات أن اسم مترجمنالحقيقي هو أبو فارس عبد العزيز الملزوزي بن عبد الواحد بن محمد كما جاء في الحوزته نظم السلوك(1) وقد أبي الشاعر الا أن يذكر نسبه في هذه الارجوزة قائلا:

حمتى تكون هذه الارجوزة تكتسب بها العجز ملزوزة

اهتم بذكر نسبه في مقدمة مؤلفه لما في ذلك من تعظيم ، وتشريف ولما في ذكر الحسب والنسب من فوائد اجتماعية وقيم خلقية يعتز بها الفرد لاسيما عند العرب الذين اشتهروا منذ القديم بهذه الحاصية ؛ ولم تكن هذه الظاهرة وليدة هذا العصر أو العصر الذي قبله ، وانما كانت من التقاليد الاجتماعية التي توارثها العرب خلفا عن سلف منذ الجاهلية . ولقد بحثنا عن هذه القبيلة لمعرفة موقعها الجغرافي في المغرب وأهميتها بالنسبة للقبائل الاخرى التي ما زالت محتفظة بأسمائها الى اليوم ، الا أننا لم نقف على شيء نهتدى به للوصول الى المنبع أو لاقامة علاقات تجعلنا نظمئن الى نتيجة موضوعية . قد يكون السبب في ذلك كما أسلفنا أن قبائل زناتة ، وشاعرنا العربية التي كانت تنسجم معها الى حد بعيد . وعلى كل حال ، فقد كنا ننتظر من عبد العربية التي كانت تنسجم معها الى حد بعيد . وعلى كل حال ، فقد كنا ننتظر من عبد العربية ان يذكر لنا في انتاجه ، كما سبق أن ذكر نسبه ، شيئا يتعلق بولادته أو تاريخها ، لكنه لاذ بالصمت ومر سريعا ينقل لنا أخبار بني مرين والوقائع التي حدثت في زمنهم .

تربيتسمه واخسلاقسه

يذكر المؤرخون أن صاحبنا كان من سكان مكناس ، لكن لم يذكروا هل سكنها طفلا ، أو كانت مسقط رأسه ، غير أنه يستنتج من شعره ومن الاحوال

اهده الارجوزة عثر عليها بكاملها الاستاذ عبد الوهاب بن منصور الذى يرجع له الفضل فى ابرازها الوجود ونشرها ضمن مطبوعات القصر الملكى بالرباط سنة 1963 .

التى عاشها أنه سكن هذه المدينة مدة طويلة فبل أن يتصل ببلاط مرين ؛ ومكناس فى ذلك الوقت مدينة زاهرة مزدهرة من الناحية الفلاحية والاقتصادية بصفة عامة الحلاء كما وصفها صاحب الروض الهتون فى مكناسة الزيتون(I) وكان بها علماء أجلاء وفقهاء استهروا بغزارة علمهم وقوة باعهم فى العلوم الاسلامية على العموم ـ وقد أثر ذلك الجو فى مترجمنا أيما تأثير حيث كان متشبعا بروح الاسلام وبعقيدته المتينة . وليس من شك فى أنه حفظ القرآن كمعاصريه قبل أن يتعلم اللغة العربية وفروعها وقبل أن ينكب على دراسة الفقه وأصوله وأسسه ، ذلك أن فى أرجوزته ما يدل على هذه الروح الاسلامية القوية التى سيطرت على اتجاهه ، فطبعت اعتقاده وسلوكه ؛ فهو فى ارجوزته هذه يهتم قبل كل شىء بذكر النبى وبنسبه وبحميم الخلفاء الراشدين وبالإشارة الى مواقفهم لنصرة الاسلام والذود عن كيانه .

ثم نراه الى ذلك يكثر فى منظومته من الاستشهادات القرآنية والتضمينات الحديثية الشيء الذى يدل على مدى تأثره بالقرآن وبالسنة من جهة ثم على حفظه للقرآن حفظا متينا وروايته للاحاديث النبوية وسيرة الصحباء والخلفاء . ومثالا على ذلك تورد له هذه الابيات التى اقتبسناها بصفة عفوية من ارجوزته (2) للدلالة على ما قلناه :

ان يحيى الموتى فقل لا أو بلي

اليسس ذليك بقادر على

ثم يقسول:

ان لم يصبها وابـل مطـل

نفوسنا بشريسة تعل

أما الفقه فقد نال منه الشيء الكتير نظرا للظروف المحيطة به ومعطيات مجمعه الدينية والخلقية . وكان لابد من أن يدرس الفقه وأصوله والعلوم المتفرعة عنه . ولولا ذلك لما دنا من بلاط بني مرين اذ كان المفروض فيمن يقترب منهم ويقصد حضرتهم أن يكون قبل كل شيء فقيها ، متدينا ، عالما بأمور الشريعة الإسلامية ، فكان ذلك هو الاساس وهو المقياس الجاري به العمل فيما يرجع للتوظيف ، وفيما يرجع لولوج الحضرة المرينية ، هذا بالنظر الى أن الواردين على بلاط بني مرين من العدود الاندلسية أو من افريقيا كانوا نبغاء ، فقهاء وعلماء ، فالتيار الجاري والضغط الاجتماعي المتحكم في هذه البيئة آنذاك كان يفرض على المثقفين أن يسايروا الركب ويندمجوا في حظيرة الطبقة المثقفة المحظوظة . كانوا عليهم أن يتكيفوا ويسلكوا سلوكا خاصا يوفعهم الى الدرجة المنشودة والى المكانة المرموقة حسب القيم الاجتماعية السائدة في ذلك العصر . فكان اذن صاحبنا فقيها ، عالما بالاصول وبالفروع ، ويؤيد السائدة في ذلك العصر . فكان اذن صاحبنا فقيها ، عالما بالاصول وبالفروع ، ويؤيد

¹⁾ ابن غازى العثماني تحقيق ونشر الاستاذ عبد الوهاب بن منصور مطبوعات القصر الملكسي بالرباط .

²⁾ سنتحدث عنها في آخر هذا البحث

الفقيه ابى فارس عبد العزيز الملزوزى لتبديل الصيعان المستعملة فى ذلك الوقت واحلال محلها مد النبى صلعم ، نظرا لغلاء المعيشة وارتفاع ثمن القمح الذى أصبح يبلغ عشرة دراهم . وهكذا لجأ السلطان نفسه فى هذه الظروف العسيرة الى فقيه كى يكتسى الاصلاح صبغة شرعية لا تخرج عن تعاليم الاسلام ، فكان فقيهنا هو المستشار الذى يستفتى فى الامور المتعلقة بالمعاملات التجارية وغيرها ، ومعنى ذلك أن عبد العزيز الملزوزى كان شاعرا(ت) كما ذكرت بعض المصادر التاريخية وفقيها كبيرا كما استنتجناه من آثاره ومن الظروف المحيطة به فى مجتمعه .

أما اتصاله بالبلاط المريني فكان حقيقة تاريخية لا تشويها شائبة نظرا لما وقفنا عليه من آثار تثبت هذا الاتصال ؛ الا أننا لم نعرف متى بدأ هذا الاتصال وكيف تم . ولعل السبب في ذلك راجع ، على ما يبدو ، الى كون العصر الاول لبني مرين كان عصر حروب وفتن داخلية وخارجيه اذ كان الصراع على أشده بين ملوك الموحدين المنهارين وبين بني مرين المتسلطين على الحكم بالقوة والسيف ، فالفترة اذن كانت عصبية ولا تسمح بالظهور على مسرح الاحداث الا لمن كان يتوفر على شجاعة قوية وحرص مكين على اظهار معارضته للحكم القاثم أر مناصرته له ، رغم المحن والاضطهادات التي يكون معارضًا لها . وعلى كل حال فلم يرد ذكر في الفترة الغامضة لمترجمنا لسبب منه أو لاسباب خارجة عن ارادته ، رغم كونه ينتمي الى قبائل زناتة التي انبثقت منها قبيلة بني مرين وغيرها ، ومهما يكن من أمر ، ومهما كانت الاسباب التي كانت وراء اختفائه في بداية الازمة القائمة ، فان عبد العزيز ربط مصيره بمصير ملوك بني مرين الاولين ، منذ استقلوا بالسلطة وخلا لهم الجو السياسي ، أي منة قضى يعقوب بن عبد الجق على الموحدين بسراكش واستقر بمدينة فاس . فكان شاعرنا هذا يلازمه كما لازم ابنه أبا مالك ثم السلطان أبا يعقوب الى أن قتل سنة 697ه ، أي قبل وفاة السلطان المذكور بتسع سنوات . فيكون اذن مترجمنا معاصرا لمالك بن المرحل ولادباء آخرين سناتي على ذكرهم ، الا أننا لم نجد رغم تحرياتنا وتقصياتنا ، ما يفيد أو يشير الى كون صاحبنا انتقل كثيرا من العدوة المغربية الى العدوة الاندلسية أو قام برحلات أخرى خارج المغرب كما كان الشان بالنسبة لمعاصريه من الفقهاء والادباء والعلماء فقد كنا نتوقع ذلك التنقل الكثير وذلك الترحل نظرا لما كان العمل به جاريا في ذلك العصر ولاسيما في عهد السلطان أبي الحسن .

الا أن القصيدة التى نظمها بمناسبة عودة أبى يوسف يعقوب من الجهاد فى الاندلس، قد تكون حجة يستدل بها على مرافقته لملكه فى هذه المعركة التى دارت رحاها بالاندلس لان صاحبها يصف فيها المعارك والاصطدامات والاتصالات وصف شاهد عيان ولانه يلم بالجزئيات، والمرثيات، والمسموعات التى لا يمكن أن ينقلها الا من كان يخوض المعركة أو من كان يشرف عليها ؛ وعلى هذا فقد يكون صاحبنا

¹⁾ كان كاتباً لابي مالك بن ابي يوسف يعقوب انظر الدخيرة السنية ص. 76-86

رافق يعقوب بن عبد الحق في احدى المعارك التي خاضها ضد نصارى الاسبان ولم يكن ذلك مستبعدا كما أسلفنا .

وعلاوة على ذلك ، فقد بقى الملزوزى ملازما لرؤسائه وأولياء نعمته الى أن كانت وفاته على أيديهم سنة 697هم بسبب جناية اقترفها فقتل في السجن خنقا بفاس .

آثــــاره

أما آثاره فهى تتلخص حسب ما وقفنا عليه لحد الآن فى قصائد وفى البيات متناثرة هنا وهناك ، ثم خصوصا فى أرجوزة طويلة سماها كما قال هو بنفسه :

سميتها من حسنها نظم السلوك في الانبياء والخلفاء والملوك

وهى تقع فى 1325 بيتا نظمها على بحر الرجز ولقد أشارت اليها بعض المصادر كالذخيرة السنية وروض القرطاس ذاكرة منها بعض الابيات الى أن عثر عليها فى مخطوط قديم الاستاذ عبد الوهاب بن منصور فنشرها لاول مرة كاملة ، وهى الآن مطبوعة فى متناول القراء .

ابسو العبساس القبساب

ان أبا العباس احمد المشهور بالقباب من الشخصيات المغربية التي لا يقل الرحاعن تلك الشخصيات التي تعرضنا لها فيما قبل رغم كبون المصادر الادبية والتاريخية لم تحفل به كغيره ، ولم تخصه بعنايتها وتقديرها طبقا لاستحقاقه وكفاءته : وليس من الغريب في ذلك من شيء ما دمنا نعرف أن نفس المصير لقيه كثير من علماء المغرب ونبغائه ومشاهير رجاله الذين قل منهم من وجد انصافا من لدن معاصريه على الخصوص الذين كانوا رغم قدرتهم على الكتابة ، يفضلون السكوت أو يعمدون الى طمس آثار هؤلاء الاعلام لاغراض سياسية أو شخصية محضة . الا أن السبب قد يرجع في بعض الاحيان الى الشخصية المعينة بالامر التي تظل قابعة ، ماكنة لا رغبة لها في الظهور والبروز . ولعل صاحبنا كان من هذا النوع الذي لا يميل بطبعه الى احتلال المقاعد اللامعة والمحافل الرسمية والخوض في المعارك الدنيوية التي كان من الممكن ، نظرا للظروف التي كان يعيشها المغرب ، ان تسبب له أحداثا لا قدرة له على تحملها ؛ انه ، حسبما وقفنا عليه ، رجل خير وصلاح ويسر قبل كل شيء ، بل أكثر من ذلك ، كان حسب معاصره ابن الخطيب ، ناسكا زاهدا في الدنيا ، مائلا عنها ، لقد «نسك ورفض العيش» وما ذلك كله الا أنه كان متشبنا بالروحيات ، مائلا عنها ، لقد «نسك ورفض العيش» وما ذلك كله الا أنه كان متشبنا بالروحيات ،

غير مبال بالماديات وما وراءها من نفع ومصالح زائلة . ولعل هذه التربية الروحية المتينة ، وهذه الصفات الخلقية الحميدة هي التي جعلت القباب يعتذر عن لقاء ابسن الخطيب عندما وجه له الدعوة وهو يومئذ بفاس ثم بسلا لاجثا منتظرا مصيره بعد أن عصفت الاحداث بمكانته وبمكتسباته بالعدوة الاندلسية . ان القصة مشهورة خلدت شهرتها تلك الرسالة المعروفة التي كتبها ابن الخطيب اثر هذه الحادثة وسماها ممثلي الطريقة في ذم الوثيقة، .. لماذا لم يستجب القباب لدعوة ابن الخطيب رغم شهرة هذا الاخير ومكانته السامية وسلطته الخطيرة في المغرب أو خارجه ؟ لماذا لم يلب الدعوة اذن؟ ان القرائن والاحوال تدل على أن القباب تعمد التأخر وأبي الاتصال بابن الخطيب رغم الاعتدار الذي صدر منه بعد ذلك . بماذا كان اذن يعلل هذا التأخر ؟ لم تكن بينهما علاقات خاصة ولم يسبق لهما أن التقيا التقاء خاصا نتج عله سوء تفاهم أو اصطدام . أما نحن فنرجح أن سبب هذا التأخير هو القباب نفسه ، طبعه ، تكوينه ، تربيته ، وغير ذلك من العوامل التي جعلت الهوة عميقة بينه وبين رجل أقبل على الدنيا بكل مواهبه وقدراته وخاض غمارها بكل وسائله وحيله ودهائه ، بل وبمكره في بعض الاحيان ؛ فالتناقض كان اذن صريحاً بين الرجلين رجل يتخذ من دنياه وسيلة لآخرته ورجل يملا حياته بنشاطه مستثمرا خيراتها ، مستغلا حوادثها ، عاملاً على البروز فيها وأدراك جامها وأعلاء سلطانه فيها . فنحن هنا أذن بين ضدين بين السلب والايجاب أو كما يقول علماء النفس بين الانا النفسى والانا الاجتماعي . فالتأخر ادن كان مقصودا ، والاجتناب غاية رمي اليها القباب فكان من نتائجها ما كان يتخوف منه ، وما كان يعمل على اجتنابه اتقاء لشر ابن الخطيب وبأس أمثال ابن الخطيب ، وعلى كل حال فالامر واضح والقباب جنى على نفسه من حيث لا يريد ، ومزقت أعراضه وأعراض أمثاله ، وطار صيته واكتسب سمعة ما كان في حاجة اليها . يكفيه فخرا أن تتوج أعماله الصالحة وسلوكه الحميد بأن يرسله السلطان أبو سعيد ابراهيم (762) سفيرا الى غرناطة في مهمة دينية صرفة(1) ففي ذلك دليل آخر على روحانيته وصدق سلوكه ، وثقة ملك البلاد في استقامته .

ثقسافتسسه

أما ثقافته فتكاد تكون منحصرة في الفقه حسبما ورد في بعض المصادر التي تعرضت له بصفة مباشرة أو غير مباشرة وذلك أنه كان عدلا موثقا بفاس بل صدر عدول الحضرة الفاسية ثم ولى القضاء بجبل طارق ، وهاتان الخطتان تحتاجان ، بلا ريب ، الى تكوين متين في الاحكام الشرعية والنوازل الفقهية المختلفة ، نظرا لما كان بعرض على أصحابها من قضايا ومقالات متنوعة تستوجب الحسم والبت فيها بدون

¹⁾ الاحاطة صفحة 194 (دار المعارف بسيدون تاريسنغ ،

مراوغة أو تردد خصوصا في زمن بني مرين حيث أصبحت مادة الفقه كما أسلفنا من المواد الإساسية التي يتكون فيها الطالب تكوينا قد يكون على حساب مواد أخرى . ولا غرابة في ذلك فمترجمنا كان هو الآخر أحد صدور الفقهاء في عصره ومن حفاظ مذهب مالك . نحن لا نستغرب تلك الظاهرة لان مذهب مالك في الفقه أصبح مسيطرا ومتحكما في شؤون الامة ، والفقهاء والعلماء يصدرون عنه ويرجعون اليه في كل الماسبات والظروف ، فلقد استرجع مكانته وسلطته في عصر بني مرين بعدما مر بفترات عصيبة في زمن الموحدين ، فالتبحر في الفقه والتمسك به جعل صاحبنا يحفظ مذهب مالك عن ظهر القلب ، وليس ذلك في متناول كل أحد ، ولا بالامر السهل رغم كون البرامج المقررة في ذلك العصر كانت في معظمها تعتمد على الذاكرة والاستظهار . وإذا كان القباب من حفاظ مذهب مالك ، فان اتجاهه وميله كانا على ما يبدو ، منذ نشأته ، متفقين مع المناهج السائدة في عصره ، الشيء المذي قدوى يبدو ، منذ نشأته ، متفقين مع المناهج السائدة في عصره ، الشيء المذي قدوى الانسجام ووحد الاتجاه ورسم الطريق أمامه يسير فيها بدون تردد أو تراجع .

ولقد نوج هذا التكوين المعين بأن احتل القباب مكانة مرموقة في عصره اذ أصبح مدرسا لمادة الفقه يستفيد منه الطلبة وغيرهم ، كما يستفتى في مسائل شائكة استعصت على كثير من الفقهاء وذوى المعرفة ثم أصبح عدلا موثقا بفاس حيث تعرف عليه ابن الخطيب ثم عين قاضيا كما أسلفنا .

بعد هذا نتساءل عما اذا كان القباب قد اكتفى بهذا النوع من التكوين كما أكدته المصادر التي اهتمت به أم تجاوز هذا الحد. نم نعثر على ما يفيد في الموضوع ، لا مما يؤكمه ولا مما ينفسى ، الا أننما نرجم أن القباب كمان بارعا في اللغة وفي الادب بدليل أنه ترك شعرا يستنتج منه الباحث أن صاحبه لم يكن من المبتدئين أو ممن لم يمارسوا نظم الشعر ، علاوة على أن ثقافة العصر لم تكن لتسمح للطالب باهمال دراسة اللغة وفروعها . ان ما جرى على ابن المرحل وعلى ابن رشيد وعلى المملزوزي وغيرهم من نبغاء هذا العصر يجرى بصفة عامة على القباب ، نظرا للتقاليد السائدة ، والمناهج المعهودة التي دخلت في حكم القيم الاخلاقية والمثل الاجتماعية والمعايير التي يقاس بها الادراك والنبوغ

القبساب بالبسلاط المرينسي

يبدو أن القباب كان مرتبطا بالبلاط المرينى أيما ارتباط ، اكان ذلك لعلمه وتقواه وصلاحه أم كان لامر نجهله لحد الآن ؟ ان كل ما نعلمه أنه فاسى الاصل والنشئاة ، وانه من البيوت التى اشتهرت بالعلم فى فاس منذ القديم . أيكون قريبا من أسرة بنى مرين أو من القبائل الزناتية التى استعربت فى القرن العاشر ، لما

نعلمه من النزعة القبلية وأثرها في تقريب الافراد وابعادهم ، رغم كون ملوك بني مرين ، كما رأينا ، لم يكونوا عادة يراعون في تعيين موظفيهم سوى صفاء العقيدة الاسلامية والاخلاص للدولة وحمل راية العلم غير مبالين بمبدا الجنسية كما هو الشأن اليوم . قد يكون هذا أو ذاك وقد تكون هناك عوامل أخرى خفيت علينا وراء هذا التقريب الذي جعل صاحبنا يضطلع بمسؤوليات ضخمة ويكلف من طرف السلطان أبي سالم بمهام سرية في بعض الاحيان ، ولا أدل على ذلك من كونه أسند اليه سفارة بغرناطة ثم أرسله الى سلا في مهمة وصفها ابن الخطيب(I) بكونها تدخل في اطار هاختبار واستطلاع الاحوال السلطانية، فما قاله ابن الخطيب عنه وهو مقيم حينتذ بسلا يتجسس الاخبار ويسعى في اكتناه الامور للاطلاع على صغيرها وكبيرها ، ما قاله عنه يدل على كون القباب من الخواص أو من حاشية البلاط المريني .

ومع ذلك فلسنا ندرى ماذا كان مصيره بعد وفاة السلطان أبي سالم أي ما بين سنة 766ه وسنة 799ه التي توفي فيها القباب .

ابسسن بطسوطسسة

لمع فى عصر بنى مرين اسم آخر ، كان له أثر بليغ فى الاوساط المغربية وغبرها من بلدان العالم ، ذلك الاسم هو ابن بطوطة المغربى الذى طبقت شهرته الآفاق وطار صيته فى كل محفل ومقام حتى أصبح ، حسب لغة العصر ، من الشخصيات الدولية الى يقام لها ويقعد فى كل المناسبات . عرف العصر المرينى ميلاد هذه السخصية بل عرف بها ، فكانت دليلا عليه وعلامة من علامات ازدهاره ورقى حضارته .

لذلك كان لا مغر لنا ، ونحن نحاول التعرف على مشاهير رجاله ، من التعرض لشخصية ابن بطوطة لابراز معالمها وتوضيح آثارها . لم تختلف المصادر التي ترجمت له لا في اسمه ولا في نسبه كما حدث في ترجمة كثير من الاعلام المغاربة ، فكان الاجماع على أن مترجمنا هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن ابراهيم اللواتي أصلا والطنجي نشأة ، المشهور بابن بطوطة ، فهو اذن من أصل بربري من قبيلة لواته التي استقرت بالمغرب الاقصى منذ زمن بعيد ، ولا يستبعد أن تكون من القبائل التي اضطرتها الظروف السياسية والاجتماعية الى الهجرة فاختارت المغرب مقرا لها ، فكان منها ابن بطوطة كما كان منها غيره من الشخصيات التي اشتهرت بعلمها أو بصلاحها . كان مسقط رأسه بطنجة حيث ولد سنة 507ه وكانت نشأته بها في ظل والديه الى أن بلغ سن الرشد بل ظل فيها حتى أكمل نضجه وقويت شخصيته وألحت عليه الرغبة

¹⁾ ألاحاطة المجلد الاول صفحة 192 (مطبعة مصر بدون تاريخ)

فى مغادرتها استجابة لنادى الفريضة المقدسة التى كان عليه أن يؤديها كما أداها غيره من المغاربة الذين فارقوا أوطانهم وأهلهم مستسهلين الصعاب ومتحملين المشاق والاهوال ليحجوا الى بيت الله . انها أمنية غالية ودافع قوى وملح يحرك النفوس فى كل لحظة وفى كل حين ، يخلق فيها تحرقا وتشوقا فلا تعرف اطمئنانا ولا راحة الا بعد بلوغ الهدف المنشود .

الا أن ابن بطوطة ، كما سنرى من بعد ، لم يكن على موعد مع هذه الرحلات القصيرة التى قام بها كثير من معاصريه والتى لا تتجاوز سنتين أو ثلاث : لقد تجاوز الحد المعروف وتعدى النطاق المألوف فقام بأكبر رحلة فى هذا العصر ، وجال فى مختلف عواصم العالم وحقق بذلك فى ميدان الرحلات نصرا عظيما وسجل تفوقا كنيرا على من سبقه فى هذا الميدان ، اذ طالت غيبته فى مجموعها وبلغت 28 سنة تقريبا . لسنا ندرى هل كان يدور بخلده أن يتغيب هذه المدة الطويلة أم استهوته الاسفار فكانت غيبته من باب الصدف والعفوية لا يخضع لتصميم مرسوم وخطة محبوكة عزم على تحقيقها قبل سفره الطويل ؟ ان ما يستفاد من رحلته لا يدل على مشروخ حضر من قبل وقام صاحبه بتنفيذه وأثناء رحلته . فبقطع النظر عن نية الحج مشروخ حضر من قبل وقام صاحبه بتنفيذه وأثناء رحلته . فبقطع النظر عن نية الحج مشروخ حضر من قبل سفره ، نرى ابن بطوطة من خلال رحلته برمى بعصا التجوال منافر استهوته بجمالها أو بغرابة أمرها أو شيء كان يسمعه عنها من قبل ، فأقدم على أماكن بعيدة وخطيرة فتجول في مناطق ما كان ينوى الوصول اليها .

وسواء كانت هذه الرحلة الطويلة عن قصد أو غير قصد فالذى يهمنا هنا هو أنه قبل مغادرته طنجة سنة 725ه كان قد تلقى تربية اسلامية متينة وثقافة فقهية واسعة الافق الشيء الذى مكنه من أن يتبوأ منصبا للقضاء فى جهات مختلفة بدلهى أو غيرها من الاماكن التي كان يقصدها وهو فى طريقه لاداء فريضة الحج أو لتحقيق أسفاره. فتوليه هذا المنصب العالى يدل على :قافته الفقهية . وتشير بعض المصادر التي عنيت برحلته الى أن طنجة فى عصره كانت من المدن الحافلة بالنشاط الفكرى والثقافي بصفة عامة ، نظرا لموقعها الجغرافي القريب من العدوتين كما تفيد أن بيته كان من البيوتات العلمية المشهورة بالتقوى والصلاح .

لذلك كان طبيعيا أن ينهل من هذا المورد الغزير ويتكون هذا التكوين الذي أهله لمناصب سامية في المغرب أو خارج المغرب .

كما أن هذه التربية الاسلامية التى نشأ عليها فى بيته جعلت منه رجلا ورعا عابدا اينما حل وارتحل فكان بذلك السلوك الروحى يمتاذ عن المرافقين له فى سفره ناصحا مرشدا ، متجنبا للمعاصى التى كثيرا ما يقع فيها المسافر فى تنقلاته وحلوله باماكن أجنبية من ذلك أنه كان «اجتنابا للزنى ، يتزوج كلما نزل ببلاد يطول فيها مقامه فيطمئن الى عمله المشروع ويستقر بالبلاد التى نزل بها الى أن يتركها لبلاد

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version

أخرى فيتزوج بها كما سبق له أن فعل وهكذا الى أن وصل الى طنجة ، وبالاضافة الى ذلك نراه فى رحلته شديد الرغبة فى الاتصال برجال الخير والصلاح باحثا عنهم . مقتفيا آثارهم وكان لا يمر ببلاد الا وسأل عن صلحائها وأوليائها ليأخذ عنهم ويستفيد منهم . مما يؤكد تمكن هذه الروح الاسلامية من نفسه .

ثقسافتسه اللغسويسة

لقد شك كثير ممن عنوا بدراسة رحلة ابن بطوطة في كفاءته اللغوية فوصفوه بالقصور وعدم تمكنه من اللغة نظرا لما تضمنته هذه الرحلة من أغلاط نحوية وهفوات أخرى . ونحن ، وان كنا لا ننكر وجود مثل هذه الاغلاط في الرحلة التي اشتملت علي ألفاظ عامية ، الا أننا نستبعد أن يكون ابن بطوطة ارتكبها عن جهل اذ المعروف عنه أنه درس اللغة العربية وتمكن منها حتى أصبح ينتقد على خطيب البصرة وقوعه في أغلاط كثيرة ، واذا كان ابن بطوطة قد لاحظ على خطيب هذه المدينة المشهورة بزعامتها في النحو وبقدمها في علوم اللغة عموما فمعنى ذلك أنه كان يعي ما يقول ، كان شديد -الثقة بنفسه . أن ما جاء في الرحلة من أغلاط لا يستبعد أن يكون عن نسيان وقع فيه ابن بطوطة نفسه أو اهمال منه لعدم مراجعة انشائه واهتمامه بتقاييده اثر رجوعه من بلاد افريقية ؛ وقد يكون السبب في ذلك ابن جزى نفسه الذي كلف من طرف السلطان ابي عنان لجمع اجزاء الرحلة وتنقيحها واخراجها في حلة لائقة بها . الا يكون ابن جزى ، رغم نبوغه وكفاءته ، قد وقع عن غير قصد في بعض الهفوات التي ألصقت بمنشىء الرحلة نفسه ؟ ان الظروف المحيطة بالرجلين تحملنا على الاعتقاد باحتمال الامرين . واذا صرفنا النظر عن هذه الهغوات ورجعنا الى مؤلف الرحلة نفسه فلا بسعنا الا أن نؤمن بمقدرته وجدارته في اللغة وغيرها . ألم ينظم ابن بطوطة قصيدة في مدح ملك الهند ؟ أفلا يكون في نظم هذه الإبيات وتوجيهها الى ملك الهند حجة أخرى تُدل على تكوينه اللغوى ؟ ان قرض الشعر ليس في متناول كل أحد !

واذا كان ابن بطوطة لم يترك لنا الا قليلا من شعره فليس بعيدا ، ان تكون هناك عوامل اجتماعية أو نفسية حالت بينه وبين ذلك !

ابن بطوطة والبلاط المريني

ليس من الغريب أن يتصل ابن بطوطة بالبلاط المرينى بل كان طبيعيا أن ينجذب اليه وان يلج عتباته لما عرف عن ملوك بنى مرين من تقريب لكل ذى فضل وعلم ، واحاطته بعنايتهم الخاصة ، وهم الذين كانوا أشد الناس حرصا على أن يضم

بلاطهم النخبة المثقفة من المغاربة وغيرهم ، فكانوا يتنافسون فى جلب رجال العلم والفكر ، بل كانوا ، ان صح التعبير ، يتصيدون كل من أحسوا فيه نبوغا وتفرسوا فيه نباهة وذكاء ، فكنت لا تسمع بشخصية سامية الا ووجدتها ببلاطهم تشتغل بالكتابة أو بالحجابة أو بمهام أخرى سامية ، فما بالك برجل مغربى أصبح العالم يتحدث عنه لما قام به من رحلات وما وصفه من مناظر ومشاهدات وأماكن وعادات ، فكانوا اذن أولى الناس به وأسبقهم الى الاستفادة من شهرته ومجده . وما أن انتهى من رحلته حتى هب أبو عنان وبعث اليه وهو لا يـزال فى بـلاد افريقية فقفل راجعا منفذا أوامر ملكه ، مطيعا ، ممتثلا . فكانت الغاية هى الاهتمام بتدوين الرحلة وبتنظيمها كى لا تضيع فائدتها . فأعطيت الاوامر لابن جزى وكلف بالسهر على هذا الانتاج حتى تحقق الغاية المرجوة منه .

أبسو العياس أحمسه زروق

نسير متتبعين لاحوال البيئة المغربية في عصر بني مرين فنجد من المساهير من تتمثل فيهم هذه البيئة المغربية خير تمثيل ، ذلك لانهم عاشوا في هذه البيئة منذ حداثة سنهم وتكيفوا مع جوها المادى والمعنوى والروحى ، فنشأوا فيها وهم مرآة تنعكس عليها أحوال المجتمع المغربي وقيمه ومثله ؛ ومن بين هذه الشخصيات التي نشير اليها هنا يجدر بنا أن نتعرض لابي العباس أحمد زروق ، نظرا لما له من أثر على هذه البيئة وسمعة في كتب الآداب والتازيخ المغربية وغيرها . ولعله كان أكبر حظ من غيره في هذه المصادر التي تعرضت له ،رغم اغفالها لجوانب كثيرة من شخصيته وحياته . والسر في ذلك ، على ما نظن ، راجع الى ما كان صاحبنا يتمتع به من شهرة بل من استجابة لروح العصر وللتيار الجارف آنذاك في عصر بني مرين حيث أقبل الشعب المغربي في آخر هذا العصر على تربية روحية نظرا لما حل يه من أزمات وعواصف هزت أركانه وألحقت به ضربات اصابته في الصميم . فكان مترجمنا في مستوى الاحداث بل كأن قائدا من القادة الذين انسجموا بكل قواهم وامكانياتهم مع النخبة المثقفة والجماهير الشعبية التي وجدت فيهم ضالتها المنشودة كما أن صاحبنا ساعد على هذا التعريف بنفسه بما تركه من آثار بقى جلها محفوظا الى اليوم ، ذلك أنه لم يبخل بمجهود في هذا الباب ، فكان غزير المادة وافر المعلومات ، أفنى عمره تقريبا في التصنيف والتأليف ، مما أدى الى تخليد اسمه ، وتقوية أثره في الاوساط المثقفة والشعبية على السواء . . .

يكتى بابن العباس ويسمى ، حسبما ورد فى عدة مصادر ، احمد ابن احمد ابن محمد المشهور بزروق ولد بفاس سنة 946ه ، الا أن ولادته ونشأته بفاس لا تعنيان أنه كان من أهل فاس ، عريق النسب فيه . فقد سكنت فاس عدة قبائل بربرية

انتقلت اليه من نواحي مختلفة لاسباب اجتماعية أو اقتصادية أو علمية . وكذلك كان زروق يرجع في أصله الى قبيلة بربرية ، قبيلة البرانس المشهورة في المغرب . نشأ يتيما ، فقيرا ، ليس له من يكفله سوى اقاربه أو بعض أصدقاء أبيه ، مما زاد في شقائه وبؤسه وخلق في نفسه عقدا كان لها أكبر الاثر في حياته المستقبلة وفي توجيه سلوكه الاجتماعي والخلقي . الا أن الحرمان حسب حقائق علم النفس قد يكون في بعض الاحيان حافزا للفرد يدفعه الى تعويض النقص ، وذلك ببذل أقصى ما يمكن من الجهود لتدارك ما فات ، ولتكميل ما نقص ، ثم للعمل على البروز والتظاهر بمظهر القوة والغلبة في مواطن الضعف والميادين التي تكون محور الحديث وقبلة الانظار . ولعل هذه العوامل هي التي حفزت همة مترجمنا وةوت عزيمته وصلبت ارادته وربطته منذ حداثة سنه بأبواب المعرفة ، فولجها بكل شوق ورغبة ، وأقبل عليها اقبال المتعطش على العين ، يرد منها لما فيها من خلاص ووسيلة الى تحقيق مبتغاه ، اقتداء بعلماء عصره ونبغاء بيئته . فكان رغم كبر سنه ، يكــد ويجتهد ، ويواصل ليله بنهاره وهو نادم على ما فاته وعامل على قطع المراحل التي لابد من اجتيازها في عصره . فحفظ القرآن ثم درس أمهات اللغة والفقه فشرع في التفسير وقراءة الحديث آخذا عن مشايخ الفقهاء والعلماء وكبار المحدثين بغاس حتى حصل له من ذلك ما جعله يطمئن الى نفسه ويشعر بقوة باعه في هذه العلوم التي درسها . الا أن الظاهرة التي تميزت بها ثقافته الاولى هي أنه كان الى جانب ذلك يعنى بدراسة التصوف عناية خاصة . أكان ذلك ميلا منه أم عنصرا ايجابيا من العناصر التي تشكل الثقافة في ذلك العصر ؟ لسنا ندرى . كل ما نعلمه في الموضوع هو أنه كان يدرس من بين العلوم علم التصوف الذي أخذ فيه عن كبار أثمة أمثال العتوري والمجدولي ... ويظهر أن المناهج تغيرت بعض الشيء في آخر عصر بني مريس بحيث أصبحت تشتمل على دراسة في التصوف بعدما كان هذا الفرع من المعرفة كما أسلفنا في الفصول السابقة لا يتجاوز أنواعا من سلوك عملي خاص يقتصر على ذكر أوراد أو القيام بحركات مختلفة معينة ، ومهما يكن من أمر ، ومهما كاتت العوامل ، فاحمد زروق درس التصوف دراسة نظرية كما درس الفقه وعلوما أخرى وسعت مداركه وحددت اتجاهه منذ البداية رغم تبحره في علوم أخرى ، فكانت النتيجة ، وهي حتمية ، ان أصبح أحمد زروق في عصره من كبار الفقهاء وأثمة المتصوفة في نفس الوقت ؛ ولقد غلب عليه هذا الاتجاه العلمي وعرف به حتى طغي على ما له من مشاركة مى علوم اللغة والادب والبيان ، فأصبح مترجموه لا يذكرونه الا مع الفقهاء والمتصوفة ناسين حظه في اللغة وفي الشعر والفصاحة والبيان وتلك ظاهرة نلمسها عند عدد كبير من المؤرخين أو الادباء الذين عنوا بدراسة التراجم فأغفلوا عن قصد أو غير قصد جوانب متعددة من شخصية مترجمهم بحكم الضغط أو التأثير والانسياق وراء الاقتداء والتقليد الذي ضللهم وأنساهم التعرض لجوانب خفية ، قليلة الاهمية في نظرهم . ولكنها في نظرنا تعود بفوائد كبرى على الباحث المتتبع لحالات الفرد النفسية

والانفعالية والفهنية . أما نحن فنرى أن مترجمنا كان أديبا لا يقل مستواه عن مستوى

أدباء عرفوا بهذه الصفة واشتهروا بها وسنورد له في محلها أبياتا وقطعا نثرية يتجلى فيها ذوقه الفني وصناعته الادبية .

أخلاقسه وسلوكه العملي

لا ينتظر من شخص تكون تربيته هذه الا أن يسلك سلوكا يتفق ومبادىء الاسلام وتعاليمه ، وأسسه المتينة ، لان النشأة كانت في أساسها ومنذ بدايتها مبنية على هذه الروح الاسلامية وهذا الاتجاه الروحي المتغلفل في أعماق النفس ، فنشأ زروق متشبعا بهذه الروح الخالصة صادرا عنها في حركاته وسكناته ، في أفكاره وعواطفه ، وفي سلوكه نحو ربه ، نحو نفسه ، ونحو غيره . واذا كان بعض الفقهاء رغم تضلعهم في العلوم التي درسوها ظلوا نظريين ومثاليين ، فزروق على العكس منهم كان نظريا وعمليا في نفس الوقت . لم تقعد به ثقافته النظرية عن خوض المعركة في ـ ميدان السلوك العلمي ، ولم يكتف بشرح نظرياته وأفكاره وانما كان ، علاوة على ذلك ، من هؤلاء العلماء الذين يتخذون المواقف الصريحة ويعطون من أنفسهم القدرة العملية فيغيرون المنكر ويوقفون الضلال ويهدون الى الرشاد لا بنصحهم فقط ، بل بسلوكهم ، وأعمالهم ، وتصرفاتهم ، وردود أفعالهم مطبقين ما درسوه من أفكار وحقائق ، منفذين أوامر الشرع الإسلامي ، معارضين ومصطدمين . ان زروق كان ذا مروءة وخصال حميدة ، رجلا عفيفا ، زاهدا ، ناسكا ، لاهيا بهذه الحياة ؛ لقد أعرض عنها وسعى في التخلص منها ، الا أنه لم يعرض عنها بانسحابه وسلبيته وانمحاء شخصيته . كلا ! لقد فرض شخصيته القوية فنزل الى الميدان وخاض المعركة بنفسه لاصلاح أمته وتقويم اعوجاج بني وطنه ؛ فكان آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، لاحظا ومنتقدا ، رادعا ومصلحا ، مما تسبب له في حملات مناوئة من طرف بعض معارضيه الذين يرون في تدخلاته قضاء على مصالحهم واستخفافا بسلطتهم ونفوذهم المعنوى ؟ فكان ذلك سببا لبعض الانتقادات الموجهة اليه في زمنه أو في عصور آخــری .

عاش الشيخ زروق في المغرب عيشة متواضعة عرفنا نوعها واطلعنا على أوجه نشاطه فيها متفاعلا مع بيئته ومؤثرا ككل كائن حي ، فلم يعرف عنه أنه اتصل بأمير أو بوزير أو بذي جاه دنيوى يتقرب منه لينال من خبره ويستفيد من نعمته ، ولم يسبحل له التاريخ أنه اتصل بالبلاط المريني أو ببلاط آخر في العدوة الاندلسية أو في اقريقيا . ان الظروف كانت يومئذ حالكة ، والضربات تتوالى على المغرب مسن النصارى ومن غير النصارى ، فقويت العاصفة ، واشتدت الفتن وذحزحت القواعد ، وتخلخل النظام ، وسادت الفتن والاضطرابات ، واكفهر الجو ، وسيطر التشاؤم والخوف على الناس ؛ ومع ذلك كان يتحرك ويقف من الاحداث مواقفه المعروفة ويسمع

صوته فى غير ما وجل ولا خوف . استطاع رغم هذه الظروف القاسية أن ينتقل من المغرب الى المشرق ، فأدى فريضة الحج ثم مكث مدة فى مصر فرجع الى وطنه ولكنه ما لبث أن فارقه الى طرابلس حيث اشتهر .

ألــــاده

من المؤكد أن الشيخ احمد زروق ترك بعد وفاته تراثا أدبيا غزير المادة ومتنوع الفروع لما عرف عنه في حياته من انكباب على الدرس والتدريس ، والسرح والتأليف ، وانشغال عن أمور الدنيا وما تستلزمه من نشاط يبدل في هذا الميدان أو ذاك ؛ فكانت حياته كلها حافلة بأعمال الخير والتقوى وبالكتابة والتصنيف ؛ فكان من ذلك الانتاج الضخم عدة المريد وشرح الحزب الكبير لابي الحسن الشاذلي ، وكتاب القواعد في التصوف وشرح مختصر خليل ، وغير ذلك من المؤلفات المجيدة ، مما يدل على سعة أفقه وغزارة مادته ومواهبه العقلية الخلاقة .

ابسسن وشيسسق

نجد في هذا العصر الذي نؤرخ له شخصية أخرى ورد ذكرها في بعيض المصادر وأشير اليها بالبراعة والنبوغ. وقد رأينا أن نتعرض لها لما كان لها من أثر في البيئة المغربية وفي الحياة الادبية على الخصوص ، يتعلق الامر بأبي على الحسين ابن عتيق بن الحسن بن رشيق التغلبي المرسى اصلا والسبتي نشأة واستيعانا ، ليس من المستبعد أن يكون انتقاله إلى المغرب جرى مع الاسر التي هاجرت مواطنها من الاندلس اثر سقوط القواعد الاسلامية في يد الاسبان ، لاسيما ونحن نعلم أن أسباب الهجرة قد تعددت في هذا العصر وان المواطنين الاندلسيين انتقلوا بكثرة الى العدوة المغربية نظرا لما كانوا يجدون فيها من اطمئنان وارتقاء وسلامة خصوصا في عصر بني مرين الزاهر حيث أصبح الحكم قويا وحيث كانت المعارك تجري بالمغرب الاوسط وبالمغرب الادنى لضمهما الى السلطة المغربية المركزية الراغبة في استرجاع الامبراطورية الموحدية . الا أننا نرجح أن انتقال ابن رشيق الى المغرب قد تم في مقتبل عمره وأنه صرف نشاطا كبيرا في سبتة حيث برز كما قال ابن الخطيب في احاطته وحيث كان كاتبا لاميرها أبي القاسم العزفي . ولقد حملنا على هذا الاعتقاد ما وجدناه من أثر لصاحبنا في بعض المراجع وما استنتجناه من هذا الاثر رغم قلته وتناثره هنا وهناك . ان ما وجدناه قد يدل على أنه قليل الصلة بالبيئة الاندلسية ولكن ليس معنى هذا أنه لم يتأثر بالبيئة الاندلسية التي قضى فيها جزءا من عمره

وأنه لم يحمل معه أى شيء منها يتعلق بعادات أهلها وتقاليدهم الاجتماعية . ذلك ما لا ندعيه وما لا تسمح به حقائق علم النفس وعلم الاجتماع ان التأثير ببيئة ما لا يقاس دائما بالزمن الذي قضاه القرد في تلك البيئة لان المسألة ليست مسألة كم فقط بل هي كم وكيف في نفس الوقت . قد يتفق أن يتأثر الفرد تأثرا قويا بمجتمع لم يقض فيه الا أياما معدودة بينما لا يتأثر بمجتمع آحر أو يتأثر به قليلا رغم كونه عاش فيه زمنا طويلا ، لان ذلك راجع الى عوامل نفسية واجتماعية قد تساعد وقد لا تساعد على التأثر والتأثير ؛ لذلك لا يمكن أن نجزم هنا ونؤكد أن صاحبنا ترك أثرا كبيرا يتعلق بالاندلس وبنشاطه فيها ، كما لا يمكن أن نؤكد أن المسادر التاريخية أو لادبية لم تحتفظ لنا بهذا الاثر انها نقطة استفهام تبقى موضوعة الى أن تتاح لنا الفرصة للاجابة عنها بكل دقة وموضوعية .

أما فيما يرجع لتطور حياة ابن رشيق ونوع تكوينه والدور الذي يمكن أن يكون لعبه في المغرب ، فلقد وجدنا في هذين النصين اللذين سنوردهما قصدا ، معلومات تساعدنا على الالمام بعناصر ايجابية في الموضوع ، وقد تنير لنا السبيل لاستجلاء جوانب قد تكون موضع خلاف أو شك . لقد جاء في دبلغة الامنية ومقصد اللبيب في من كان بسبتة من مدرس وأستاذ وطبيب(I) مانصه : (أبو على بن رشيق التغلبي ، مرسى ، عالم ، مصنف بارع الخط شاعر المرية ، كتب لاميرها من بني الاحمر الرئيس أبي الحسن على بن يوسف ابن نصر ولاخيه أبي عبد الله محمد ثم انتقل عنها الى سبتة فولى قضاءها لابي القاسم العزفي وتوفى في تازة من بلاد المغرب ودفن يوم الاربعاء 9 محرم 696ه وهو في وفد يقصد لقاء السلطان أبي سعيد ابن يوسف ...) هذا النص الذي أوردناه لمؤلف معاصر لابن رشيق ظل مجهول الاسم ابن الومام ، رغم التحمينات التي نسجت حوله وهو منقول عن مخطوط وجده الناشر بخزانة مغربية ووجد في بعض أوراقه تاريخ الاستساخ وهو سنة 824ه فهو يعتبر من الوثائق المهمة في الموضوع .

وللمقارنة والتحقيق نورد كذلك نصا آخر لا يقل أهمية عن ما ورد فى بلغة الامنية وهو لابن الخطيب(2) (يكنى أبا العباس مرسى الاصل سبتى الاستيطان كان فريد دهره اتقانا ومعرفة ومشاركة فى كثير من الفنون اللسانية متبحرا فى التاريخ ريانا من الادب شاعرا مفلقا عجيب الاستنباط قادرا على اختراع الاوضاع ، جهم المحيا ، موحش الشكل ... تحرف بالعدالة وبرز بمدينة سبتة وكتب عن أميرها وجرت بينه وبين الاديب ابن المرحل من الملاحظات والمهاترات أشد ما يجرى بين

¹⁾ نشر الاستاذ محمد بن تاريت ، مجلة تطوان منشورات الجامعة المفسربية كلية الاداب عدد 9 سنة 1964 صفحة 178

²⁾ الاحاطة تحقيق عبد الله عنان ج الاول (دار المعارف بمصر) ص 481-482 .

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

متناقضين) الى أن قال : «واستدعاه أمير المغرب السلطان أبو يعقبوب فاستكتبه .. ودخل الاندلس وحط بها بالمرية وقد أصيب بأسر عياله فتوسل الى واليها من قرابة السلطان ولحق بغرناطة ومدح السلطان بها ...»

ومن هدين النصين يمكن أن نستفيد استفادة كبيرة تساعدنا على تفهم شخصية ابن رشيق وكذلك أوضاعه وأحواله ، أما الملاحظة الاولى فهى خلافا لما جاء فى مخطوط بلغة الامنية ، أن السلطان الذى كان متربعا على عرش المغرب فى السنة التى توفى فيها ابن رشيق مع الوفد الذى كان متوجها الى السلطان سنة 696ه هو أبو يعقوب يوسف لا السلطان أبو سعيد كما ورد فى المخطوط أن السلطان أبا سعيد عثمان لم يتول الملك الا فى سنة ماره. ونظن أن ذلك خطأ ناتج عن نسيان أو غلط ارتكب فى الاستنساخ . ويستفاد كذلك مما سبق ذكره أن ابن رشيق تنقل بين العدوتيسن الاندلسية والمغربية ، الا أن هذا التنفل يكتنفه بعض الغموض لاسيما فيما يرجع لتاريخه وترتيبه . هل كان ابن رشيق فى الاندلس ثم استقر نهائيا فى المغرب الى أن مات ؟ ذلك ما رواه صاحب بلغة الامنية الذى اخبرنا أنه ولى قضاء سبتة . وتوفى بتازة ودفن يوم الاربعاء 9 محرم سنة 696ه أما ابن الخطيب فلا يذكر أن وفاته كانت بالمغرب بل يستنتج من كلامه على العكس أنه ارتحل الى الاندلس بعدما قضى أعواما في المغرب رغم كونه يتفق مع النص الاول فى كون مترجمنا كان بالمرية ونشط فيها كما نشط بسبتة .

مهما يكن من اختلاف بين ابن الخطيب وبين مؤلف بلغة الامنية ، فالشيء الذي بكاد يكون من المتفق عليه هو أن ابن رشيق نشط في مدينة سبتة حتى أصبح فيها كاتبا وقاضيا لاميرها أبي القاسم العزفي ، وكاتبا كذلك لابي يعقوب يوسف . وناهيك بهذه المناصب السامية في عصر بني مرين ، ولاسيما في بلاطهم ، فقد رأينا أن هذه الوظائف لا تسند الا لمن كان من النبغاء والفضلاء وذوى المكانة السامية والشهرة الواسعة في العلم والادب ، ومن ثم اذا كان صاحبنا تقلد هذه المناصب كلها وتقلب فيها من كاتب الى قاض وبالعكس ، فمعنى ذلك بكل وضوح أنه كان من النخبة المثقفة ومن العناصر التي يتوفر فيها الاستحقاق والجدارة . فقد سبق أن رأينا ونحن نترجم لبعض مشاهير هذا العصر ما كان يتوفر عليه هؤلاء من استعداد فكرى، ومواهب عقلية ، ونبوغ وعلم غزير ، ومعرفة واسعة في شتى الميادين . فلا نطيل ومواهب عقلية ، ونبوغ وعلم غزير ، ومعرفة واسعة في شتى الميادين . فلا نطيل اذن الكلام ولا نستمر في الشرح والتعليل للدلالة على كفاءة وثقافة ابن رشيق الذي كان الى ذلك (وكما شهد له به ابن الخطيب) ذا مشاركة في الفنون اللسانية ومتبحرا في التاريخ وريانا في الادب . فهذه الصفات كلها اذا جمعت في شخص واحد كانت برهانا قاطعا ودليلا على معلوماته الواسعة كما تدل على تخصصه في فروع مختلفة من العلوم ، فكان أديبا وفقيها ، مؤرخا وشاعرا عالما لغويا .

أما فيما يرجع لاخلاقه ومميزات شخصيته فآثاره الادبية وما قاله فيه ابن الخطيب، وتصرفاته الخاصة والعامة ، سواء في المغرب أو خارجه ، كل ذلك يعطينا

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فكرة عن جوانب كثيرة من شخصيته ويطلعنا على مواطن قوته وضعفه ؛ ذلك أن الفرد في المجتمع له سلوكان يختلفان ويتناقضان في كثير من الاحيان حسب الظروف والعادات المحيطة به ، والقيود التي تحد من حربته وانطلاقه . قد يرغب شخص في شيء ويومن بشيء يختلف تماما عن ما ياني به من أفعال في بيئته وأمام رؤسائه ورفقائه وأهله . فالواقع النفسي لا يعرف على حقيقته الا اذا ألم الباحث بجميسع العوامل التي تحرك الفرد ، ما خفي منها وما ظهر ، رخصوصا تلك العوامل المتعلقة بالتلقائية والافعال الصادرة بصفة عفوية ولا شعورية ونتيجة لذلك وجدنا في مترحمنا ونحن نحاول تحليل شخصيته ظواهر نفسية خاصة . كان يتوفر على طاقة انفعالية كبيرة تبحث لنفسها عن متنفس لتنصب على الاشياء والاشخاص ، تلك الطاقة التي كثيرا ما جعلت ابن رشيق يسلط لسانه وجام غضبه على الغير ، فينال من عرض الناس وكرامتهم ومروؤتهم وآخلاقهم قصدا وعن غير قصد أو حسب اصطلاح علم النفس شعوريا ولا شعوريا ان ردود فعله كانت قوية الى درجة العدوان والتهجم ، والتاريخ شاهد على ما نقول ومحافط في سجله على هذه الظاهرة النفسية التي صبغت سلوك ابن رشيق نحو نفسه ونحو غيره لقد تصدى لمالك ابن المرحل وهما معا في سبتة فوجه اليه سهام نقده الملاذع ، بل الفاحش المغرض الذي لا يترك لا كبيرة ولا صغيرة الا أبرزها وشخصها وجسمها وصورها أشنع تصوير وأقبحه م مما يذكرنا بما كان يدور من هجاء مقذع ومن سباب بين جرير والفرزدق والاخطل . أن التاريخ لا يزال يحتفظ بتلك القصيدة التي نظمها صاحبنا في ابن المرحل وهو يومئذ شبيخ طاعن في السن يصرف نشاطه كله في عبادة الله وفي أعمال البر والاحسان ؟ إن ابن رشبيق لم يراع هذه الاعتبارات ولم يحترم لا السن ولا مستوى الاخلاق ا**لعامة** فصب كلامه البذييء وسخطه المتفجر على شيخنا مالك ، مما ينم عن طبع غير سليم و يكشف عن سريرة غير عادية . ولقد أدى بنا الامر ونحن نلاحظ مظاهر هذه الظاهرة النفسية الى التساؤل عن البواعث أو الدوافع التي عملت على خلقها أو انمائها في مترجمنا : أيكون الدافع نفسيا محص أو اجتماعيا محضا أو هما معا ؟ أيكون ذلك من تبيل الوراثة أو من قبيل البيئة المضطربة التي عاش فيها ابن رشيق ؟ واذا كان من الصعب في مثل هذه الاحوال القطع فان من الممكن أن تكون البيئة بالنسبة لصاحبنا من العوامل التي شبعت فيه هذا الخلق الشاذ وهذا السلوك العدائي الذي كان الهجاء الفاحش مظهرا من مظاهره . إن البيئة المغربية كانت يومئذ مضطربة تعصف بها الحوادث والفتن من كل جانب ، وتهز أركانها الدسائس السياسية والاطماع الشمخصية والاحقاد والظغائن التي تفشت في البيوتات المترفة وفي البلاطات الملكية وحول كل ذي نعمة وجاه . وما بالك بالاندلس حيث توالت عليها الضربات القاسية من طرف الاسبان وحيث فقد الناس ثقتهم بالرؤساء نظرا لخذلانهم وتقلباتهم الكثيرة وتحالفهم مع العدو ضد بني مرين ، غلبت عليهم المصالح الشخصية ، ففتت في عضمهم ومالت بهم الاغراض ، فكانوا مراوغين متظاهرين بالمحبة والاخلاص لغزاة بني مرين . ألا تكون هذه الاحداث الاجتماعية وهذه المحن السياسية مصدر تشاؤم

كبير وانقباض في النفوس ويأس من الحياة كلها قد نجد في مكان آخر ما قد يعلل هذا الاتجاه النفسي ويفسر هذه الظاهرة التي طغت على طبع ابن رشيق حتى كان منه ما كان . ان هذا العامل الذي نبحث عنه نجده كامنا في نفسه مر تبطا به لقد سبق لابن الخطيب أن وصفه قائلا : (جهم المحيا ، موحث الشكل) . وابن الخطيب في وصفه هذا كان شاهد عيان ، لانه رأى صاحبنا ولاحظ هيأته وأحواله والصفات الغالبة عليه ، ان هذه الصفات تتناول المظهر الخارجي قبل كل شيء أي ما يعبر عنه الوجه : سماته وأساريره وملامحه القارة ان «موحش الشكل» صفة توحى بالغرابة وبالخلقة التي تخالف ما هو عادى ومتداول . أليس في هذه الصفات الجسمية ما بؤكد تلك الظاهرة التي لمسناها في شخصية مترجمنا ؟

مما تقدم نستطيع أن نقول ان ابن رشيق كان من الناحية العقلية يتوفسر على ذكاء ثاقب ، واستعداد فكرى ، ملحوظ ، ومواهب أخرى من المرجح أنها كانت نتيجة وراثية أكثر منها بيئية ، وان ما كان يتوفر عليه من دقة احساس وشدة انتباء وقوة ملاحظة يدل على ملكات فطرية أكثر مما يدل على عمليات تكون من نتائج التربية وقد ذكر ابن الخطيب(I) (أنه كان عجيب الاستنباط قادرا على الاختراع والاوضاع) . ان الاختراع والاستنباط علامتان من علامات الذكاء والنبوغ وسعة الخيال وبعد النظر ، انشىء الذي لا يتوفر لذوى العقول البسيطة والامكانيات الذهنية المحدودة .

آثــــاره

ترك لنا ابن رشيق حسب ما فى الجدوة(2) علاوة على قصائد وأبيات متناثرة هنا وهناك الكتاب الكبير فى التاريخ والتلخيص المسمى بميزان العمل الا أن هذه المؤلفات والقصائد لم يصفها المؤرخون ولا الادباء ولم يولوها عنايتهم الخاصة ؛ فقد يكون ترك أكثر من ذلك لاكنه كان مصيره الضياع أو نتيجة الاهمال والنكبات التى توالت على أهل المغرب والاندلس معا فى آخر عهد بنى مرين .

أبو عبد اللبه محمد العبدري

يتعلق الامر هنا بشخصية كان لها حظ فى تنمية الحركة الثقافية والادبية بصفة عامة . وأول ما يلفت النظر هنا هو ذلك الخلاف الذى وقع فيه من ترجموا لهذه الشخصية أو حاولوا اعطاء فكرة عنها ، والحقيقة أن المصادر القديمة لم تهتم بحياة مترجمنا باستثناء جذوة الاقتباس لابى القاضى الذى أفادنا قليلا عما رواه عن ابن المرحل،

¹⁾ ألاحاطة صفحة 221 .

² ابن القاضى ، جذوة الانتباس صفحة 192 (الطبعة الحجرية بفاس بدون تاريخ) .

أما نقطة الخلاف التي أشرنا اليها فهي تتلخص في أمرين اثنين: أولا كنية الحبدري ، ثانيا نسبه .

فكنيته عند البعض هي أبو عبد الله وعند البعض الآخر هي أبو محمد ، بقي هذا الخلاف قائمًا الى اليوم ولم نعثر بعد على وثيقة تاريخية أو مصدر من نوع آخر بحسم هذا الخلاف ويثبت الواقع رغم ما كتب من أبحاث ومقالات عن العبدري . ورغم التحقيق الذي قام به أخيرا الاستاذ احمد بن جدو (١) حول الرحلة التي خلفها صاحبنا ا فلقد أفادنا في هذا التحقيق ان الاستاذ ابن أبي شنب يكني العبدري بأبي محمد بينما يحمل مخطوط بلده أبا عبد الله ويعتبر الاستاذ ابن جدو هذه الكنية الاخيرة غلطاً ، لإنها كما قال ، كنية ابن الحاج صاحب المدخل ؛ وفي الوقت نفسه نجد الاستأذ محمد الفاسى يخالف هذا الرأى ويؤكد(2) أن كنية العبدرى هي أبو عبد الله ؛ فأين اذن الحقيقة من بين هذا وذاك . أما نحن فنرى أن الاستاذ ابن جدو الذي قام بالتحقيق لم يطلع ، رغم تحرياته ، على نسخ كثيرة للرحلة باعتراف منه ، وذلك نظرا للظروف السياسية التي كانت تجتازها الجزائر والتي حالت بينه وبين الاطلاع على نسمغ أخرى موجودة بالرباط وتونس وفاس والاسكوريال . فهو «لم ينتفع بمطالعتها ومنازلتها» ولهذا السبب نرى أنه كان من الممكن أن يغير الاستاذ المحقق رأيه بعد الاطلاع على أكبر عدد ممكن من النسخ الموجودة في المغرب على الخصوص ؛ ولذلك وجدنا قول الاستاذ محمد الفاسي يتفق مع كثير من الروايات ولا غرابة في ذلك نظرا لاطلاعه الواسع وتوفره على امكانيات وفرص متعددة لم تكن من حظ صاحب التحقيق .

أما وجه الخلاف الثانى فهو يتناول كما أشرنا نسب العبدرى . فالاس هنا ذو أهمية وخطورة لما له من تأثير وانعكاسات على الموضوع كله . والخلاف فى هذه النقطة راجع ، كما سبق أن رأينا ، إلى أن كثيرا من المغاربة غادروا ، لسبب من الإسباب ، بلادهم كما أن عددا كثيرا من الاندلسيين هاجروا بلادهم خوفا من العدوان أو رغبة فى الحصول على امتيازات فى البلاط المرينى أو لاسباب لا مجال لتفصيلها هنا . وسبب ثان لهذا الخلاف المتعلق بنسب العبدرى هو أن القدماء درجوا على اعتبار المهاجر من أهل البلاد اذا مات فيها ولو لم يقض فيها سوى بضعة شهور لذلك وقع الارتباك والالتباس فى رد الافراد الى أصلهم ، وذلك شىء سبق أن أثرنا الانتباه اليه . وعلى كل حال فالعبدرى أصبح فى نظر كثير من المؤرخين كابن أبى شنب وبروكلمان وجورجى زيدان من أهل الاندلس بل من بلنسية ويذهب بعضهم الى أنه انتقل الى المغرب مع أسرته كسائر الاسر المهاجرة وهو صغير السن ، الشيء الذي

الاستاذ ابن جدو قام بتحقیق ونشر الرحلة (كلیة الاداب الجزائریة) لكنه نشرها مبتورة ونافسة .

^{2؛} مجلة دعوة الحق بحث للاستاذ رئيس الجامعة المغربية سنة 1957 عدد 4 صفحة 67 · قام ألاستاذ محمد الغاسى بتحقيق ونشر رحلة العبدرى تحقيقا ونشرا علميين ·

لم يقبله الاستاذ محمد الفاسى الذى جزم بعغربيته الاصلية بمسقط رأسه ببلاد حاحة . وسعيا وراء التحقيق ، وبما أن المصادر لم تحفل بهذا الجانب عمدنا الى رحلة المؤلف علنا نجد فيها ما يفيدنا من قريب أو من بعيد في الموضوع ، وبعد قراءتها وامعان النظر فيها اتضح لنا أن صاحب الرحلة سبق له أن زام الاندلس واطلع على معالم بعض منها لانه يصيفها وصف عيان في ثنايا الرحلة الا أن هذا الوصف لا يعنى أنه عاش فيها أو ارتبط بأسرها ، أو بعض أوساطها ، لان رحلته خالية من كل عاطفة أو شعور تحوها كالحنين اليها أو التحدث عن أهله فيها أو أى شيء من هذا القبيل . فالكلام عن الاندلس في الرحلة كلام عابر شكلي لا علاقة له بعاطفة وطنية أو وبأرض الاجداده ، وعلى هذا فيكاد يكون من المحقق ان العبدري مغربي بالمعنى العصري للكلمة وان ما ادعاء بعض المؤرخين يكون من قبيل الالتباس والتأثير المحض ، ذلك أن كثيرا من الاندلسيين ينسبون الى بني عبد الدار كما لاحظه الاستاذ الفاسي في بحثه .

ونستنتج من هذا كله أن مترجمنا هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن على بن مسعود الحيحي أو الحاحي نسبة الى حاحا الكائنة قرب مدينة الصويرة ، وهي قبيلة بربرية لا تزال الى اليوم تحمل نفس الاسم وتكتسى صبغة بربرية أيضا ، وبناء على ذلك فالعبدري بربري أصلا ونشأة ، وله المام باللهجة البربرية كما يستفاد مــن رحلته . أما عن حياته أو ولادته أو وفاته فلا نجد لذلك ذكرا في المصادر التي وقفنا عليها لحد الآن . لذلك كانت وسيلتنا للتعويض عن هذا النقص ، هي دراسة الرحلة وتقصى ما ورد فيها لاستنباط منها ما عساه ينير السبيل ، ويفيد القارىء الراغب في الاطلاع على جانب حياة هذا الرجل الذي خلد اسمه بنفسه عن طريق رحلته . وليس الامر ببسيط كما قد يتبادر الى الذهن ، لان كل ما ورد في الرحلة لا يمكن أن يعد من الامور المسلم بها لاسيما ونحن نعلم أن صاحبها ألفها في ظروف خاصة ، · ظروف الاسى والحزن والاضطراب والفوضى ، ظروف كما قال بنفسه «أصبح فيها المسافر عندما يخرج من أقطار مدينة فاس لا يزال الى الاسكندرية في خوض ظلماء وخبط عشواء لا يامن على ماله ولا على نقسه، (١) هذا بالاضافة الى كون انتاج مؤلف ما كثيرا ما يتصف بالذاتية ويتدخل فيه عنصر الشخصية الذى يخضعه لتحكم العواطف والانفعالات والحالات النفسية الموقتة التي تفسد الحكم وتشوه الحقيقة . فما يقوله الاديب في شعره ، أو في نثره ، أو في فصته ، أو في رحلته ، لا يجب أن يعتمد عليه الا بعد التحرى ، وبعد المقارنة ، والالمام بجبيع العوامل التي تتداخل فى تكوين الواقع النفسى الذي تنبثق عنه ردود الفعل في مختلف أنواع السلوك التي تكون وراء الافكار والاحكام .

والذى يتضبح للباحث فى الرحلة أن العبدرى غادر قبيلة حاحا سنة 688م فى الخامس والعشرين من ذى القعدة كما أكده هو نفسه ؛ وعليه فسفره ياتى بعد

انظر رحلته ورقة 17 .

iverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مبايعة السلطان أبى يعقوب يوسف الذى تربع على العرش سنة 685ه وهى السنة التى بدأ فيها القيام بحملاته ضد بنى عبد الواد بتلمسان ، اذ قصر نشاطه السياسى والعسكرى على هذه الناحية لاخضاعها لحكمه ثم لتوسيع نطاق مملكته نحو افريقيا ؛ فلا غرابة اذن أن يصف العبدرى تلك الاحوال فى هذه الناحية بتلك الاوصاف المهولة وان يعطى عنها صورة قاتمة نظرا للاضرابات والفتن والمعارك التى كانت تجرى آنداك فى تلك البقع . نعم لقد غادر قبيلته تاركا ابنه فيها قصد أداء فريضة الحج والاخد عن الملماء والفقهاء والاتصال بأهل الفضل والخير .

شخصيتـــه

تظهر شخصية العبدري في رحلته قوية عنيفة حادة ، ذات صلابة ومناعة ، يتوفر على ارادة حديدية تجعله يقطع القفار ويقتحم المشاق بل الاخطار متحملا كل عناء وكل خوف وتهديد للوصول الى الغاية المنشودة ؛ وهو في ذلك واصل وبالغ مراده مهما كلفه الامر من ثمن . ونحن في أبرار هذه المميزات الشخصية لم تعتمد على ما قاله أو حكام فقط ، بل على ما صدر منه من سلوك ، أو ردود فعل تلقائية على الخصوص . تساعد الباحث على سبر غوره وتحليل نفسيته للاطلاع على العوامل الخفية والظاهرة التي تخلق تلك الشحصية بتفاعلها وتكاملها أو تناقضها . لقد كان العبدري أثناء رحلته في ثورة دائمة ، لا يطمئن له بال ، ولا يستقر له حال ، قليل الاقتناع ، صعب الارضاء ، بعيد الهدف ، كثيرا ما ينفعل ويقلق ويغضب لادنى اصطدام أو مثير بسيط صادر عن البيئة المادية أو الاجتماعية . فهو اذن من النفوس الصعبة ، المعقدة ، الشديدة الانفعال والاحساس ، الشيء الذي جعله يكثر من النقد بل من الهجو ، وتتبع العيوب والعورات وابراز السوآت ، مهتما بالناحية السلبية على الخصوص ، سواء أكان الامر يتعلق بالاشياء أم بالاشخاص ، الا أن هذا الانفسال السريع وهذه الحساسية الشديدة في شخصية العبدري لم يكونا من ذلك النوع الذي يقعد بالفرد وينزل به الى مستوى الوجدان المجرد ومبدان العواطف البسيطة التي تذبب شخصية صاحبها وتقضى على نزوعه وتفكيره ، فيصبح مستسلما ، خاضعا راضيا بالواقع ، مكتفيا بالموجود ، كلا ! ان العبدرى لم يكن من هذا النوع السلبي لا في سلوكه النفسى ولا في سلوكه الاجتماعي ، لقد كان بطبعه من النفوس المنغلقة التي يعيش فيها «الاتا الداخل» حسب اصطلاح علم النفس ، عيشة قوية تطفى على الانا الخارجي أو «الانا الاجتماعي» كما يقول علماء النفس التحليلي . لذلك نراه كثير الانقباض ، شديد السخط ، حتى اذا ما اتصل بغيره أو بمعطيات بيئته رأيناه يصطدم بسسرعة اصطداما ذهنيا وانفعاليا واجتماعيا ، فينفجر سخطا . لكن هذا الانقباض وهذا الانفعال كانا لمترجمنا بمثابة دافع خلاق لردود فعل قوية ، ونزعات شديدة ، سرعان ما تتحول الى رغبة ، أوفكرة بناءة أو نشاط دائب ، وقد كنا نرغب في الالمام

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version

بمعطيات البيئة التي عاش فيها لمعرفة العوامل الخفية التي كانت وراء هذا النوع من السلوك النفسي ، الا أننا مع الاسف لم نظفر بقليل.أو بكثير لتحقيق هذه الرغبة، بل كل ما هنالك أن قبيلة حاحا التي عاش فيها العبدري لم تكن في ذلك العصر من القبائل التي كان لها نشاط اجتماعي أو ثقافي ملحوظ ؛ فهي تقع بالقرب من مدينة الصويرة ، وتشكل ضاحية من ضواحيها المعروفة بتغلغلها في الحياة البدوية المنزوية ، أبكون ذلك عاملا من العوامل التي كونت شخصية العبدري ؟ ذلك ما لا نستطيع الآن الإجابة عنه رغم كون التجارب وحقائق علم النفس التحليلي تثبت أن الانقباض النفسي والتشاؤم المستمر هما نتيجة لحياة فردية ضيقة ، طابعها الانعزال ، وأساسها التمسك بالتقاليد والعادات القديمة .

ثقافسة العبسسدري

ليس من الصعب أن تقف هنا على نوع الثقافة التي تلقاها العبدري ، وليس بعسير أن نبين فروعها ما دام صاحب الرحلة نفسه يبرهن في مؤلفه عن جدارته وكفاءته العلمية وسعة اطلاعه وخبرته الادبية ، فهو يكثر من ذكر الآيات القرآنية ويستشهد بأحاديث نبوية تدل على اطلاع واسع ورواية متينة وسند قوى في علم الحديث . فاذا نزل بمكان ما بادر الى البحث عن ثقاته وشيوخه وفقهائه لياخذ عنهم أو يحقق في سندهم أو فيما روى عنهم ؛ فهو في كل هذا شديد الرغبة في التحصيل وتوسيع معلوماته ، جاد في الادراك ، صابر عازم ، متواضع أمام الشبيوخ ، غير متساهل فيما يعرض له من اخبار أو روايات ، شديد الثقة بنفسه وثقافته ، وبسلطته الروحية والمعنوية ؛ يجادل ويناقش وينتقد كثيرا ، الشيء الذي يدل على ثقافة واسعة شاملة وامكانيات غزيرة ومواهب فكرية ملحوظة . يتدخل في المسائل الفقهية فيشرحها ويبين وجهات النظر المختلفة فيها سواء عند القدماء أو عند معاصريه ثم لا يفوته أن يبين موقفه من كل ذلك معارضا أم مؤيدا ؛ أما الفن الادبى فهو الميدان الذي يصول فيه ويجول ، ملم بأسسه وفروعه ، عالم بقديمه وحديثه ، حافظ لكثير منه ، متضلع في علم البلاغة ، متقن لاقسامها ، يقرض الشعر بسهولة ، وينتقد الشعراء مبينا ما لهم وما عليهم ، ناصحا لهم باتباع أحسن الطرق لاجادة النظم . كل ذلك واضح في رحلته ولا يتسع له المجال هنا للاستشهاد به .

تلك هى شخصية أبى عبد الله العبدرى وذلك هو تكوينه : مغربى متأثر ببيئته مسلم محافظ على عقيدته ، فقيه أديب وعالم لغوى

noverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الصفحة الاولى من «الرحلة الغربية» للعبدرى ، مخطوط الخزالة العامة بالرباط رقسم د 1012 ،

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الصفحة الاخيرة من الرحلة المغربية للعبدرى رقم د 1012 .

آثساره

لا نعرف للعبدرى لحد الآن اثرا سوى رحلته المعروفة باسم «الرحلة المغربية» التى توجد منها نسخ كثيرة فى مختلف الخزانات العربية وغيرها والتى بقيت مخطوطة الى أن من الله عليها بيد الاستاذ احمد بن جدو الذى اخرجها من طسى المخطوطات فحققها وامد بها كلية الآداب الجزائرية التى نشرتها بواسطة مطبعة البعث بقسنطينة (بدون ذكر تاريخ النشر) . الا أن هذا التحقيق بقى ناقصا اذ الرحاة اطول مما يظنه الاستاذ المحقن ومن المؤكد انه لم يعشر الا على جزء منها نظرا لكون الرحلة فى تجقيقه لم تصل الى الديار المقدسة ولم تتناول كعادتها هذه الديار بالوصف والخبر . ولقد علمنا ونحن نتصفح اوراق مخطوطها بالخزانة العامة بالرباط أن الاستاذ محمد الفاسى يستعد لنشرها كاملة فى اقرب الايام وليس من شك في أنها ستسد هذا النقص وتكمل مشروع ابن جدو . (1)

ابسن رشیسد

عرف العصس المريني ، من بين العلماء والفقهاء والادباء ، شخصية اخرى لامعة طار صبيتها في المشرق وفي المغرب وخلات شهرتها الى اليوم . لذلك كان لا يد من الاهتمام بها والتعريف بها نظرا لما تركته في البيئــة المغربية مـن اثر وما سبجلته في الميدان الادبي والثقافي على العموم من نتائج كان لها نصيبها الاوفر في تسجيع الجركة العلمية آنذاك ، واعنى بها ابن رشيد السذى تحدثت عنه بعض المصادر بشيء غير قليل من التبجيل والتعظيم . ولقد ورد اسمه في هذه المصادر بدون التباس او تضارب آراء خلافا لما رأيناه في تراجع الشخصيات الاخرى . فهر باتفاق الجميع ابو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن ادريس ابن سعید بن مسعود بن حسن بن محمد بن عمر الفهری السبتی . کانت ولادتـــه سنة 657م بمدينة سبتة تلك المدينة التي أشرنا فيما قبل الى ما كانت عليه من حضارة وخير وصلاح ، تلك المدينة التي انجبت من الفقهاء والعلماء والادباء ما لم تنجبه الا كبريات المدن المغربية وبعض البيوتات العلمية التي لا يتسع المجال لذكرها هنا . والمهم في الامر أن صاحبنا ولد ونشأ بهذه المدينة وتربى في تياراتها الفكرية وموجاتها العلمية والادبية . فكان من الطبيعي بل حتميا ان يتال منها وتنال منه بالتفاعل والتكيف المادي والاجتماعي . وبالفعل أخل مترجمنا كمادة اهل بلاده وزمانه يجفظ القرآن وامهات النحو واللغة والادب والفقه والحديث .

¹⁾ لقد انجو الاستاذ محمد الفاسى هذا المشروع الثمين الذى افاد كثيرا من المتعطئسيين للرحلة المغربيسة •

فتضلع من كل ذلك وتشبع خصوصا بروح الاسلام وعقيدته الخالصة من كل بدعة او تحريف او زيف ، ولم يزل على ذلك الى ان بلغ من السن رشده ، ومن الثقافة حظا وافرا ، فجلبه التيار الاجتماعى الذى كان سائدا فى عصره الى أن يقتدى بمن سنوا السنة ، وشرعوا الطريقة للوصول الى الهدف الاسمى ، والحول على القيم والمثل الاجتماعية السائدة ، ذلك ان فريضة الحج اصبحت مقرونة برغبة اخرى قد تكون هى الوسيلة او الغاية عند جماعة يتسابق افرادها نحسو اداء الواجب الدينى ونيل المعرفة والاحتكاك بأهلها والاستفادة من مصادرها الاصلية ردا للامور الى نصابها وضبطا للاحكام والسنة والرواية .

بهذا المحصول العلمي المتين سافر ابن رشيد سنة 683ه الى البقاع المقدسة سالكا الطريق التي تفيده ، ومعرجاً على الاماكن التي تعجبه وتشتد اليها رغبته ، فاتصل بكبار العلماء ومشاهير الفقهاء والمحدثين مجالسا ، مناظرا ، آخذا او معطيا الى أن اشفى غليله ، ثم قفل راجعا الى وطنه ومسقط رأسه سبتة بعد تغييه عنها نحو ثلاث سنوات (680) فكانت هذه الرحلة من أهم الاحداث وأخطرها في حياته ، اذ زادته شهرة ونبوغا ، ووضحت انجاهاته الفكرية والروحية ، وأبرزت ميوله ، وأفسىحت المجال لمواهبه واستعداداته ، وقوت مكانته في الشرق والغرب ، وبعبارة أوجز عملت على تكوين شخصيته وتثبيت معالمها وتركيز اسسمها وتحديد مصيرها ، الشيء الذي جعل ابن الخطيب يحكم له بما نصه (١) : ركان قريد دهره عدالة ، وجلالة حفظاً وادباً وسمتاً وهدياً ، واسع السمعة ، عالى الإسناد ، صحيح النقل، أصيل الضبط ، تام العناية بصناعة الحديث قيما عليها بصيرا بها محكما فيها ، ذاكرا للرجال ، جماعة للكتب ، محافظا على الطريقة مضطلعا بغيرها من العربية واللغة والعروض ، فقيها ، أصيل النظر ، ذاكرا للتفسير ريانا من الادب ، حافظا للاخبار والتواريخ مشاركا في الاصلين ، عارفا بالقرآن عظيم الوقار والسكينة بارع الخط ، حسن الخلق ، كثير التواضع، تلك هي شهادة ابن الخطيب في ابن رشيد وهى شهادة كافية للدلالة على نوع ثقافته وكميتها ، اذ يبدو فيها محيطا بانواع كثيرة من العلوم والفنون وكانه دائرة معارف ، وبناء على ذلك فهو أديب ، وفقيه ، ولغوى ، ونحوى ، ومجدث ، ومؤرخ وراوية ومقرىء ، ورجل خير وصلاح ، وتلك امكانيات وصفات لا تتوفر الا لمن كان ذا حظ وافر مان المواهب العقلية والاستعدادات الخلقية ، فهو من الناحية العقلية ذكى ، لان الالمام بثلك العلوم والتفوق فيها ليس في متناول عقل متوسط ، ومن الناحية الخلقية قوى الارادة ، شديد الرغبة ، عامل على تحقيقها ، جاد في تنفيذ اهدافه ومشاريعه مهما كانت العقبات والاهوال المحن . اما من الناحية النفسية فلقد كان منشرحا ، منسطا ، كثير الاتصال بغيره ، مقبلا على الاجتماعات والمجالس ، ميالا الى المؤانسة والتعاطف

^{[}} الاحاطة المجلد الاول صفحة 136

والتعايش ، كما شهد بذلك ابن الخطيب حيث يقول في احاطته(I) : «... كثير التواضع ، رقيق الوجه ، متحملا كلف اخاصة والعامة ، مبذول الجاه والشفاعة، وأما من الناحية الدينية الصرفة فالمعروف عنه أنه كان كثير العبادة ، شديد التقوى . بل زاهدا ومنصرفا عن ملذات الحياة ونعيمها ، متمسكا بظاهر الحديث والسنة الى درجة جعلت البعض يشك في اخلاصه لمذهب مالك ويتهمه باعتنساق المذهب الظاهرى .

ذلك هـو ابن رشيد كما يتجلى فى آثاره ، وتلك ثقافته وأخلاقه ، وتربيته بصفة عامة . اعتمدنا فى تحليلها على ما رواه عنه معاصروه او من ترجموا له ، كما رجعنا فى ذلك الى آثاره وخصوصا رحلته التى سجل فيها نزوعه وميوله واتجاهاته وسلوكه عن قصد او غير قصد ، وكذا انفعالاته وردود فعله التلقائية التي كثيرا ما تعبر عن ما يختلج فى نفسه من مشاعر وعواطف واحاسيس قد لا تتاح لها الفرصة للتعبير عن نفسها داخل الاطار الاجتماعى المقنن بالقيود الاخلاقية والمثل العليا المجتمعية التى تكون حجر عثرة فى التعرف على السواقع النفسى واكتشاف السريرة واكتناه ما تخفيه الصدور وتحجبه طبقات اللاشعور .

وكانت تلك الثقافة الواسعة ، وتلك الشهرة الذائعة من اهم اسباب تطور حيانه الاجتماعية واقباله على مراحل حاسمة بل خطيرة في بعض الاحيان ، ذلك انه سرعان ما انتقل ، بعد مدة قصيرة قضاها في سبتة بعد رجوعه من رحلته الى العدوة الاندلسية ، ملبيا بذلك دعوة صديق حميم له ، الوزير أبي عبد الله ابن الحكيم الذي زين له المقام وحبب له الهجرة ومهد له الجو ، وهيأ له اسباب السلطة والجاه والمكانة المرموقة في الحضارة الغرناطية حيث أصبح اماما وخطيبا بمسجدها الاعظم ثم قاضيا من قضاتها . لقد ظل يتحمل اعباء هذه المسؤوليات الضخمة ويتمتع بهذه المكانة السامية الى ان انقلبت الاحوال في تلك الظروف وفي تلك البيئات ففاجأته بمصيرة اصابته في شخص سيده وولى نعمته الوزير ابن تلك البيئات ففاجأته بمصيرة ، فاضطر لمغادرة العدوة الاندلسية خوفا من أن يذهب ضحية اغتيال كصديقه ، ففر راجعا الى وطنه سنة 708ه ولم ينج بنفسه الا بمعجرة .

ابن رشيد في البلاط المريني

اقبل ابن رشيد بعد هذه الفاجعة على مرحلة اخرى من مراحل حياته الطافحة بالاحداث والمسؤوليات على الصعيد الاجتماعي وعلى الصعيد الرسمي ، فكانت ثقافته وتكوينه مرة اخرى سببا لرقيه ورفع شأنه ، اذ سرعان ما تلقفته ايدى ملسوك بني مرين ، وقربته منها باذلة له كل السهولات وخصته بعطفها وكرمها حتى نال

¹⁾ نفس المصدر صفحة 137 ،

من العز والسؤدد في وطنه ما كان له خارج وطنه وكان ذلك على أيدي السلطان ابي الربيع ثم على ايدى السلطان ابي سعيد بصفة خاصة وظل مقربا ، معزز الجانب، موفور الكرامة سواء اثناء مقامه بمراكش (1) أو بعد رجوعه منها الى ان توفى سنة 121ه و «دفن خارج باب الفتوح بمطرح الجنة»

آثساره

ترك لنا ابن رشيد مؤلفات كثيرة منها قصائد وابيات متناثرة في طيسات الكتب الادبية والتاريخية ، نذكر من هذه المؤلفات :

- I) المجاكمة بين البخارى ومسلم
- 2) ايضاح المذاهب فيمن يطلق عليه اسم صاحب
 - 3) السند الابين في السنن المنعن
 - 4) ايراد المربع لرائد التشجيع والترصيع
 - 5) احكام التأسيس في احكام التجنيس
- 6) وصل القوادم بالخوافي في ذكر أمثلة القوافي
 - 7) جزء في مختصر في العروض
 - 8). تقييد على كتاب سيبويه

الا أن أهم ما خلفه لنا أبن رشيد هو رحلته « مل العيبة فيما جمع بطسول الغيبة في الوجهتين الكريمتين مكة وطيبة »

ولقد اجمع المؤرخون والادباء على أن هذه الرحلة هي اعظم رحلة مغربية الفت في هذا العصر ، نظرا لقيمتها العلمية وما انطوت عليه من فوائد جمسة لا يمكن معرفتها الا بعد الاطلاع عليها والقيام بتحليلها .

ابس داود السلوى

ليس من شك في أن كثيرا من المساهير المغاربة قاموا في ميدان العلم والمعرفة بخدمات جليلة ادوها ساكتين ، راضين ، مطمئنين ، غير مبالين بامتيازات مادية او

 ¹⁾ يذكر آبن القاضى فى الجذوة صفحة 192 انه بعد فراره من الاندلس ورجوعه الى المغرب اختار أن ينتقل الى مراكش فتولى بها ألخطابة والامامة وذلك بعد موافقة السلطان أبى الربيع المرينى على هذا الاختيار .

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عطايا مالية كانت تغدق على كثير ممن خدموا البلاطات وتقربوا من الملوك والرؤساء وذوى الجاء والنفوذ طمعا في مالهم ، او في وظائفهم ، او في هدايا مختلفة تعود عليهم بالمال أو بالنفوذ . ولعل صاحبنا هذا كان من هذا النوع البشرى الذي يحب العمل فسي الخفاء ويسلك سبيل الانزواء والانطواء ، ويفضل التستر على الجهر ، والمظهور بعظهر الرئاسة ، وكثيرون هم الذين سلكوا هذا السلوك واخفوا به نبوغهم وعبقريتهم ، فلم يهتم با رائهم أو ابحاثهم أحد ، لانهم جنوا على انفسهم بهذا الانزواء والانقباض . ولقد سبق أن رأينا ونحن نتعسرض لبعض الشخصيات المغربية أن كثيرا منهم من أهمل نفسه ، وقبع في زاوية اجتنابا لكل اتصال ، وكسل احتكاك وظهور . من هؤلاء أبو العباس القباب الذي ، رغم غزارة علمه ، وطول باعه في الادب والشبعر ، كان يتستر وراء حجب كثيفة وكاد أسمه ينمحي لولا جهود الباحثين المنقبين عن آثار الإجداد ، وكذلك كان الامر بالنسبة لعبد العزيز الملزوزي ، المنقبه من اجهولا مغمورا رغم ما نقله بعض المؤرخين وكتاب التراجم من ابيات ارجوزنه استشهدوا بها عند الحاجة

على أن السبب في هذا الانزواء وهذا الاختفاء اذا كان راجعا الى الفرد نفسه ، الى طبعه ، الى ميوله ووجدانه ومزاجه ، فأن الظروف الاجتماعية كثيرا ما تطغى على الفرد وتسلبه فعاليته وايجابيته ، وتقعد به الى الدرك الاسفل جاعلة منه شحصا منسحبا ، منسلبا ، قابعا وراء سلسلة من الحوادث ، رغهم ارادته القوية ، وقدرته على الخلق والابداع ، وخوض المعارك جنبا الى جنب مع الفطاحلة والعباقرة .

ثم ان هناك ظاهرة اخرى لا يجب ان نغفلها لما لها مسن خطورة على تاريخ المضارة العربية بوجه عام والحضارة المغربية بوجه خاص ، ذلك ان جل المثقفين الذين تعرضت لهم المصادر التاريخية بقليل او بكثير من التفاصيل كانوا في أغلبهم من ملازمي الملوك او من القربين اليهم ، اما غيرهم فقد ظلوا مهجوزين مغمورين رغم ثقافتهم الغزيرة وتضلعهم في العلوم النقلية والعقلية . هذه ظاهرة اجتماعية يجب أن يقام لها وزنها نظرا لما تتركه من تاثير في ذهن المؤرخين والادباء ومسن ضغط غير مباشر يجعل الباحث ينساق وراء احكام مخالفة للحقيقة وللواقع .

لذلك يجب على الباحث ان يتزود بكثير من التحرى والاحتياط كى لا تنبنى أحكامه على الدعاية الناشئة عن كثرة ترديد القول والحديث عن شخصية ما . ان هذه الاعتبارات هى التى تجعلنا نرجح ان الادب المغربى ، لاسيما فى «القرون الوسطى» ، أدب استقراطى وبرجوازى فى نفس الوقت .

ومهما يكن من أمر ، وسواء كان السبب راجعا الى عوامل نفسية أو اجتماعية فمترجمنا ظل مغمورا مجهولا ، لم تشر اليه المصادر التاريخية أو الادبية ولو اشارة خفيفة ، بل لم تذكر حتى اسمه فضلا عن ان تتعرض لحياته او لآثاره . ولذلك يمكننا ان ندعي اننا اول من يتناول الحديث عنه واول من يتعرض لآثاره للتعريف بها واطلاع القراء عليها تعميما للفائدة ، واحياء لتراثنا الادبى الذى ظل في مجمله

غير معروف ، رغم ما نشر منه من مقالات أو أبحاث وكتب نعتبرها كلها نسبة ضعيلة من ذلك التراث الضخم الذي خلفه اجدادنا المثقفون .

وبعد فبينما كنا نبحث(I) فى المصادر التى تهم بحثنا هذا اذا بنا نجد فى قسم المخطوطات من الخزانة العامة بالرباط ، مخطوطا تجت رقم ح لا 360 يحمل العنوان الآتى : «نوادر النظام فى شرف سيدى الانام» . وبعد تصفحنا لاوراقنا ادركنا أن مؤلفه كان معاصرا للدولة المرينية وان من المحتمل أن يكون كاتبه هو مؤلفه نفسه . ذلك ان الصفحة الاخيرة منه كما يتضح فى الصورة المقابلة تنص على أن وقت الفراغ من كتابته كان أواسط شوال سنة 812 هجرية .

فمن هو اذن ابن داود السلوى ؟

نظرا للاسباب التى ذكرناها آنفا ، لقد تعذر علينا الوقوف على معلومات تتعلق بحياته او بتربيته او بثقافته وتكوينه . كل ما استطعنا ان نقسوم به هدو اننا ، تعويضا لهذا النقص ، لجأنا الى مؤلفه علنا نعثر على شيء يفيد فى الموضوع . الاأننا مع الاسف لم نظفر بشيء لان المؤلف نفسه لم يتعرض لاى جانب من جوانب حياته ، خلافا لما فعله بعض الادباء والمؤرخين الذين تحدثوا فى ثنايا كتبهم بصفة مباشرة او غير مباشرة عن الظروف التى عاشوا فيها والاحداث التى مروا بها قرانا بامعان هذا المخطوط الذى نحن بصدده ومع ذلك فلم نجد مع الاسف اشارة خفيفة او كلمة عابرة تنير السبيل او تلقى بعض الضوء على جانب من جوانب حياة المؤلف لقد ذكر ، كما يرى فى الصورة التى اثبناها هنا . اسمه واصله حيث يقول فى الصفحة الثانية : «يقول العبد الفقير الى رحمة ربه من كل جهاته المتوكل عليه فى حركاته وسكناته مجمد بن قاسم ابن داود السلوى .» اما كنيته فهى ابو عبد فى حركاته وسكناته مجمد بن قاسم ابن داود السلوى .» اما كنيته فهى ابو عبد الله كما يستفاد من عنوان المخطوط . ذلك كل ما وقفنا عليه فيما يرجع لاسمه وسياته .

أما فيما يتعلق بثقافته وتربيته فللباحث أن يرجع الى مؤلفه «نوادر النظام فى شرف سيدى الانام» ليجد فيه أن مترجمنا كان متشبعا بروح الاسلام وبتعاليمه ، محافظا على الاخلاق النبيلة ، مناجيا ربه فى كل وقت وحين كى «يعفو عنه ويطهر روحه» مما قد يكون أصابها من دنس وحساسة فى هذه الحياة . وهنا تظهر بكيفية واضحة نزعته الروحية الخالصة بل نزعته الصوفية التى غلبت على شعره حتى جعلته فى بعض المواقف مغاليا متطرفا فى المناجاة والاستسلام تفانيا فى حب الله وسعيا وراء الالتحاق به كى «يخلص نفسه ويطهرها» وهو ان مدح النبى فى منظومته مدحا خالصا نابعا من أعماق القلب ، فان مدحه هذا كان وسيلة اتخذها لتحقيق مآربه . ولا

¹⁾ يرجع الغضل ايضا الى الاستاذ سيدى ابراهيم الكتاني الذي لم يبخل علينا بنصائصه في علا الباب .

غرابة في كون ابن داود السلوى ينزع هذه النزعة الصوفية في حياته اذا تذكرنا أن البيئة المغربية في عهده كانت بيئة خصبة للزهد والتصوف ومجالا فسيحا وجد فيه المتصوفة عوامل كثيرة شجعتهم على المضى قدما في طريقهم محققين أغراضهم الروحية ، عاملين على كسب ثقة الجماهير الشعبية كي تنضم الى صفوفهم وتتبع طرقهم . وبالفعل تحققت هذه الاغراض وعمت البلاد موجة عميقة من الروحانية والتصوف ، تلك الموجة التي كان لها ما بعدها فيما يرجم لسياسة المغرب الخارجية

والى جانب هذا نرى مترجمنا من خلال شعره فقيها عالما بالاصول راويا للحديث متمكنا من العلوم العربية ، متضلعا في علم البلاغة والبيان .

والآن ما هي «نوادر النظام في شرف سيدي الانام»

منظومة تقع فى 185 صفحة وتشتمل على 2 900 بيتا . كتبت بخط مغربى جميل ، فى ورق متوسط الحجم ، لـم تنل الرطوبة منه الا فى بعض صفحاته ؟ (10 ـــ 18 ـــ 75 ـــ 82) وهى كلها ، كما يدل عليها عنوانها ، فى مدح النبى واظهار فضله على البرية ، وابراز مزاياه الخفية ، وخلقه الكريم وصفاته الحميدة ، وخصوصا المعجزات التى حققها عندما نزل عليه الوحى الى آخر لحظة من حياته يعدد المؤلف هذه الصفات وهذه المعجزات فى كثير من الابداع والتصويس والتجسيم وضرب الامثلة المحسوسة وغير المحسوسة ، دون أن يعتريه ضجر أو ملل ، لان عاطفته صادقة واحساسه قوى وحبه للنبى خالص كما يتجلى ذلك فى مقدمته التى تقتبس منها المنفف فى محاسنه المفردة ، واسترقنى الهيام ، استسقيت من سحائب مننه الشامخ الشخف فى محاسنه المفردة ، واسترقنى الهيام ، استسقيت من سحائب مننه الشامخ بواسطة أمداحه الشريفة صيب الغمام ، واستوعبت من طرف المقال فى ثنائه الفاخر أعذب الكلام وسميت ذلك بنوادر النظام فى شرف سيدى الانام ، ورفعته للذى أبرأ بلمسه السقام » .

تشمل هذه المنظومة على IOI نادرة وكل نادرة تتضمن ما بين 30 و 45 بيتا ، وتختلف القوافي باختلاف النوادر ؛ فالنادرة الاولى دالية والثانية ميمية والثالثة رائية وهكذا بدون ترتيب الفبائي . كل نادرة تدور حول معنى رئيسى من معانى الحب والاخلاص يشفعه الناظم ببعض التفاصيل والامثلة الدالة على معجزات الرسول وعلى أخلاقه النادرة التي امتاز بها عن سائر المخلوقات وابن داود في هذا كله لا يسام ولا يمل ، بل على العكس نراه يطلق لعاطفته ولخياله العنان حتى انه وقع في كثير من التكرار اللفظى والمعنوى ، والاستطراءات التي تخرج به في بعض الاحيان عن الحدود التي رسمها لموضوعه . وهكذا جاء في التادرة التسعين ما جاء تقريبا في النادرة 14 والنادرة 70 . أما اذا غضضنا الطرف عن هذه الملاحظات أمكننا أن نقول ان المنظومة حافظت على وحدتها الموضوعية وعلى انسجام العناصر المتألفة منها وهي والتعابير السليمة .

nverted by Liff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صاغها صاحبها بلغة سهلة خالية من التعقيد ووحشى الكلام ومن الاسجاع المتكلفة التى تقضى على المعنى وتفنيه لما كان يتوفر عليه من قدرة على نظم الكلام وعلى تنسيقه وتنقيحه واختيار اعذبه وأسلسه ، مما يتناسب والهدف الذى نشئه ، والمقام الذى رفع اليه مديحه ، ولاعطاء فكرة عن ما قلناه نورد فى ما يلى بعض الابيات من هذه المنظومة نتخذها كنمودج .

النسادرة الاولسي

نور الوجود وسر معنى الجود فالكاثلات جليها وخفيها أى الطريق سوى طريق محمد أى الثناء سوى ثناء محمد

لاحا لاجـل محبـد البحمــود فى كلهـا معنـاه بالمشهـود للبيض طاب مسيرهـا والسود قد صار فى الملكوت ذا تخليد

وبالجملة فان هذه المنظومة عمل أدبى ضخم ، بذل فيه ابن داود السلوى محهودا كبيرا وعناية فائقة من حبث الشكل ومن حيث المضمون . لذلك تعتبرها من المؤلفات النفسية التى جادت بها القرائح المغربية فى عصر بنى مرين ؛ وهى جديرة بالتحقيق والنشر نظرا لقيمتها هذه ونظرا لكونها لا تزال الى يومنا هذا غير معروفة . واننا نامل أن تتاح لنا الفرصة فى أقرب وقت لتحقيق هذا المشروع احياء للتراث الادبى المغربى ومساهمة منا فى خدمة الحضارة العربية بصفة عامة .

ابن عبد المليك المسراكشي

يظل الباحث عن هذه الشخصية المغربية ينقب في ثنايا الكتب لمعرفة حياة ابن عبد الملك أو الاطلاع على جانب من جوانبها أو الوقوف على شيء ينير له الطريق ، ويستدل به على هذه الظاهرة أو تلك ، لكن تلك المساعى كثيرا ما تبوء بالفشل لاصطدامها بعقبات وعرة ومسالك غامضة لا تجدى نفعا في الغرض المنشود . ومع ذلك فابن عبد الملك المراكشي من الشخصيات البارزة في هذا العصر ، ومن الاعلام الذين كان من المنتظر أن يسجل لهم التاريخ بعض المواقف السياسية والاجتماعية أمام الاحداث التي اجتازتها البيئة المغربية في هذا العصر . كان من المنتظر أن يقف أبن عبد الملك من تلك الاحداث موقفا معينا ، أنه أشره وعواقبه على هذه البيئه . لان رجلا كهذا ما كان له أن يقف منفعلا ، سلبيا ، لا يؤشر ولا يقوم بردود فعل تتجسم في بعض الحالات أو بعض الاعمال . ذلك ما كنا نتوقعه عندما شرعنا في تصفح المصادر المختلفة التي تعرضت لابن عبد الملك وأمثاله . الا أننا منظم بعطومات كافية أو باشارات تكون نواة لتكوين فكرة عن مترجمنا . ذلك ما

جعلنا نتسائل عن هذا السكوت وعن اسبابه . ولعل ابن عبد الملك لم يكن في هذا العصر هو الوحيد الذي مني بهذا الاجحاف . كثيرون هم الذين وقعوا في نفس الظاهرة ولم تنصفهم بيئتهم لا بقليل ولا بكثير ، بل لم بنصفوا أنفسهم لانهم ظلوا يعملون في الخفاء ، منزوين ، مجتنبين الظهور والبروز لاسباب راجعة الى جسمهم أو نفسيتهم ، أو تكوينهم التربوى ، أو عوامل أخرى تحول دون ظهورهم على مسرح الاحداث الجارية في مجتمعهم . أن الامتلة لكثيرة . يكفى أن نشير إلى أن العبدري كأن هو الآخر مفعورا مهجورا ، لا ذكر له في ما نتوف عليه من مصادر الا بصفة عابرة . وعندي أن العبدري شبيه الى حد بعيد بابن عبد الملك المراكشي في كثير من الصفات والحالات النفسية والظروف التي لابست حياتهما ، فكلاهما من الجنوب ، وكلاهما رحل عن بلاده لاسباب معينة ، قابن عبد الملك ، كما يستفاد من آثاره ، ومن المصادر التي أشارت اليه ، من مواليد مراكش (634) ؛ ومراكش هذه أصبحت في عصر بني مرين مدينة تكاد تكون مهجورة من الناحية الثقافية اذا استثنينا وجود شخصية ابن البناء الذي كان بمثابة نور يشع في ظلام حالك . اننا لا ننسى أن هذه المدينة هي عاصمة الدولة الموحدية المنهارة ، حيث جرت المعارك الطاحنة ، ونهبت الاموال والامتعة ، وخربت الدور والمنازل الفاخرة ؛ فكانت بها الضربة القاسية التي قضت على سلطة بنى عبد المومن . هذه الحوادث جعلت أبناءها الافذاذ يهجرونها خوفا من السوء والاذى ، أو طمعا في جاه ومال الدولة المنتصرة . أن المصادر التاريخية تحدثنا أن ابن عبد الملك بقى وحيدا في هذه المدينة باستثناء بعض الافراد المثقفين ، (على رأسهم ابن البناء) زد على ذلك أن مراكش عاصمة المرابطين ، ثم عاصمة بنى عبد المومن مدينة طغت عليها الصبغة البربرية وأصبحت بحكم ذلك وبحكم العصبية القبلية معقلا من معاقل البربر المناوئين لسلطة بني مرين ، فكانت المعارضة قوية والهزيمة حديثة ، والجروح وطرية، . وإذا عملنا أن ابن عبد الملك يرجع في نسبه الى أصل عربى ، أدركنا مدى بعد الشقة بينه وبين مجتمعه الصغير . ألا يكون ذلك عاملا من العوامل التي كانت وراء اختفائه أو اخفائه ، وطمس معالمه ورقيه ؟ أكان ابن عبد الملك يحس بغربة أو يشعر بضغط مباشر أو غير مباشر ؟ أن مراكش ، بحكم موقعها الجغرافي ، بقربها من الجبال وبعدها عن الشاطيء لم يكن يقصدها من العدوة الاندلسية الا عدد قليل من المهاجرين ، اذا نظرنا إلى ما كانت عليه فاس من حركة دائبة وتعايش بين الاسر الاندلسية المهاجرة وبين السكان الاهليين . ما كان أبعد مراكش عن هذه الحركة الهجرية التي عاشها المغرب في عهد بني مرين ! ومع ذلك فابن عبد الملك كان قاضيها الكبير في عهد السلطان أبي يعقوب يوسف ثم تركها وارتحل الى تلمسان حيث توفى سنة 703ه .

الا يدل ذلك كله ، من الناحية النفسية ، على شخصية منقبضة شديدة الحساسية ... ثائرة على الاوضاع ، نزاعة الى اجتناب المحافل والمجالس الرسمية التى يكثر فيها الجلساء والندماء والراغبون فى الحظوة والجاه ؟ قد يكون ذلك وقد

inverted by Liff Combine - (no stamps are applied by registered version

لا يكون ؛ وإنما الثابت عن صاحبنا أنه كان حاد الطبع ، قوى المزاج ، شديد اللهجة ، لاذع النقد ، كثيره ، سريع الانفعال غزير ردود الفعل . تلك ظاهرة واضحة فى مؤلفه حيث وقف من المؤرخين والادباء الذين ترجم لهم مواقف خاصة ، تقريبا عدائية ؛ وتلك سمات خلقية راجعة الى الوراثة كما يكون السبب فيها البيئة التى عاش فيها الفرد ونما . وفى البيئة التى عاش فيها صاحبنا ما يكفى لخلق هذه الحدة ، وهذه القوة الانفعالية التى تجعل من «الفرد عنصرا قوى ردود الفعل ، وبالتالى كثير الاصطدام ، الشيء الذي يعتبره الناس نقدا جارحا ، أو تهجما ، أو تحاملا على الغير . ذلك ما امتاز به مترجمنا كما يستدل به بعض من تحدثوا عنه أو كما يستنتج من آثاره . وهو يلتقى مرة أخرى فى هذه الصغات وفى هذا النوع من الشخصية مع صديقه وأستاذه العبدرى صاحب الرحلة المغربية ؛ فكلاهما اشتهر بالنقد اللاذع وبتتبع سوآت الادباء وعيوب المؤرخين ، مع هذا الفرق وهو أن العبدرى كان يصب غضبه على الانسان وعيوب المؤرخين ، مع هذا الفرق وهو أن العبدرى كان يصب غضبه على الانسان وعيوب المؤرخين ، مع هذا الفرق وهو أن العبدرى كان يصب غضبه على الانسان وعيوب المؤرخين ، فى بيئة أقرب الى البداوة منها الى الحضارة بالنسبة لما كانت عليه فاس من رقى ، وازدهار عمرانى ، ونشاط فكرى وعملى فى هذا العصر الذى نؤرخ له .

ألا يكون ذلك والاندفاع ، وتلك الفعائية ، وتلك القوة التعبيرية المتجسمة في النقد الصريح وفي اظهار مواطن الضعف والقوة ، وتمييز القبيح من الخبيث ، وفي البحث عن الجيد ، ألا يكون ذلك علامة من علامات الذكاء والنبوغ ؟ أن روح النقد لا تتأتى عادة الالمن يتوفر على مواهب عقلية خاصة تجعله يفطن لما خفى من الامور ، ولا يتأثر بالمظاهر السطحية البراقة التى تخفى وراءها الضعف والفشل ، كما تجعله حساسا بأدنى فلتات اللسان وأبسط الزلات . أن روح النقد دليل على دقة الملاحظة ، وساما بأدنى فلتات اللسان وأبسط الزلات . أن بوح النقد دليل على دقة الملاحظة ، وشدة الانتباه ، وقوة الادراك ؛ كما أنها تجعل الفرد قليل التساهل ، بعيد النظر ، من الصعب ارضاؤه وكذلك كان ابن عبد الملك بشهادة معاصريه أو بعض من ترجموا له أو كما يستفاد من آثاره .

ثقسافتىيىيە

علمنا أن ابن عبد الملك المراكشى كان قاضيا ، بل قاضى الجماعة بمراكش وفى ذلك دليل على نوع ثقافته وتكوينه . ان هذه الخطة الرفيعة كانت لا تسند الا لمن كان له باع طويل فى الفقه والحديث والتفسير وغير ذلك من العلوم الشرعية . لان المغروض فى قاضى الجماعة ان يحدث فى أمور دينية محضة وفى مسائل ونوازل فقهية قد تستعصى على الفقهاء والعلماء ؛ كما يكون قاضى الجماعة ، حسب التقاليد المرعية آنذاك ، اماما وخطيبا يحدث الناس ويفقههم فى أمور دينهم ، ويشرح لهم ما صعب عليهم من قضايا وأحكام . فهذه الخطة وحدها كفيلة بأن تجعل من يتولاها فى

المستوى المطلوب، لاسيما في زمن بني مرين حيث كانت المقاييس صعبة ، والشروط كثيرة وحيث كثر التنافس والتسابق على مثل هذه الوظائف وغيرها ، نظرا لكون المغرب فتح أبوابه على مصراعيها لابناء العدوة الاندلسية ، ولغيرهم من الجزائريين والتونسيين ، مما يؤدى الى رفع المستوى وعدم التساهل في الحصول على الوظائف الرسمية . على أن ابن عبد الملك كان الى جانب ذلك ، كما ذكره صاحب صلة الصلة (I)، أديبا وشاعرا ومتضلعا في علوم اللغة . له المام كبير بالتاريخ وبالحديث ، مما يدل على ثقافة اسلامية واسعة ، متينة الاسس ومتشعبة الفروع . أخذ هذه العلوم عن عدة أساتذة وشيوخ نذكر منهم مالك ابن المرحل وأبا جعفر بن الزبير ، وأبا اسحاق الغشاس وأبا الحسن الرعيني وأبا عبد الله بن خميس والعبدري(2)

آثــــاره

ترك ابن عبد الملك المراكسي شعرا ونثرا ، فكان حظ الاول النسيان أو الاهمال ، أو الفقدان ، لان ما وقفنا عليه منه يعد شيئا قليلا بالنسبة لما أشار اليه نفسه أو مؤرخوه . أما فيما يرجع لانتاجه في النثر فقد خلف مؤلفا ضخما عظيما كان السبب في تخليد اسمه وتركيز شهرته ؛ ذلك المؤلف العظيم هو : «الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، اختلف المؤرخون في عدة اجزائه الا أنها في الغالب تقع في تسعة مجلدات . وقد بذل ابن عبد الملك فيه جهودا جبارة وعناية خاصة تجلت في التراجم الوافية التي أتي بها في كتابه ، والتي لم يسبقه اليها أحد من مؤلفي كتب السير والتراجم . ويبرهن في كتابه هذا عن مقدرة علمية فائقة ، وعن تصرف في اللية تصرفا مطلقا جعله في بعض الاحيان يتلاعب بالمفردات ، ويسخرها بكل حرية وطلاقة لتأدية معانيه ؛ وهو وان لم يكثر من السجع ، فان جمله وعباراته لا تكاد تخلو من تعقيد نظرا لما يطغي عليها من جناس وطباق وصور مختلفة تتجلي في الاستعارات التي كثيرا ما يلجأ اليها ، مما يدل على تكوينه الادبي المتين وعلى شاعريته التي تظهر متفتقة في غير هذا الكتاب .

¹⁾ انظر ابن الربير ، صلة الصلة (نشر ليفي بروقنسال الرباط 1938) صفحة 95 .

²⁾ انظر في هذا الموضوع بحثا مفصلا للبحائة محمد العابد الفاسى الفهرى مجلة دعوة الحق السنة الثانية ع 4 و 5 و 6 •

ابن البنساء المراكشي

كان القرن السابع ه على موعد مع ميلاد أعظم شخصية مغربية عرفها العصر المرينى فيما يرجع للعلوم العقلية وبالاخص منها علوم الهيئة والكيمياء والرياضيات ؛ بل لم يسبق للمغرب أن عرف مثل هذه الشخصية النادرة ، الفذة ، العبقرية ، الخارقة للعادة بذكائها الوقاد ، بذهنها الثاقب ، وبمواهبها الفطرية التى أدهشت المغرب والمشرق بقدرتها على الخلق والابتكار ، وبتفتحها لانواع شتى من العلوم النقلية والعقلية ، تستوعبها كلها وتهضمها بدون ما ضجر وفي أقصر مدة ممكنة .

انها شخصية ابن البناء المراكشي ، ذلك الاسم الذي كان بمثابة نور ساطع ، طل يلمع في هذا العصر وفي العصور التالية التي انتفعت باشعاعه وباشراقه . فكان مفخرة لدولة بني مرين وللبيئة المغربية ، وللعالم العربي كله . ملأ الدنيا بسمعته ، وشغل الافكار ، وجلب اليه الانظار من كل ناحية ، فتصدت اليه اقلام لتتعرف عليه وتعرف به ، ولتبحث تراثه وتحلله وتترجمه الى لغات أجنبية مختلفة ، نظرا لقيمته النفسية ولآثاره المعيدة المدى في التفكير الانساني بأجمعه .

تحدث عن ابن البناء معاصروه وغير معاصريه من المتقدمين والمتأخرين ؛ وتعرض له جهابذة الفكر ، وأعلام الثقافة فى المشرق والغسرب ، ورواد الفلسفة والسياسة ، ومشاهير المؤرخين والادباء فتناولوه كلهم بالثناء ، والتعظيم ، والتبجيل، واعترفوا له بالفضل الكبير . يكفيك أن ابن خلدون (وناهيك به) ذكره فى مقدمته وعلق على انتاجه بكثير من التقدير والاعجاب ؛ فلنسمعه يقول فى الفصل الذى عقده للحديث عن العلوم العددية : «ومن أحسن التآليف المبسوطة فيها لهذا العهد بالمغرب كتاب الحصار الصغير ، ولابن البناء المراكسى فيه تلخيص ، ضابط لقوائين أعماله ، كتاب الحصار الصغير ، ولابن البناء المراكسى فيه تلخيص ، ضابط لقوائين أعماله ، مقيد ثم شرحه بكتاب سماه : (رفع الحجاب) وهو مستغلق على المبتدىء بما فيه من البراهين الوثيقة المبانى ، وهو كتاب جليل القدر ، أدركنا المشيخة تعظمه وهو جدير بذلك» (ت) ذلك ما قاله عنه ابن خلدون . نكتفى به اذ ليس من الممكن أن ناتي بأقوال جميع من نوهوا يه واعترفوا بجدارته واستحقاقه ، ذلك لانهم كثيرون ، وأحكامهم تكاد تكون كلها واحدة ، مجمعة على شيء واحد وهو التقدير والاعجاب .

مسولساه

ولد ابوالعباس احمد بن محمد بن عثمان الازدى المراكشي ، الملقب بابسن البناء بمراكش سنة 654 هـ. لم يقع اى اختلاف بين المؤرخين في هذا التاريخ كما جرى بالنسبة لعدد كبير من اعلام هذا العصر ، الا ان هسؤلاء المؤرخين كانوا متضاربين متناقضين عند ما تحدثوا عن تاريخ وقاته . ومع ذلك فالراى السائس

¹⁾ المقدمة (المطبعة البهية المصريسة بدون تاريخ) ص. 421_421 .

هو أن هذه الوفاة كانت سنة ٢2٢ه أما مكان ازدياده فقد كان بحى قاعة بناهض ، وهو حى من الاحياء المراكسية العتيقة المشهورة بحضارتها ورقى مستوى سكانها ، وهو قريب ايضا من جامعة ابن يوسف المشهورة ، تلك الجامعة التى ظلت على مر الزمن منبع الثقافة والحضارة الاسلامية فى العاصمة الجنوبية كما كسان الشأن بجامعة القرويين بفاس . اما منزله الخاص فالغالب على الظن انه كان بهذا الحى الذى عرف به ، ولقد حملنا على هذا الظن مسا استنتجناه من مشاهد تنا لبعض الآثار القديمة ومن الاتصالات المختلفة التى اجريناها مع بعض الشخصيات وبعض سكان أهل مراكش من ذوى الخبرة فى هذا الميدان والتجربة المبنية على طول العمر والاهتمام بالآثار . وهذا ما يخالف ما رواه ابن قنفسذ الذى ذهب الى كون مترجمنا كان «يسكن دارا بفنائها أشجار ، بناها قرب باب أغمات»(1) .

اخسلاقه وتربيتسه

كان ابن البناه ، فيما يرجع للاخلاق والتربية ، متشبعا بروح الاسلام وتقاليده، ويحكى عنه معاصروه انه كان متواضعا منبسطا ، مقبلا على الاجتماع ، معبا للخير ، متفتجا للغير ، مستعدا في كل مناسبة وظرف لافادة الطلبة ، متفانيا في خدمـــة العلم ، سالكا سبل التقوى والعبادة .

اتصالبه بالبسلاط المريشي

هل اتصل ابن البناء بالبلاط المريني ؟

لا نظن أن أبن البناء كان له أتصال وثيق بالملوك المرينيين كما أتصل بهم الفقهاء والشعراء في عهده . ولسنا نعلم بالضبط هل كان هو الراغب عنهم أم كانوا هم الذين ينفرون منه كما كانوا ينفرون من الفلاسفة ومن حدا حدوهم . ألا أننا يمكننا أن نستنتج من الظروف التي كان المغرب يعيشها آنداك أن الاوضاع والتقاليد الاجتماعية لم تكن تسمح له باقامة علاقة متينة بينه وبين البلاط المريني رغم كون كثير من المصادر التي تعرضت له ذكرت أنه كان يتمتع بسمعة كبيرة وبتقدير وحظوة عظيمة لدى هؤلاء الملوك ، ويحكى أبن قنفد في هذا الصدد أنه راى عند احفاد أبن البناء بمراكش رسالة بخط أحد الامراء ينشده فيها بكل الحاح ويرجو منه على

¹⁾ انظر في مجلة هيسبريس (مجلد 25 سنة 1938 الرباط صفحة 141) بحثا للدكتور رينو تحت عنوان ابن البناء المراكثي الصوني والعددي •

سبيل الصداقة ان يقدم لزيارته (I) كما تؤكد بعض المصادر انه كان كثير التنقل الى فاس بقصد زيارة هؤلاء الملوك . نعم ، لقد تنقل كثيرا الى فاس لكن ذلك التنقل كان لغاية علمية اذ من المعلوم ان ابن البناء كان يدرس فى جامعة القرويين وفى بعض المدارس التى أسست فى هذا العهد .

ابن البنساء الصوفسي

كان ابن البناء صوفيا مخلصا لمبادى، التصوف ، عاملا على تطهير نفسه ، سالكا سبل التقرب من ربه ، منشغلا ، منصرفا عن أمور الدنيا كارها ملذاتها ، متفانيا فى التقوى والعبادة . وكان شيخه فى هذا الميدان الصوفى الشهير ، القطب ، صاحب الكرامات ، ابو زيد عبـــد الرحمن الهـزمرى ، رئيس الطائفة الهزمرية باغمات . اخذ عنه ابن البناء طريقته الصوفية كما أخذ عنه علوما كثيرة ، وفوق ذلك كانت تربطهما علاقات ودية خاصة جعلت ابن البناء (كلما اعترضته مشكلة يركب بغلته ويغادر مراكش قاصدا شيخه ليستفتيه فى المسائل المستعصية عليه ، يركب بغلته ويغادر مراكش قاصدا شيخه ليستفتيه فى المسائل المستعصية عليه ،

ومن انتاج ابن البناء في هذا الباب كتاب سماه دمراسم الطريقة في فهسم الحقيقة من حال الخليقة، وهو مخطوط توجد منه نسخة تحت رقم 72 ن بخزانة وزان ، اطلعنا عليها فوجدناها مبتورة مكتوبة بخط صعب القسراة ، متلاشية الاجزاء ، الشيء الذي جعلنا نلجأ الى قسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط حيث وجدنا صورة لهذا المخطوط (ميكروفلم) فأخذنا عنه فكرة كافية تتلخص في كون ابن البناء في هذا المؤلف لم يات بشيء جديد وانا اكتفى بالتحدث عن التصوف وعن مبادئه والوسائل التي ينبغي اللجوء اليها لتطهير النفس وتخليصها مما قد لحقها من دنس في هذه الدار ، وتلك مبادئ عامة معروفة عند الصوفيين تكتسى صبغة عملية اكثر منها نظرية . اما الشرح الذي اتى به في هذه النسخة فهو موجز كاف لتفسيس ما قصده . وله ايضا مختصر احياء علوم الدين لابي حامد الغزالى .

ابن البناء الفقيه المحدث المفسر

خاض ابن البناء كذلك غمار علوم الدين والفقه ، فكان اماما فيها ، عارف ا بمقاصدها ، ملما بأصولها وفروعها ، مطلعا على جزئياتها ، فدرسها في مراكش اولا

¹⁾ م، ن، صفحة 142 ،

دينو ابن البناء المراكشى ، مجلة هسبريس 25_1938 ص 142 .

ثم بغاس ، كما عقد جلسات خاصة ، وعامة لاعطاء رأيه فى بعض ما اشكل على الهل عصره ، لانه كان يستفتى فى النوازل والاحكام ويرشيد العامة فى المساجد ، ويفقههم فى أمور دينهم .

وقد ذكر ابن حجر دانه كان فاضلا عاقلا ، نبيها ، انتفع به جماعة فى التعليم، وكان يشتغل من بعد صلاة الصبح الى قرب الزوال » (I) وقد برهن ابن البناء عن مقدرته الكبيرة فى هذه العلوم بتأليفه عدة كتب منها :

تفسير سورة الكوثر ، تفسير سورة العصر ، تفسير الباء في البسملة ، كتاب تسمية الحروف وخاصية وجودها في أوائل السور ، حاشية على الكشاف ، المتشابه اللفظ في القرآن ، عواطف المعارف ، الفصول في الفرائض ، عمل الفرائض رسالة في أسماء الله الحسنى ، مقالة في الاقرار والانكار . جل هذه الكتب مفقود ، وهي كلها تفيسة رغم كون صاحبها لم يتعد فيها الشرح والتعليق والجمع والاختصار . والتحليل في بعض الاحيان والغريب أن ابن البناء لم يتأثر فيها بفكره الرياضي لا من حيث الاسلوب ولا من حيث الافكار التي شرحها او حللها ، فهي اذن في الجملة شبيهة بالمصنفات الكبيرة التي الفت في ميدان العلوم الدينية في هذا العصر ،

ابن البناء الرياضي الكبير

نصل هنا الى الميدان الذى صال فيه ابن البناء وجال واصبح موضوعا تتناوله الالسبنة والإقلام . لقد مر بنا في موضع غير هذا ان ابن البناء كان استاذ الرياضيات بل كان الاستاذ الوحيد الذى أخذ عنه كثير من علماء عصره كما راينا أن جل الرياضيين كانوا من تلامذته . فلنكتف اذن بما قلناه سابقا اجتنابا للاطالة والملل ولننتقل الى مؤلفاته في هذا الميدان . بدأت شهرة ابن البناء عند ما لخص كتاب الحصار(2) ثم شرحه وهذا التلخيص عبارة عن كتيب وجيز المحتوى لا تتعدى صغعاته 16 من الحجم الصغير ، توجد منه نسخة مخطوطة تحمل رقم ج 1149 بقسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط وقد بداها بقوله : «الغرض في هذا الكتاب تلخيص اعمال الحساب ، وتقريب ابوابه ومعانيه وضبط قواعده ومبانيه وهو يشتمل على جزأين : الاول في اعمال العد المعلوم ، والشاني في المقواعد التي يمكن بها الوصول الى معرفة المجهول المطلوب من المعلوم المفروض المقواعد التي يمكن بها الوصول الى معرفة المجهول المطلوب من المعلوم المفروض

 ¹⁾ الدرد الكامنة في أعيان المائة الثامنة (حيدر أباد 1950) ج 2 صفحة 147 .
 2) أبن خلدون المقدمة ، صفحة 423 .

اذا كانت بينها صلة تقتضى ذلك(I) ، وهو فى الحقيقة كتاب مفيد لكنه صعب الفهم بالنسبة للمبتدىء على الخصوص نظرا لكونه جاء مركزا مختصرا خاليا من الامثلة المحسوسة الكثيرة التى تساعد الطالب على فهم الحقائق المجردة التى تحتاج فى تبسيطها الى كثير من الجهود لجعلها فى متناول العقول . ولعل السبب فى هذا التعقيد وهذه الصعوبة التى يصطبغ بها هذا الكتيب راجع الى كون ابن البناء بالغ فى اختصار كتابه هذا كما فعل بالنسبة للكتب الاخسرى التى ألفها فسى الرياضيات وغير الرياضيات ولا عجب فى هذا لان العصر ، كما راينا ، عصر المختصرات والشروح ، والتعليق عليها ، ولان ابن البناء اتخذها عادة لا تكاد تفارقه فى انتاجه . السم يعتذر عسن ذلك بقسوله :(2)

لعلمى بالصواب والاختصار ولكن خفت ازراء الكبسار وشأن البسيط تفهيم الصغار قصدت الى الوجازة فى كلامى ولم احذر فهيوما دون فهمى فشأن فحولة العلماء شانيي

وابن خلدون نفسه سبق ان لاحظ هذه الصعوبة بقوله: وهو مستغلق على المبتدئ بما فيه من البراهين الوثيقة المبانى . وانما جاءه هذا الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم، (3) . على أن ابن البناء ، تلافيا لكل هذا ، وتداركا لما فات ، رجع الى مؤلفه الملخص فشرحه شرحا كافيا سماه : «رفع الحجاب» .

مؤلفات ابن البناء فسىالرياضيات والتنجيم والعلوم المرتبطة بها

سبق ان رأينا ان ابن البناء كان استاذا في الرياضيات وفي العليوم التي ترتبط بها . فكان اماما ، وحيد عصره لا يضاهيه احد في ذليك ولقد لاحظنا بالفعل ، عند ما كنا نبحث عن الشخصيات المغربية البارزة في هذا الميدان ، ان جل المشقعين في هذه العلوم كانوا من تلامذته بمراكش أو بفاس . هذه حقيقة تاريخية لا يمكن التغاضي عنها(4) فلا عجب اذن أن يترك لنا ابن البناء مؤلفات قيمة في الرياضيات ، وفي التنجيم ، وفي التوقيت ، وما يتبع ذلك من فنون ترتكز على الحساب والهندسة . اهم هذه الكتب:

¹⁾ م، ن، صفحسة 1 .

 ²⁾ أين البناء ، منهاج الطالب في تعديل الكواكب ، منطوط النوانة ألعامة بالرباط دقسم
 325 صفحة I

³⁾ المقدمة سفحية 483 .

^{4؛} انظر الباب الثاني من هذا البحث .



الصفحة الاولى والثانية من تلخيص اعمال الحساب «لابن البنساء الراكشي مخطوط الخزانة العامة رقم ج 1149 .

كتاب اعمال الفرائض ، كتاب الفصول في الفرائض ، مقدمة كتاب اقليدوس، المقدمة الاربعة في العدد والحساب ، الاصول في المقدمات في الجبـــر والمقابلة ، القوانين في العدد ، المستطيل ، التأليف في احكام النجوم ، مقانة في علم الاسطرلاب، جزء في الانواع فيه صور الكواكب ، رسالة في ذكر الجهات وبيان القبلة ، اختصار في الفلاحة ، قانون في ترحيل الشمس ، قانون في معرفة الــوقت بالحساب ، قانون في فصول السنة ، قانون في ترحيل الشمس ، المناخ في تعديل الكواكب ، المناخ في رؤية الاهلة ، المداخل الثلاثة الى صناعة الاحكام النجومية .

على أن اهم كتاب بالنسبة للطلبة لا سيما اولئك الذين لسم يتقدم لهم أن مارسوا هذا الفن هو : دمنهاج الطالب في تعديل الكواكب، توجهد منه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط لل قسم المخطوطات رقم 325 . وهي ، رغم تلاشي بعض أجزائها ، لا تزال محتفظة بطابعها المغربي ، لم تنل منها الرطوبة والارضة الا في بعض صحافتها التي يبلغ عددها 96 من الحجم الكبير .

قسم ابن البناء كتابه هذا تقسيما واضحا ، وبوبه تبويبا يسهل على طالب التوقيت كثيرا من الصعوبات التى تعترضه فى تتبع سير الكواكب والنظام التي تخضع له فى تنقلها وتغيرها . يتضمن الكتاب أربعة وعشرين بابا ، خصص المؤلف الباب الاول منها لمعرفة التواريخ وأوائل الشهور ثم تحدث عن القواعد الحسابية المتبعة فى هذا الشأن ، ثم أتى بجداول مضبوطة خاصة بالتطبيق والتمارين التي يجب على الطالب أن يقوم بها كى يتأكد من معلوماته النظرية ، وهي طريقة لا تخلو من فوائد تربوية ، لها تأثير كبير فى تكوين شخصية الطالب ، وهى أيضا من المطرق البداجوجية التى يدعو اليها علم النفس الحديث . وقد بدأ ابن البناء من المطرق البداجوجية التى يدعو اليها علم النفس الحديث . وقد بدأ ابن البناء الافلاك الدائرة ، وزينها بالنجوم السائرة ، وصلى الله على سيدنا محمد سبيدى الامم السائة والغابرة ، وزينها بالنجوم السائرة ، وصلى الله على سيدنا محمد سبيدى الامم السائة والغابرة ، وعلى آله وسلم كثيراه(I) : مقدمة خالية من التعقيد ، لا اطناب فيها ولا استطراد ، وان كان صاحبنا يغلب عليه السجع الذى طبع سبائر مؤلفات هذا العصر ، الا ان هذا السجع خفيف ومقبول لا تكلف فيه ولا افتعال .

ابن البناء الساحر

اشتغل ابن البناء بالسحر ، وبالكهانة ، وبالطلسمة لكونه رياضيا كبسيرا ولكون هذه الفنون مرتبطة ارتباطا وثيقا بعلم الهيئة والفلك والتنجيم ، فليس اذن في الامر غرابة ما دام صاحبنا يلم بذلك كله ، ويتفنن فيسه تفننا خاصا . وكان

¹⁾ منهاج الطالب في تعديل الكواكب صفحــة 1

رفا محد النبرالك الرابع على الروطان لان البيرات و مرتب المبند المسلم المرابع ا

بسرأندأ لحزال حدويطا لدعل ساداور الإداهي وارائه يصدر المضلم

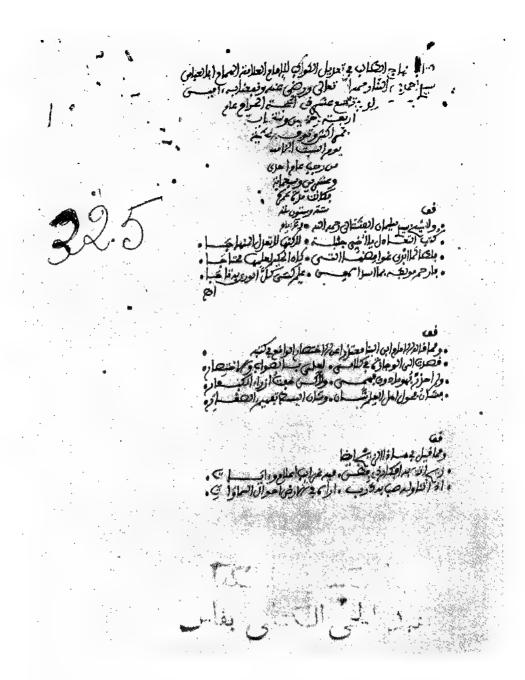
المجموع المدالا على المدالا على الروسات المنافرة السابى و والدابى و والدابى و والدائم المدالا على المدوسات و و المدالا المدالات و المدالات المدالا

کھ۔ وإماالتغزرملل

أوانل

الصفحة الاولى من «منهاج الطالب في تعديل الكواكب» (لابن البناء المراكشي) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 325 .

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الصفحة الاخيرة «منهاج الطالب في تعديل الكواكب» لابن البناء رقم 325 .

اشتفاله بهنم العلوم التى ذكرناها اشتغالا نظريا وعمليا فى نفس الوقت. ألف فيها كتبا سناتى على ذكرها من بعد كما مارسها عمليا واستغلها لغاية مادية محضة. يحكى صاحب نيل الابتهاج(I) أن رجلا قصد ابن البناء طالبا منه أن يدله على مكان كنز بمنزله. وحكى عنه كذلك مؤلف الدرر الكامنة وانه امتنع عن اكل كل ما فيه روح. وصار يكاشف كل داخل عليه بما هو فيه ، ويخبره ببعض المغيبات ، ويستعمل الاشكال الهندسية والحساب فى أمور غريبة ، ومنها انه استعمل احد الاشكال الهندسية ضد شرطى ظلم بعض خدمه قلم يتم كتابته حتى خر الشرطى صريعا » (2) ويحكى عنه ايضا (3) أن السلطان ابا سعيد عثمان المرينى استدعاه يوما ليسأله عن اجله ، فأخبره ابن البناء انه سيموت بتازة وهو مشرف على اشغال بنائية ، فكان الامركنك .

اما مؤلفاته في حدا الميدان فهي :

كلام على العزائم والرمى ، كلام على الطلمسات ، كلام على السنرجر والنسال والكهانة ، كلام على خط الرمل ، رسالة في الفرق بين الخوارق الثلاثة : المعجسزة والكرامة والسحر ، عنوان الدليل في رسم خط التنزيل .

ذلك هو ابن البناء المراكسى ، وتلك شخصيته العلمية المتعددة الجوانب ، الغنية بمعارفها النقلية والعقلية ، استطاع ان يحقق هذه المعجزة العلمية فى أقل من 67 سنة ، وهى مدة وجيزة بالنسبة لنشاطه الثقافي وما خلفه من آثار تجلت معالمها فى هذه المؤلفات الضخمة الكثيرة التى ذكرنا منها ما استطعنا الوقوف عليه ، وهكذا قضى حياته منذ حداثة سنه الى أن وافاه الاجل سنة 27ه. يمراكش حيث دفن بباب ايلان بحى جنان بوسكرى على حد قول عدد كبير من المراكشيين الذين يعرفون الى اليوم مكان قبره ويذهب بعضهم الى زيارته (4)

شخصيسات مشتركة

نريد هنا التعرض لثالوث عظيم ، طبع البيئة المغربية بطابع خاص ، تجلت آثاره في الميادين السياسية والاجتماعية والثقافية ، ويتكون هذا الثالوث من عناصر قوية ، متينة الاسس ، متشابهة في كثير من معالمها ومظاهرها ، يتكون من اندلسي .

^{1]} احمد بابا ألسوداني : نيل الابتهاج بتكميل الديباج (طبعة مصر 1351) صفحة 143 .

²⁾ ابن حجر (الدرد الكامنة في اعيان المائة الثامنة) صفحة 73 .

³⁾ انظر ويتو ابن ألبناء العددى والصولى مجلة هيسبريس مجلد 25 سنة 1938 صفحة 242

⁴⁾ خالف مؤلف والسمادة الابدية في التعريف بمشاهير الحضرة الراكشية) (طبعة قاس 1336 صفحة 69) هذا الراي ويؤكد أن قبر أبن البناء مجهول رغم كون عدد كبير من أهل مراكش بمتقدون أنه لا زال موجودا بباب أيلان •

لسان الدين ابن الخطيب السلماني (713_776 هـ.) ومن تونسي ، عبد الرحمان ابن خلدون (732-808) ومن جزائري ، الخطيب ابن مرزوق (710-781) . هـؤلاء الثلاثة بل هؤلاء الاعلام كانوا كلهم أعظم وأبرز الشخصيات التي عرفها القرن الثامن الهجري ، بل لم يكن أعظم منهم وأقوى وأكثر ايجابية في ميدان العلم والسياسة ،وفي مبدان الاجتماع والثقافة ، لعبوا في هذه الميادين كلها دورا فعالا كان له تأثير على البيئة المغربية في عهد بني مرين ، فكانوا دهاة هذا العصر ، وأفذاذه ، وزعماءه ، وصناديده وعباقرته ، كانوا كذلك بغزارة علمهم ، وبتعدد أنواع معرفتهم ، وبقوة شخصيتهم ، وبذكائهم المفرط ، وبارادتهم الجبارة ، وبطبهم القوى ، وبسرعة تكيفهم مع الاحداث والظروف الاجتماعية والسياسية ، كما كانوا ، الى جانب ذلك ، من اصحاب الحيل والدسائس، والمغامرات، والمناورات، ميالين بطبعهم الى الظهور واكتساب النفوذ، يطمعون في الجاه والمال ، ولا يتورعون عن اتخاذ انواع شتى من الوسائل والحيل للتسلط على المناصب السامية ، والاستئثار بالزعامة ، ولو ادى بهم الامر الى ما ادى من تقلب ونفاق ، وتزلف واسفاف في بعض الاحيان . تعايشوا كلهم (أحيانا) في المغرب واتصلوا اتصالا مباشرا وغير مباشر برجاله ، وتلاقوا في بلاط بني مرين ، واحتك بعضهم ببعض ، فكانوا يتبادلون المساجلات والمراسلات ، متوادين احيانا ومتنافرين احيانا أخرى ، يسلكون تقريبا نفس السلوك من حيث السياسة ومن حيث الاخلاق ، ويتنافسون ويتسابقون نجو الزعامة الفكرية ، والرئاسة الزمنية ، فطبعوا الحياة المغربية بطابعهم ، وأثروا في سياستها قصد ا او عن غير قصد ، وكانت لهم مشاركة في نهضتها الادبية .

هؤلاء الاعلام ، ترجمتهم معروفة ، غنية عن البيان ، موجودة في المصادر العربية وغير العربية ، اذ كان ، وما زال ، صيتهم بعيد المدى ، وشهرتهم واسعة الانتشار بحيث تعدت حدود المغرب والمشرق الى دول أخرى أجنبية ، أوروبية وأمريكية وغيرها من بلدان العالم . تصدت لهم الاقلام في كل زمن وفي كل مكان ، فتحدثت عنهم في الصحف والمجلات ، وخلدت آثارهم في امهات الكتب كما عقدت ، ولا تزال تعقد المؤتمرات لدراسة شخصيتهم المتعددة الجوانب ، ومؤلفاتهم القيمة الوافرة العدد .

لذلك لن نتعرض لهم ، فيما يرجع لهذه الناحية ، الا بشيء من الايجاز لان موضوعنا لا يتسبع لاكثر مما له ارتباط بالحدود التي رسمناها له ، وهي البيئة المغربية كما عرفها التاريخ في زمن بني مرين ، تلك البيئة التي فتحت ابوابها لهذه الشخصيات (I) التي نحن بصددها ، فاستظلوا بظلالها ، ونعموا بخيراتها ، وتقلبوا في مناصبها السامية ، وحظوا لدى ملوكها بمنزلة عالية ، واتصلوا بكسار رجالها ، وعلمائها ، ومثقفيها ، وأدبائها وشعرائها واحتكوا بهم احتكاكا اثر فيهم ، فقاموا بردود فعل نفسية وفكرية .

I) ولنسسير ها .

ورافع وطاله فإسماعه والمراء ف الاماة العادة الاجتالات الثاليم التاسي حين الت المسرورة مالم النجم و واشعره عا ومعرمة الموامر حم ج والبح والنب والزيو والذي (وطائلا على مدنا ومؤالا ي رَمُولُ مِنْ عَلَيْهِ وَالْعَمْرُ 0 مَعِدًا } العروال م " وا(ماعة الدوالمدائد رأمت خعا بوفظم واللنبرة ما فاحراله المزر ويعاف النزمع الى مره و المسري طرااعنا ع لنافري بقاياتها في من بعد النعاط الماما و معلى الأدمان والأراء فاد فيه العمل الماء ومراد الالفوم الماجمير إفاد كالفاق و في المام والكامام عالمال الا والمكارا في عاما حام وزالات على الك تدارا عيرم أمراه والمعالفة إماراكم الممراه

الصفحة الاولى من كتاب الوصول لحفظ الصحة في الفصول ، ابن الخطيب السلماني مخطوط الخزانة العامة رقم 85 .

فهم اذن مدينون لهذه البيئة ماديا ومعنويا وفكريا ، وهذه الناحية الاخيرة هي التي تهمنا الآن .

ابسن الخطيب

ولد ابن الخطيب ، كما هو معلوم ، ببلاد الاندلس ، بمدينة لوشة سنسة 733 هـ. وتلقى دراسته بغرناطة ، فظهرت عليه منذ حداثة سنه معالم النبوغ والذكاء الشيء الذي جعله يقبل على علوم شتى ، نقلية وعقلية ، درسها كلها وتفوق فيها تفوق الامام الاستاذ . فكان فقيها ، واديبا ، وشاعرا ، وفيلسوفا ، وطبيباً ومؤرخا ، ومتصوفا ، ووزيرا لبنى الاحمر في مملكة غرناطة .

بهذا المحصول العلمى الوافر ، وبهذا الوزن الثقيل ، انتقل ابس الخطيب للمرة الاولى الى المغرب كسفير اوقده السلطان يوسف ابن الاحمر سنة 748 هـ. على ابى عنان المرينى لتقديم تعازيه اليه اثر وفاة ابيه ابى الحسن . وفى سنة 755 هـ جاء الى المغرب بنفس الصفة مبعوثا من قبل محمد بن يوسف الفنى بالله ، الذى كان فى حاجة ماسة الى عون بنى مرين . فاستنجد بهم بواسطة سفيره ابن الخطيب ، فتحقق الفرض المنشود ، واستجاب ابو عنان لطلب ابن الاحمر ، ورجع السفير مظفرا ، معزز الجانب لانه نجح فى مهمته .

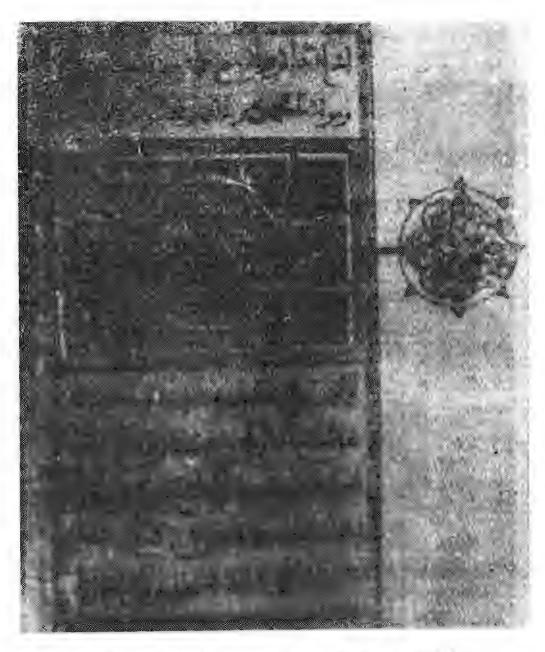
الا ان الظروف سرعان ما تغيرت ، فانقلبت الاحوال على سفيرنا ، واضطى لمغادرة بلاده سنة 16/ه ووفد على المغرب هو وسلطانه المخلوع محمد الفنى بالله . فوجدا في ابي سألم المريني خير نصير واكبر مواسى . فاستقبلهما استقبالا خاصا، ووفر لهما ما كانا في حاجة اليه . فانتهز ابن الخطيب اللاجيء هذه الفرصة ورمى بنفسه في احضان البيئة المغربية ، يتنقل بسين مدنها وقسراها ، متصلا بكبار شخصياتها ، جاعلا من نفسه في بعض الاحيان رجلا متواضعا ، ناسكا ، قاصدا الاولياء وذوى الكرامات ، وفي أحيان اخرى شخصا حاقدا ، ناقما ، يصب جسلم غضبه على الاشخاص والاشياء ، فكان تجاوبه في هذه الفترة التي استغرقت ثلاث سنوات) مع البيئة المغربية تجاوبا متكاملا ، سجل صداه هو نفسه فيما حرره من رسائل وما ألفه من كتب أثناء اقامته منفيا بالمغرب .

ومن المغيد أن نتعرف على هذا الانتاج الذي خلفه ابن الخطيب والذي كان في الواقع ، ثمرة تفاعله مع البيئة المغربية المادية والاجتماعية .

من مؤلفاته التى كتبها فى هذه المدة التى قضاها منفيا بالمغرب كتاب فى الطب سماه : دعمل من طب لمن حب، توجد منه نسخة محفوظة بخزانة القرويين تحت رقم 3657 . وقفنا عليها بهذه الخزانة واطلعنا على محتوياتها ، فوجدناها مفيدة للغاية بما تضمنته من معلومات طبية ، وقواعد صحية ، وطرق العلاج والوقاية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصفحة الاولى من «الاعلام فيمن يويع قبل الاحتلام» لسنان الدين ابن الخطيب مخطوط الخزانة العامة رقم د 1552 .



الصفحة الاول من «معيار الاختيار في ذكر العاهـد والديار» لابـن الخطيب السلماني مخطوط الخزانة العامة رقم 1092 .

المختلفة . تحمل فى أول صفحة منها هذه الديباجة : دالحمد لله الذى خلق الانسان من نطفة امشاجه يذكر فيها ابن الخطيب ، بعد مدح طويل للسلطان ابى سالهم المريني ، انه لم يو فى خدمته احسن من الطب والكتاب يتضمن جزأين : الجرة الاول خاص بتعديد ووصف الامراض من الرأس الى القدم ، والثانى يعدد الامراض التى تعترى الجسم كله . اما اسلوبه فى طريقة العرض فهو واضح ، وان كان فيه اطناب وشرح طويل يبعث فى بعض الاحيان على الملل والرجوع الى القواعد الاساسية لتتبع انواع العلاج والوقاية . الا ان الطريقة المتبعة فى عرض المرض وشرحه وبيان طرق علاجه تعوض هذا النقص نظرا لانطباعها بطابع منطقى وطبيعى فى نفس الوقت. ثم يشرح علاماته والاوجاع التى تنتج عنه ، ثم يذكر انواع العلاج ، ثم ياتى اخيرا بالادوية المناسبة ، ويحللها ويذكر مكان وجودها . وينصح ابسن الخطيب باتباع بالادوية المناسبة ، ويحللها ويذكر مكان وجودها . وينصح ابسن الخطيب باتباع المين بمرض وبها تعذر علاجه . والواقع ان هذا الكتاب مفيد جدا لما تضمنه من معلومات نظرية وقواعد عملية من المسهسل تطبيقها على بعض الامراض تضمنه من معلومات نظرية وقواعد عملية من المسهسل تطبيقها على بعض الامراض دالبسيطة، دمعيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار» .

هذا كتاب آخر ألفه ابن الخطيب عند ما كان منفيا بالمغرب . توجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط عثرنا عليها وتصفحناها ورقة ورقة ، فوجدناها مكتوبة بخط مغربي جميل مذهب ، تحمل رقم د 1092 ، لا تتعدى صفحاتها وعجدناها مكتوبة بخط مغربي جميل مذهب ، تحمل رقم د 1092 ، لا تتعدى صفحاتها معجمه صفحة 1591 واعتنى الاستاذ مولير بنشر نبذة منه في مونيخ سنة 1866 . وأخيرا نشره الدكتور احمد مختار العبادي بالقاهرة سنة 1958 تحت عنوان : و مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس ، نشر كلية الآداب، مطبعة جامعة الاسكندرية . وهذا الكتاب يتضمن بالإضافة الى «معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار» رحلات أخرى قام بها ابن الخطيب في المغرب وفي الاندلس .

اما موضوع الكتاب فهو عبارة عن مقامات وضعت على لسان مدن الاندلس والمغرب ، كما يتضمن بعض التراجم الاندلسية ، وفيما يرجع للمغرب تحدث ابن الخطيب فيه عن فاس بكثرة ثم عن تازة ثم مكناس . ثم مراكش ثم اغمات وسجلماسة الى غيرها من المراكز المغربية الرئيسية في عصره .

أما الاسلوب فهو كله سبجع . فيه كثير من التكلف والتصنع اللفظى الذي يغطى في بعض الاحيان على ما يرمى اليه المؤلف من مقاصد ومعلومات جغرافية .

وهذه صورة عنه ، اقتبسناها من الديباجة : «الحمد لله الذي انفردت صفاته بالاشتمال على اشتات الكمال ، والاستقلال باعباء الجلال ، المنزه عن اختلال الاخلال، المعتمد بالسؤال لصلة النوال ، جاعل الارض كسكانها متغايرة الاحوال ، باختلاف العروض والاطوال » .

« مشلى الطريقة في ذم الوثيقة »

لقد سبق ان تحدثنا في غير هذا الموضوع عن تنقلات ابن الخطيب ومقامه بفاس وبسلا وباحتكاكه فيهما بكثير من الشخصيات ، كما سبق ان تعرضنا للنزاع الذي وقع بينه وبين ابي العباس القباب . والسبب بسيط هو ان هذا الاخير لم يلب الدعوة التي وجهها له ابن الخطيب فقام هذا الاخير وقعد وصنف رسالية تحت العنوان المذكور ، تناول أبا العباس ومن كان يحترف حرفته بكثير من النقد ، والستم ، والوصف السنيع . فصب ثورته الانفعالية وجام غضبه في قالب سماه دمثلي الطريقة في ذم الوثيقة ، وأسلوبه فيها اسلوب ساخر لا يخلو من تعقيد وتحديف وتشويه للحقيقة والواقع ، وليس الامر بغريب ما دمنا نعرف أنه كان منساقا وراء عاطفته الثائرة ، فلم يكن ينتظر منه سوى ما قال وسوى ما صاغه في هذه الرسالة من قنف وشتم . ولقد حطت هذه الرسالة الواضحة بسمعته وأبانت عن سريرته ، وكشفت النقاب عما كان يكنه لبعض علماء المغرب .

ولابن الخطيب مؤلفات أخرى غير هذه ، ولكننا ، مراعاة لمجال الموضوع ، موجودمنه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تجمل رقم د 1552 . وهو مؤلف ضخم يقع في 267 ورقة كتبه (I) ابن الخطيب وهو منفى بالمغرب للمرة الثانية اثر وفاة السلطان المريني عبد العزيز وتولية ابي بكر بن غازى الوزير لولده سعيد ، ونتيجة للضجة التي ثارت حول هذا الطفل ، قام ابن الخطيب فألف هذا الكتاب تبريرا للموقف ، وتقربا من الوزير صاحب السلطة المطلقة . فكان هذا الكتاب بمثابة فتوى مستمدة من التاريخ الاسلامي الذي سجل في ثنايا صفحاته كثيرا من الاحداث المماثلة التي وقعت في مختلف الممالك الاسلامية والتي تبرر ما وقع في المغرب بمناسبة تنصيب طفل كملك للبلاد . فاختار ابن الخطيب من التاريخ الاسلامي كثيرا من الحجج قدمها بمهارة ودهاء دفاعا عن الوزير أبي بكر ولاقناع خصومه الشائرين .

ولابن الخطيب مؤلفات أخرى غير هذه ، ولكننا ، مراعاة لمجال الموضوع . اكتفينا بهذه الامثلة التى سردناها ، وهى كلها تتصل بالبيئة المغربية اتصالا مباشرا اذ انها تستمد مادتها الخام منها وتعكس مظاهر التفاعل الذى تم بين ابن الخطيب وهذه البيئة التى آوته واحتضنته برعايتها الى أن وافاه الاجل المحتدوم فلفظ نفسه الاخير بها فشاء القدر ان تحتضنه مرة أخرى لكن تحت ترابها .

انشر ليغى برونسال القسم الخاص بالشرق والاندلس الرباط 1932 ونشر الاستاذان ابراهيم الكتانى والمختار عبادى ألقسم الخاص بافريقيا والمغرب الرباط 1964 .

ابن خلدون

ولد أبو زيد ولى الدين عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون بتونس سنة 32ه وهو كما اشرنا الى ذلك ، من الشخصيات الثلاث التى كان لها دور فعال وسلوك خاص في هذا العهد الذي نؤرخ له ، فلا حلجة بنا اذن الى التعريف به والتحدث عن شهرته الكبيرة وعواملها المختلفة . ما دمنا قد تعرضنا لذلك في بداية هذا الفصل والتزمنا بترك هذا الجانب الذي طرقه عدد كبير من المؤرخين والادباء والمفكرين لنهتم بالخصوص بما له صلة بموضوعنا .

قالذى يهمنا هنا اذن هو ان ابن خلدون استكمل نشأته ودراسته بالمغرب ، وتقلب فى عدة مناصب سامية فى هذه البيئة كما كان له فيها سلوك خاص ، تبجل فى المناورات السياسية التى كان يحيكها ليل نهار ، والمغامرات والدسائس التى كان يقوم بها استغلالا للنفوذ ، وتقربا من أولى الامر فى الدولة ، لا يهمه فى ذلك أن يخالف القوانين أو يراعيها ، هدفه الوحيد هو الوصول الى الغرض المنشود ، مهما كانت الوسائل .

والقصة معروفة فى عدد كبير من المصادر التى تعرضت له ، بل نجدها عنده ، يحكيها بنفسه ، بكل صراحة فى كتابه : «التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا» (I)

نشأ نشأته الاولى بتونس كما ولد بها ، فتلقى دراسته الاولى على كبار علمائها الى ان بلغ سنه الثامنة عشرة حيث اصبح يشعر بحيل الى خوض شؤون الدنيا وغمار السياسة ، فكلف من طرف الوزير ابن تافكرين لاول مرة بوظيفة سامية ، هى كتابة العلامة . لكن الاحداث الاجتماعية والاضطرابات السياسية التي كانت تعصف بالمغرب (الادني والاوسط ، والاقصى) وحب المفامرة والظهور، والانسياق وراء الاهواء والشهوات ، كل ذلك دفع بصاحبنا الى التنقل وتتبع اذيال الرياسة والجاه ، وتحسس الاماكن الخصبة الى ان صادف السلطان أبا عنان المريني ، وهو يومئذ يقوم بالحملات المتتالية لاخضاع الطغاة والخارجين عن سلطته بالمغربين الادني والاوسط ، فاستغلها ابن خلدون فرصة ثمينة ، وتقرب من الطرق والوسائل ، فنال منه ميتغاه ، واستقدمه الى عاصمته فاس سنة 555 ه حيث آسند اليه مهمة علمية سامية ، وهي عضوية المجلس العلمي بفاس ، وهكذا اخذ

¹⁾ نشر محمد بن جاویت الطنجی القاهرة 1951 •

يباشر هذه المهمة بكل جدارة واستحقاق ، مبرهنا عن اخلاصه في عمله ، عاملا على اثارة انتباه مخدومه اليه كي يطلع بنفسه على هذه المقدرة وعلى هذه الكفاءة ، فتحقق ابو عنان من ذلك ، وقربه اليه مرة اخرى ، ورفع من مكانته حتى اصبه بعد انصرام سنة واحدة من كتابه واصحاب علامته . وفي هذه الاثناء لم ينصرف ابن خلدون عن الدراسة والتحصيل ، لماني ذلك من وسائل الضغط والظهــور والبروز ، لا سيما في هذا العهد الذي كثر فيه الفقهاء والعلماء ، واصبح التنافس شديدا بينهم والتسابق حادا نحو الاستئثار بمناصب الدولة وبنفوذها . فبدا ابن خلدون يتصبل بكبار فقهاء عصره كي يستكمل دراسته التي بدأها بتونس فاخذ عن عدد كبير من علماء المغرب وغيره الى أن شعر باستعداد نفسه ، وقوة ادراكه ، وتفتح ذهنه ، وتمكنه من اللغة والادب والفقه وعلوم اخرى برهن عن تضلعه فيها حينما الف كتابه الضخم في التاريخ ولا سيما منه المقدمة . وما أن تمكن من نفسه وتحقق من كفاءته حتى اصبح يدافع المغامرة والطموح المفرط يبحث عن منافذ اخرى علها تبوئه مكانة اعلى وجاها اقوى . وهكذا بدأ يحيك المؤامرات ، ويدبـــر الدسائس ضد مخدومه ابي عنان . وكان شريكه في هذه المرة هو الامير ابو عبد الله محمد الحفصى ، صاحب بجاية المخلوع ، الذي أسره بفاس أبو عنان نفسه . فكانت الغاية هي تحرير هذا الامير كي يسترجع ملكه ويثبت محرره ابن خلدون بتوليه وزارة او حجابة . لكن المؤامرة المدبرة لم تنجح ، فاحبطها ابو عنان فـــــى مهدها واسر ابن خلدون بمجرد ما بلغه الخبر ، وبقى هذا الاخير سبجينا ما يقرب من سنتين قضاها كلها في البكاء والاستعطاف ، والتضرع والتوسل ، ولم تفده تلك الاستعطافات ولا تلك القصائد التي نظمها في مدح ابي عنان كي يخلصه من هذا السجن ، ذلك ان ابا عنان وافاه الاجل المحتوم ، وترك اسيره في السجين منتظرا ظروفا اخرى علها تكون السبب في انقاذه .

1) ابن خلدون بعد وفاة ابي عنسان

مات أبو عنان وابن خلدون في سجنه ، وكان من المنتظر أن يخلفه ابنه وولى عهده محمد أبو زيان ، لكنه ذهب ضحية أحد الوزراء المستبدين بأمور الدولة ، الحسن بن عمر الفودودي الذي كان آنذاك مسيطرا على شؤون المخزن ومحجرا على الملوك والامراء ، فأقصاه وقتله ، ثم عين مكانه طفلا من اطفال أبي عنان ، هو أبو بكر السعيد البالغ من العمر 10 سنين . والمهم ، بالنسبة لابن خلدون ، هو أنه اطلق سراحه على يد هذا الوزير المستبد واسترجع مكانته وسابق وظائفه .

لكن الامور لم تدم طويلا نظرا لعدم استقرار الامن وكثرة الخلافات والثورات الناشئة هنا وهناك ، اذ في هذا الوقت بالضبط قام احد احفاد يعقوب بن عبد

الحق ، منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق (I) وثار ضد الحسن بن عمر وانتزع من يده السلطة وما كاد يبدأ في مباشرة مهامه حتى انضم اليه ابن خلدون غادرا بالوزير كما غدر بابي عنان وغيره ، فعينه منصور كاتبا له .

2) ابن خلدون والسلطان ابو سالم ابن ابى الحسن المريني

هل استقر ابن خلدون ، واخذ العبرة من هذه الاحداث والتقلبات ورجع الى نفسه كي يقوم من اعوجاجها ، ويسلك سلوكا يتصف بالمروءة وبالاخلاق الحميدة ؟ كلا ؛ لقد تمادى في سلوكه ، متحينا الفرص ، مستغلا جميع الظروف والمناسبات كي يصعد ويسمو على حسباب الغير . ذلك أنه عاد إلى التاسمر مرة أخرى ضد السلطة القائمة لتأكده من سرعة زوالها ، وكان شريكه في هذه المرة الثانية الخطيب ابن مرزوق . تحكي المصادر التاريخية عن هذا الاخير انه اتصل بابن خلدون بصفة سرية مسلما اياه رسالة خاصة من أبي سالم بن أبي الحسن المريني يناشده فيها بتحريض الشعب على منصور واقامة ثوره ضده كي يحتل عرش أخيه أبي عنان . فكان الامر كذلك ، واستجاب ابن خلدون لهذا المطلب الذي يرى في تحقيقه تحقيقا لبعض مقاصده . فعمل بكل جد واخلاص مستعملا جميع قواه وحيله لانجاح المؤامرة، فنجحت بالفعل ، واستقر الامر ، بعد نشوب اضطرابات ، لابي سالم الذي جلس على عرش اخيه فعين ابن خلدون كاتب السر والانشاء والمراسيم السلطانية ، ثم ولاه خطة القضاء بعد ذلك ، وظل يستغل هذه الوظائف السامية ما يقرب من سنتين، اى الى آخر سنة 762 هـ وهي السنة التي ثار فيها الشعب على ابى سالم المريني الذي قتل سنة 762ه . وكان قائد الثورة في هذه الظروف المضطربة الوزير عمسر ابن عبد الله .

آ) الظر الناصرى ، الاستقصاح : 4 صفحة 5 اما مؤرخ الدولة المرينية ابو الوليد أسماعيل ابن الاحمر ، صاحب «روضة النسرين فى دولة بنى مرين» فقد ضرب صفحا عن اسمه ولم يشر اليه ولو باشارة خفيفة ، ولمل ألسبب فى ذلك أن منصور هذا لم يستقر نهائيا فى ملكه لذلك لم يتعرض لترجمته .

ابن خلدون والسلطان تاشفین والوزیر عمر بن عبد الله صاحب السلطة الطلقة

سعى الوزير عمر بن عبد الله فى قتل السلطان ، فنجح مسعاه ، ونصب ملكا على البلاد أبا عمر تاشفين المرينى الذى لم يتجاوز عهده ثلائة أشهر ويومين(I) . لم يتردد ابن خلدون ولو ساعة فى الانضمام الى صاحب السلطة الوزير عمر بن عبد الله الذى وأقره فى وظائفه وزاد فى اقطاعه لرزقه (2) . لكن طموحه كان فسوق هذا ، اذ كان يطمح فى مناصب اعلى كما عبر عن ذلك بنفسه حيث قال : «كنت اسمو بطفيان الشباب الى أرفع مما كنت فيه »(3) .

لم ترضه هذه الوظائف رغم سموها ، وقوة نفوذها ، فقدم استقالته وطلب من مخدومه الاذن بمغادرة البلاد ، فحصل على الاذن المطلوب بعد أخذ ورد وتضرع ، وتوسل ، وبشرط ان لا يذهب الى تلمسان . فغادر المغرب سنة 763 هـ. بعد ما نعم بخيراته وتقلب في مناصبه السامية ، لكن دافع الغرور المتمكن من نفسه ، وحب الزعامة والرياسة المسيطر على وجدانه ساقاه الى بيئة اخرى ، الاندلس ، عله يظفر فيها بما كانت تصبو اليهنفسه .

وهكذا نرى الى اى حد تاثر ابن خلدون بالبيئة المغربية كما تاثرت به . لقد لعب فيها دورا رئيسيا من الناحية السياسية والاجتماعية ومن الناحية الفكرية والثقافية . الم تكن هذه الاحداث المتقلبة التى عاشها فى هذه البيئة ، الم تكسن هذه التاثيرات المادية والاجتماعية والمعنوية عاملا من عوامل تكييفه وتكوينه . لقسد مكنته هذه الظروف من اكتساب خبرة واسعة ، وتجربة كبيرة ، وثقافة غزيرة . ففضل البيئة المغربية عليه حقيقة تاريخية لا يمكن التغافل عنها . وكنتيجة حتمية لذلك ، فهو مدين ـ الى حد ما ـ باثاره القيمة الخالدة لهذه البيئة التى عاش فسي أحضانها مدة حافلة بالاحداث والوقائم الاجتماعية الخطيرة .

فالى اى حد كان تأثير هذه البيئة متجليا في انتاج ابن خلدون ؟

اهم ما ترك لنا ابن خلدون هو كتابه الضخم القيم الذى يعرف الكل : « كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ، يمكننا أن نقسمه من حيث أهميت الى ثلاثة أقسام رئيسية :

²⁾ الدكتور عبد الواحد وافي ، ابن خلدون (مصر ، مكتبة النهضة) صفحة 30 .

³⁾ التعربسة ص 88 .

- I) المقدمة
- 2) القسم المخصص للتاريخ
- 3) القسم المتعلق بترجمة ابن خلدون نفسه وهو والتعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا » .

أما المقدمة فشهرتها لا تخفّى ، وهى التى خلدت ذكر صاحبها على مر الازمان والاجيال ، وهى التى برهنت على غزارة علمه وقوة ادراكه ، ودقة مسلاحظاته وتوقد ذكائه ، وبذلك كانت له الزعامة الفكرية فى عصره اذ اتى بشيء جديد فى ميدان العلم والمعرفة ، ذلك انه التهس علما جديدا سمى فيما بعد بعلم الاجتماع. وكفى ابن خلدون فخوا هذا المجهود الذى وضعه فى مقدمة مفكرى الاسلام بل فى مقدمة رواد الفكر فى العالم اجمع .

على أن المهم بالنسبة لموضوعنا هو ان ابن خلدون فى هذه المقدمة استقى معلوماته وحججه وادلته من البيئة المغربية التى عاش فيها ، وسواء كان يتحدث عن البيئة المادية أو عن مظاهرها الاجتماعية فحديثه هذا يكاد يكون مقصورا على هذه البيئة وما تضمنته من امكانبات بشرية ومادية ، وما دار فيها من احداث وفت نكانت مسرحا لها ، وهذه الظاهرة هي التى جعلت النقاد ياخذون عليه هذا الاقتصار وهذه النظرة الضيقة التى جعلته يعجم احكامه بدون ان ينظر ، فيما يرجع للظواهر الاجتماعية ، الى البيئات الاخرى التى كانت تجاور المغرب او التى كانت بعيدة عنه . فالاحكام ، اذا كانت موضوعية ، تصدر عن فكر استطاع ان ينظر الى الاشياء والاشخاص نظرة عامة شاملة لان القوانين التى يخضع لها كل علم يجب ان تتصف باللدقة والشحولية قبل كل شيء . ذلك ان علم الاجتماع من العلوم الوضعية لا من العلوم المعيارية النسبية .

وعلى كل ، فتأثير البيئة المغربية في هذا القسم من انتاج ابن خلدون تأثير واضح لا يحتاج الى ادلة كثيرة ، فما على الباحث الا أن يتصفح المقلمة ليتبين هذه الظاهرة ، عليه ان يقرأ مثلا الفصبول التى عقدها ابن خلدون عن العلوم والمناهج والاساليب التربوية .

فابن خلدون حتى فى الجزئيات ياتى بأمثلة مستمدة من بيئة المغرب ، وهكذا مثلا عند ما عرض للتماليم لم يفته ان اشار الى ابن البناء المراكشى ، بل على عليه ونوه كثيرا بثقافته وبذكائه وبانتاجه وهو التلخيص فى اعمال الحساب الذى وقف عليه ابن خلدون نفسه .

واذا تركنا جانبا المقدمة والقينا نظرة على ما كتبه ابن خلدون فى التساريخ وجدناه يخصص اكبر قسط منه للتحدث عن البربر واصلهم وبطولتهم المتشعبة ، وما قاموا به من ادوار وما اتصفوا به من بطولة فى المغرب . ولقد تناول على الخصوص فى هذا القسم الثانى الذى هو الكتاب الثانى من مؤلفه الضخم (أو المجلدان

السادس والسابع اذا اعتبرنا المجلدان السبعة التى ضمنها تاريخه كله) قبائل صنهاجة ثم المصامدة وأخيرا زناتة التى افاض فيها القول واطنب ، واتى بكل تفصيل وجزئية لا سيما فيما يرجع لبنى مرين . فلماذا اذن هذه العناية الخاصة التى أولاها لزناتة ولبنى مرين منهم على الخصوص ؟ ان المجلد السابع كله خاص بهذه القبائل الاخيرة التى صرف فى التحدث عنها مجهودا كبيرا . أيعتبر هذا تحيزا منه أو تملقا لدولة بنى مرين القائمة فى عهده ، والتى نال على يدها حظا كبيرا من الجاه والمال والنفوذ ؟ ليس ذلك من المستبعد ولا من الغريب فى شىء اذا تذكرنا اخلاق ابسن خلدون ومواقفه المتقلبة التى وقفها من أمراء وملوك هذه الدولة حينما كان يشغل ببلاطهم المناصب السامية .

وعلى كل ، « فالقسم الخاص بتاريخ البربر من كتاب العبر هو بعد المقدمة انفس اقسامه ، واوفرها طرافة ، واقواها عرضا وتحقيقا ، وفيه من الروايات والحقائق الغريبة عن احوال تلك الامم والقبائل البربرية ، ما لم يوفق اليه اى مؤرخ قبل ابن خلدون او بعده » (1)

واذا كان ابن خلدون ، فى بداية كتابة تاريخه ، قصد الكلام عن القطر المغربى بمعناه الواسع كما صرح بذلك هو نفسه فى مقدمته (2) فان كلامه هذا يكاد يكون مقصورا على بيئة المغرب الاقصى بالضبط.

أما فيما يرجع وللتعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، فهو سجل لهذه الاحداث التي عاشها ابن خلدون في المغرب في ظل بني مرين ، تحدث فيه عسن المناصب التي شغلها ، والمؤامرات التي قام بها ، والدسائس التي حبكها في ميدان السياسة والطرق التي سلكها لتحقيق أغراضه الشخصية ، والعلاقات التي كانت تربطه بالملوك والامراء وبعض الشخصيات التي كانت تتعاون معه في المناورات التي كان يدبرها . بل نراه في هذا والتعريف، يتحدث حتى عن ثقافته الادبية ، وأسلوبه الانشائي والطرق التي أصبح يسلكها في صياغة الرسائل وقرض الشعر . ولا بأس بايراد ما قاله في هذا الموضوع : ووكان اكثر الرسائل يصدر عني بالكلام وخفاه العالى منها على اكثر الناس ، بخلاف المرسل . فانفردت به يومئذ ، وكان المرسل ، فانفردت به يومئذ ، وكان وخفاه العالى منها على اكثر الناس ، بخلاف المرسل . فانفردت به يومئذ ، وكان ونجد في التعريف ايضا قصائد شعرية ، منها القصيدة التي نظمها بمناسبة حلول عيد المولد النبوى ورفعها الى السلطان ابي سائم المريني الذي عينه كاتب السروالانشاء . نقتطف منها هذه الابيات :

^{. 139} محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون (الطبعة الثانية القاهرة 1953) صفحة $^{\mathrm{I}}$

²⁾ أنظر القدمة صفحية 28 .

³ ابن خلدون ، التعريف ، صفحة 88 .

اسرفن فی هجری وفی تعذیبی وابین یوم البین موقف ساعة لله عهد الطاعنین غدادروا غربت رکائبهم ودمعی سافسے

واطلن موقف عبرتی ونحیبی لوداع مشغوف الفؤاد کئیب قلبی رهین صبابة ووجیب فشرقت بعدهم بماء قروب(I)

الى غير ذلك من القصائد التي نظمها في مناسبات شبتي والتي لا يتسع لها المجال هنا نظرا لوحدة الموضوع.

وبعد ، ذلك هو ابن خلدون فى البيئة المغربية ، وتلـــك آثارها فيه وفى انتاجه الضخم الذى ظل رغم مرور قرون طويلة المرجع الاساسى فـــى كثير من الابحاث التاريخية والعلمية والفلسفية والاجتماعية بل وحتى الاقتصادية .

فهو كما قلنا مدين لهذه البيئة وهى مدينة له . اخذ منها واعطى ، وبذلك كمل التفاعل بينهما وانسجم ، وبذلك ازدهرت العليوم في عصر بني ميرين ورقى مستواها .

ابسن مسسرزوق

ننتقل الى الشخصية الثالثة المكونة للثالوث الذى أشرنا اليه فى مقدمة هذا الحديث، وهى شخصية الخطيب ابن مرزوق الذى عاش فى كنف الدولة المرينية، وتقلب هو الآخر فى وظائفها السامية، ولعب دورا فى حياتها السياسية وشؤونها الثقافية. فكان مصيره تقريبا مصير معاصريه ابن الخطيب وابن خلدون ؛ لان ما عرف به من أخلاق غير مستقيمة، ومن دسائس ومناورات سياسية، وما عرف به من كفاءة فكرية وأدبية ونفوذ معنوى ، كل ذلك جعله يضاهى هاتين الشخصيتين المتقدمتين ويرقى الى مصافهما.

ونظرا لتعدد افراد أسرة ابن مرزوق الشهيرة بالعلم والمعرفة ، والخير والفضل نرى ضروريا هنا أن نعرض بعض الشيء لصاحبنا ، رفعا للالتباس ، وتمييزا له عن غيره ممن ينتسب الى ابن مرزوق . ذلك أن هؤلاء الافراد كانوا ، كما قلنا ، كلهم علماء فقهاء ، تركوا صيتا ذاع فى المشرق وفى المغرب . ومؤلفات نفيسة خلدت شهرتهم الى الآن . هناك العم ، وهناك الجد ، والاب والابناء ، والاحفاد ، وحفدة الاحفاد ، كلهم رجال خير وعلم . اشتهر من بينهم على الخصوص ابن مرزوق الكفيف ، وابن مرزوق الخفيب الذى يهم موضوعنا نظرا للصلة التى كانت تربطه بالبيئة المغربية فى زمن بنى مرين .

¹⁾ وجمنا في نقل هذه الإبيات الى محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون صفحة 32 .

ترجم له ابن خلدون فى العبر ، وابن الخطيب فى الاحاطة ، وابن حجر العسمقلانى فى الدر ، ثم تعرض له بتفصيل المقرى فى نفح الطيب حيث خصص لترجمته الكافية ما يزيد على 22 صفحة(1) أتى فيها باخباره وقصائد شعرية نظمها بغرناطة وبالمغرب أيضا . وقد نقل المقرى بالحرف ما جاء فى كلام ابن الخطيب وما آورده ابن خلدون فى نفس الموضوع ، مع الاشارة الى بعض الفروق التى لاحظها فيما يرجع لتاريخ وفاته وبعض الاحداث التى ميزت حياته .

وعلى كل ، فمترجمنا هو الخطيب أبو عبد الله محمد بن احمد ابن محمد بن محمد ابن أبى بكر بن مرزوق الملقب بشمس الدين . ولد بتلمسان سنة ١٥٥٥ ونشأ بها الى أن رافق أباه الى المشرق حيث أدى هذا الإخير فريضة الحج وبقى معتكفا هناك . أما الابن فقد رجع الى المغرب بعد أن أخذ عن عدد كبير من علماء المشرق، وكان رجوعه الى وطنه سنة 733ه فعادف رجوعه هذا وجود السلطان أبى الحسن المريني الذي كان محاصرا لتلمسان . فاغتنم مترجمنا هذه الفرصة واستغلها لاغراضه الشخصية ، فتقرب من السلطان المريني الذي أولاه عطفه وتقديره نظرا لما كانت عليه أسرته من علم وثقافة ونبل ، فأسند اليه بعد وفاة عمه امامة المسجد الذي بناه بالعباد . فأخذ ابن مرزوق في كل مناسبة يمدح مخدومه ويشيد بذكره ، فزاده ذلك بناه تقربا من أبى الحسن ، وارتفعت مكانته لديه وحظى بكبير ثقته . فكانت النتيجة أن أصبح من ملازميه ومن خواصه الاقربين . فقام ابن مرزوق بمهامه هذه أحسن قيام ، وأخلص لرئيسه ايما اخلاص حيث رافقه في وقعة طريف وترأس السفارة الـتى تفاوضت مع ملك قشتالة الادفنس الحادي عشر لابرام معاهدة صلح . فوفق سفيرنا في مهمته .

ابن مرزوق بعد وفاة السلطان أبي الحسن

ولما توفى السلطان أبو الحسن المرينى قدم ابن مرزوق الى المغرب عله يسترجع لدى الملك الجديد ، أبى عنان، مقامه السابق ؛ لكن الظروف لم تكن مواتية، فقفل راجعا الى تلمسان حيث أقام بالعباد . الا أن الطموح السياسى وحب المغامرة والسيطرة على مناصب الدولة الرئيسية ، كل ذلك دفعه الى استغلال ظروف أخرى حيث اتصل ببنى عبد الواد وصار فى خدمتهم الى أن زجوا به فى السجن ، لخذلانه وتآمره على سلطانهم . فلبث فى السجن الى أن التحق بالعدوة الاندلسية حيث عين خطيبا بمسجد غرناطة الاعظم .

¹⁾ آنظر ج : 2 صفحة 309 ـ 333 .

ابن مرزوق في خدمة بني مرين مرة أخرى

نظرا للشهرة التى اكتسبها ، ولدهائه وثقافته الواسعة ، ومهارته فى خدمة الملوك ، استدعاه أبو عنان المرينى سنة 754ه بعد استرجاعه تلمسان وقربه منه ، حتى أصبح من خواصه ومن كبار أعضاء مجلسه . وبعد مدة بلغت أربع سنوات ، كلفه بمهمة شخصية عالية وهى الاتصال بالسلطان الحفصى أبى يحيى ليخطب منه ابنته التى كان أبو عنان يرغب فى التزوج بها . لكنه لم يوفق فى هذه المهمة الثمينة ، فرجع خائبا . وقد قيللابى عنان أن السبب فى هذا الفشل هو ابن مرزوق نفسه الذى قصر فى الامر ولم يستغل نفوذه ولا الوسائل التى كان فى استطاعته أن يستعملها لانجاح المهمة . فثار آبو عنان ثورة عاطفية لم يستطع معها أن يقبض على زمام أمره . فما كان منه الا أن قبض على السفير والقى به فى السجن عقابا له وانتقاما منه فمكث فيه مدة تقرب من سنتين أطلق صراحه بعد انصرامها .

ابن مرزوق في خدمة أبي سالم

ومع ذلك فابن مرزوق ، كعادته ، وكعادة معاصريه ابن خلدون وابن الخطيب لم يعتزل السياسة ، ولم يتعظ بهذه الاحداث التي نكبته وألحقت اضرارا خطيرة بجسمه . فعاود الكرة ، واستعمل حيله ونفوذه ودهاءه ، فتقرب من أبي سالم المريني بمجرد استيلائه على عرش أجداده ، فاسترجع سابق عهده وما كان له من نفوذ أيام أبي الحسن المريني لكن الاحداث السياسية والفتن الداخلية وتلاعب الوزراء بالسلطة واستبدادهم بشؤون الدولة ، كل ذلك عكر الجو الصافي الذي كان يعيش فيه ونغص واستبدادهم بشؤون الدولة ، كل ذلك عكر الجو الصافي السجن مرة أخرى . ذلك أن حياته وأصابه في الصميم حينما قبض عليه ورمى به في السجن مرة أخرى . ذلك أن «الوزير عبد الله استولى على الامر»(1) سنة 26م وخلع أبا سالم وسعى في قتله .

تلك هى الظروف التى عاشها ابن مرزوق فى المغرب وهى ، كما رأينا ، طروف خطيرة ومهمة فى نفس الوقت ، احتك فيها مترجمنا بالملوك ، والوزراء ، وكبار الدولة ، وشخصيات المغرب الثقافية التى كانت تعمل جنبا الى جنب معه فى البلاط المرينى بفاس . وتلك نبذة وجيزة عن حياته فى هذه البيئة ، تعمدنا فيها الاختصار واختيار ما له صلة بموضوع بحثنا . فابن مرزوق ، كما تجلى لنا فى هذه السطور ، شخصية عظيمة لعبت دورا ثقافيا مهما حيث شغلت فى المغرب مناصب سامية ، لم تكن تسند الا لمن برهن عن كفاءة ومقدرة علمية كبيرة كما لعبت ، الى جانب ذلك ، دورا خطيرا فى ميدان السياسة والادارة .

 ¹⁾ المقرى ، استنادا الى ابن خلدون انظر ص 320 - 324 .

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by renistered version)



الصقعة الاولى من «المسئد الصحيح في ما ثر مولانا ابي الحسن» للخطيب ابن مرزوق مخطوط الخزانة العامة رقم ق 111 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الصفحة الاخيرة من «المسند الصحيح في ما ّثر مولانا ابي الحسن» للعطيب ابن مرزوق مخطوط الخزانة العامة رقم ق 111 .

فمسا هسى آثبساره

ان شخصية كهذه لابد أن تترك ما يخلد ذكرها رغم اشتغالها بالسياسة وأمور الدنيا . ترك ابن مرزوق قصائد شعرية أوردها المقرى فى نفح الطيب مع تعليقات ابن الخطيب عليها(1) وهى قصائد كلها تنم عن ثقافة أدبية واسعة وشاعرية متغتقة . أما فى ميدان الفقه والحديث فقد خلف ابن مرزوق المؤلفات التالية : شرح على ابن حاجب الفرعى ، سماه «ازالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب» . شرح على العمدة فى خمسة أسفار والعمدة كتاب فى الحديث معروف ألفه الامام عبد الغنى المقدسي الحنبلي المتوفى سنة 203ه. وهذا الشرح نفيس جدا ويقع فى خمسة أسفار ؛ المقدسي الحنبلي المتوفى سنة 203ه. وهذا الشرح نفيس جدا ويقع فى خمسة أسفار ؛ مرزوق خلف لنا فى ميدان التاريخ المغربي مؤلفا قيما نادرا سماه : «المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا أبى الحسن» .

فمسا هو اذن «المستسد»

نلاحظ أولا أن نسخة خطية منه توجد الآن بقسم المخطاطات بالنزانة العامة بالرباط مسجلة تحت رقم III وقفنا عليها أثناء قيامنا بهذا البحث وتصفحناها فوجدناها من حيث الشكل مكتوبة بخط مغربي غير جميل (فيه كثير من أخطاء الرسم والنحو) يتطلب من القارئء عناية كبيرة وصبرا كافيا لاتمام قراءته . وهي النسخة الوحيدة الموجودة بالمغرب . ولا نظن أحدا نشرها لحد الآن حسب ما وقفنا عليه وحسب الاتصالات التي أجريناها مع المسؤولين وذوى الاختصاص ، كل ما عثرنا عليه في هذا الموضوع هو البحث الذي قام به ليفي بروفنسال حول ابن مرزوق في مجلة هيسبريس (المجلد الخامس سنة 1925) التي نشر بها الباب الذي خصصه ابن مرزوق من مؤلفه الضخم للحديث عن أبي الحسن المريني وذلك تحت عنوان : «منتخب جديد في تاريخ الدولة المرينية» .

يتضمن المسند زيادة على الديباجة خمسة وخمسين بابا كلها تدور جول أصل وتاريخ الدولة المرينية ، ورغم كون الكتاب ألف من أجل أبى الحسن كما يدل عليه عنوانه ، فأن المؤلف شمل دولة بنى مرين كلها بالعطف والتقدير وأثنى عليها بمزيد الاعجاب والاحترام ، واذا كان أبو الحسن المرينى هو المعنى بالامر وهو محور المحديث فأن ابن مرزوق خصص قسما كبيرا من مؤلفه هذا للحديث عن السلطان أبى يعقوب يوسف بينما لا يتناول أبا عنان وأبا سالم الا بشىء

¹⁾ أنظر صفحـة 314 .

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من الايجاز رغم كون الاول يعتبر من أعظم ملوك الدولة المرينية ومن أكثرهم ايجابية وفعالية في ميدان السياسة والاقتصاد والفنون ، فلماذا اذن لم يحظ أبو عنان بعناية ابن مرزوق كما حظى بها أبو الحسن وأبو يعقوب يوسف ؟ لماذا هذا التغاضي وهذا الاجحاف من ابن مرزوق ؟ لعل الجواب يكمن فيما لقيه ابن مرزوق على يد أبي عنان ، على الخصوص ، من تعذيب ومحن .

وهكذا لم يبرهن ابن مرزوق حتى في ميدان التفكير والتاريخ عن الاستقامة الضرورية والنزاهة التي يجب أن يتصف بها كل باحث ومدقق كي لا تشوء أحكامه ولا تحرف أقواله .

ومع ذلك وفالمسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، رغم ما اتصف به من تحيز سافر في بعض المواضيع ورغم التصاقه بالملوك والرؤساء ، وخلوم من معلومات اجتماعية تتناول الطبقات الشعبية وعلاقاتها بهؤلاء الملوك من حيث الاقتصاد والاجتماع ، رغم ذلك كله ، يعتبر من المصادر التاريخية التي لا يمكن الاستغناء عنها لاسيما فيما يرجع لهذا العهد الذي نؤرخ له

ذلك من حيث الموضوع ، أما من حيث الاسلوب فقد برهن ابن مرزوق فى هذا المؤلف عن مقدرة كبيرة فى التنظيم والتنسيق وربط الاحداث وحسن التخلص من باب الى باب . لا تعقيد فى ذلك ولا تكليف ، ولا صناعة لفظية طاغية على الافكار والمعانى كما هو الشأن بالنسبة لمعاصره ابن الخطيب . فقد جامت تراكيبه وجمله سهلة ، فى مجملها خالية من الزخرف والتنميق والسجع المقيت المتكلف . وذلك ما يناسب الموضوع الذى تناوله ، لان الامر يتعلق ببسط أفكاره وعرض حوادث ، معينة ، وشرحها ، وتبيين عواملها الظاهرة والخفية . فلا مجال اذن للعاطفة وجموح الخيال .

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثالث الحياة الادبية في عصر بني مريين

- 1 ــ النهضة الادبية الغنية
- 2 _ مكانة الشعر بالنسبة للنثر
- 3 _ النزعة الروحية في الادب المغربي
- 4 _ نتائج هذه النزعة بالنسبة للاغراض الاخرى
 - 5 _ فن الرحلة .

verted by 1111 Combine - (no stamps are applied by registered version)

هل كانت هناك نهضة أدبية فنية

ان الذين كتبوا عن هذا العصر ، سواء من الناحية التاريخية ، وذلك هو العالب ، أو من نواحي أخرى ، لم يقتهم أن أشاروا الى أن الغرب في عهد بني مرين عرف ازدهارا ملحوظاً بل هناك منهم من أكد أن هذا العصر امتاز على الخصوص بنهضة أدبية كبرى لم يسبق للمغرب أن عرفها من قبل ، أى في أي عصر من عصوره الزاهرة ، والدليل على ذلك في نظر هؤلاء هو بروز عدد كبير من الشخصيات العلمية أو الادبية ووجود انتاج فكرى ضخم ، ما كان للمغرب به عهد فيما مضى ؛ بل كثيرا ما وجدنا في هذه المصادر التي تتعرض لتاريخ المغرب في هذه الحقبة عبارات مثل •ارّدهار ثقافي، «ونشاط علمي» «وحركة فكرية» «ونبوغ أدبي» وغير ذلك من الاوصاف التي يقصد منها بيان الكم والفعالية ولا يستفاد منها ما يدل على التخصيص والتمييز . لذلك ترى مِن الضروري أن نقف هنا ولو قليلا للتعرف على نوع هذا النشاط وتحديد وجهة نظرنا فيه . وأول ملاحظة تواجهنا هنا هي ذلك الخلط الذي وقع في التعريف بهذا النشاط ، في تحديد أفقه وأبعاده ، فكانت النتيجة أن أصبح البعض يسميه مرة ازدهارا ثقافيا وأخرى نشاطا علمياء كما اعتبره البعض الآخر نهضة أدبية وازدهارا ثقافيا ، وهكذا أصبحت هذه الاوصاف كلها تطلق ، وبدون تمييز ، على كل انتاج أدبى أو تاريخي أو تأليف في الفقه أو الحديث أو التفسير . فأين نحن اذن من الادب وفنونه ؟ أين نحن من البلاغة والبيان ؟ أين نحن من المعاني والافكــار والمخيلــة والعاطفة والموسيقي ...؟ أيعتبر ذلك كله انتاجا أدبيا حتى ما دخل منه في باب الوعظ والارشاد ؟

ان السبب في هذا الخلط وهذا الابهام يرجع في نظرنا الى التطور الذي طرأ على الكلمات المستعملة للدلالة على هذا المعنى أو ذاك ، فبحكم هذا التطور تعنى هذه الكلمات أكثر أو أقل مما كانت تعنيه من قبل حسب الظروف والملابسات ، يتسع مدلولها أحيانا ثم يضيق أحيانا أخرى حتى لا تكاد تجد له استقرارا ، ومجالا حينا ، ونتبجة لذلك يقع الاختلاف بل الخلاف وبالتالى الغموض والالتباس . ولا أدل على ذلك، مثلا من كلمة ثقافة التي ظل مفهومها بين مد وجزر عبر العصور الى أن وصل ما عليه اليوم من شمول واحاطة ، بل ما زلنا الى اليوم نرى استعمالها يختلف من بيئة الى أخرى حسب الطقوس الدينية والمذاهب السياسية والمعتقدات الايديولوجية . ان أخرى حسب الطقوس الدينية والمذاهب السياسية والمعتقدات الايديولوجية . ان أتتاجنا الفكرى في عصر بني مرين كما نجد فيه ما يعلل هذا الخلاف وهذا الالتباس المتحدور أصبح يعنى في نظر علماء الاجتماع ، على اختلاف مناهبهم وتباين مدارسهم، العصور أصبح يعنى في نظر علماء الاجتماع ، على اختلاف مناهبهم وتباين مدارسهم، كل ازدهار فكرى وكل رقى حضارى ، يجمع بين المعنويات والماديات والروحيات ، يدخل فيه العلم والتاريخ والادب والفلسفة وغير ذلك من فروع المعرفة والانتاج يدخل فيه العلم والتاريخ والادب والفلسفة وغير ذلك من فروع المعرفة والانتاج

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المادى ، فالانسان هو المحور ، وهو المحرك ، وهو المنتج لكن مع تفاعله مع معطيات بيئته المادية والاجتماعية . فانتاجه اذن عصارة أو حصيلة لهذا التفاعل المستمر الجارئ في زمن ومكان معينين .

ومع ذلك ، وبقطع النظر عن هذا التطور العام الذي يصنع المعطيات الكونية والاجتماعية ، اننا نجد سببا آخر لهذا الخلاف الذي وقع في تحديد وتعريف نشاط البيئة المغربية في ميداني الفكر والادب. ويتعلق الامر هنا وبصفة أدق بالادب نفسه الذي ظل يتعشر بين أقلام المؤرخين والادباء أنفسهم متأثرا بميولهم الخاصة ، ومنزعاتهم الفردية ، دون أن يجد لنفسه ميدانا خاصا ومجالا واضح الابعاد والمعالم . فكان الغموض يكتنف سبيله ، والتناقض يهدد مستواه ومصيره ، واذا كان من الطبيعي أن يخضع هو الآخر ككل كائن حي لقانون التطور العام ، فان البيئة العربية على الخصوص كان لها حظ وافر في تطبيق أفقه وتحديد وتقليص دائرته حتى أصيح يقتصر على نوع خاص من الانتاج الفكرى دون سواه ، وحتى أصبحت فنون أخرى من القول أجنبية عنه ، وأقصيت من ميادينه لكونها لا تستجيب لهذا اللقياس الذي كان يقاس به ولا يخضع لهذا المدلول الذي كان يحدد آفاقه . فكانت النتيجة الحتمية أن وقع الاضطراب والارتباك في تاريخ الحركة الفكرية أو الادبية ، فأصبحت ترى المؤرخ في نظر البعض أديبا والفقيه أو المحدث فنانا في نظر البعض الآخر . وتصبح الحركة العلمية حركة أدبية والعكس بالعكس . كما أصبح الواعظ الموشد يدرج في طبقة الشعراء المفلقين والسبب واحد رغم اختلاف مظاهره ، وهو أن هذا يريد للادب محالا ضيقا ، محدود المظاهر بينما الآخر يسمو به ويوسع أرجاءه ، ويسير به بعيدا لكن يشمل جميع أنواع النشاط الفكرى ، وتظل المعركة قائمة ويسظل الخلاف مسيطرا ومستمرا.

ومع ذلك فالسؤال الذي القيناه على انفسنا في بداية هذا الحديث ، ما زال ملحا ينتظر الجواب رغم هذه الاعتبارات التي أوردناها ورغم هذه الملاحظات التي ابردناها ورغم هذه الملاحظات التي ابردناها لتسليط بعض الاضواء على الموضوع وتوضيح بعض جوانبه ، ان الادب بعناه الفييق وحسب المدلول التقليدي الذي منحته اياه البيئة العربية لا يعتبر الانتاج والشعر ، بل حتى في عيداني النثر والشعر تشترط شروط دقيقة ، لا يعتبر الانتاج أدبا بدون توافرها . ليس كل ناظم بشاعو كما ليس كل من كتب أو ألق في الفقه ، أدبيا . ان الاديب فنان قبل كل شيء ، يجب عليه أن ينتج أدبا رائما فيه أثر للصناعة اللفظية والموسيقي الشعرية ، وفيه جمال وابداع ، وابتكاو ، ومعانى وصور ، وتشبيهات . ومعنى ذلك أن كل انتاج حفل بالحقائق وحدها ولم يعتمد على الصناعة والمخيل والعاطفة لا يعتبر حسب المفهوم الذي أوردناه أدبا خالصا . ان الاصالة والتجرية الشخصية ، وتغلب العنصر الذاتي فيه ، كل ذلك يدخل في المقاييس التي يحكم بها على كل منتج أداد أن يدخل حضيرته . اذا كان الادب عائم مناه ، واذا القبنا نظرة على ذلك التراث الفكرى الذي خلفته لنا البيئة المغربية في عصر بني

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مرين ، اذا نظرنا الى هذا التراث بهذا المنظار الضيق مع اعتبار كميته ، صعب علينا الاعتسراف بوجسود نهضة أدبيسة فنية في هسندا العصر . ليس مسن شك في أن هذا الانتاج الفكرى كان ضخما وواسع النطاق ومتشعب الفروع ، كما سنرى من بعد ، وليس من شك في أن هذا الانتاج كان عظيما ، الا أنه كان من النوع الذي لا يخضع للتعريف الذي أوردناه سابقا ، بمعنى أنه لم يكن في مجموعه يحفسل بالانفعالات والاحاسيس والحالات النفسية المخاصة المتولدة عن التجارب الشخصية ، كما حفل بالافكار والحقائق العلمية .

ويضاف الى ذلك ما كان ينقصه من اهتمام بعمليات الخلق والابتكار عن طريق استعمال المخيلة وتسخيرها لفائدة الابداع الفنى الذى يتجلى فى حسن التركيب واتقان التأليف ، وفى التصوير والتشبيه ، فالمجهودات التى بذلت فى هذا الميدان لم تكن كافية اذاما نظرنا الى الجهود المبذولة فى التعبير عن الافكار المجردة واستخراج الحقائق واستنتاج القواعد ، وبعبارة أدق وأوجز كان الانتاج الفكرى عبا رةعن شروح وتلخيصات وتعليقات ، وتأليف فى الفروع وفى التفسير وفى الفقه وفى الحديث وفى الاصول والبيان الى جانب ما نظم فى مسيدان التاريخ والقواعد النحوية وغير ذلك مما سنتعرض له فى موضعه ، وتبعا لذلك فلم تكن هناك نهضة أدبية فنية .

ان هذا الانتاج تغلب عليه الصبغة العلمية في مجموعه فتبعده عن ميدان الفن الخالص الذي يعتمد قبل كل شيء على المخيلة والعاطفة ، وجمال التعبير ورشاقة الاسلوب . وبناء على ذلك وتطبيقا لما ورد ، فالنهضة التي شهدها عصر بني مرين كانت نهضة عملية في جوهرها وفروعها كما يتجلى للقاريء في فصل آخر . ورب معترض لاحظ في هذا الحكم نوعا من التعسف واغفالا لبعض الحقائق ، مذكرا بما كان للبيئة المغربية من مشاركة كذلك في ميدان الفن الادبي الصرف . وجوابنا هو أننا لا ننكر هذه الحقيقة ، ولا ندعي أن الحركة الفكرية في هذا العصر خلت من كل مجهود أدبي خالص ، بل ، على العكس ، نؤكد مشاركة كثير من الادباء المغاربة في هذا الميدان ، مساهمتهم بحظ وافر فيه بالمعنى الذي تعارف عليه النقاد العرب، وحسب هذا الميدان ، مساهمتهم بطؤ وافر فيه بالمعنى الذي تعارف عليه النقاد العرب، وحسب المفهوم التقليدي للادب ، هؤلاء المغاربة أدلوا بدلوهم في الدلاء كما يقال فأنتجوا أدبا لا يقل عن أدب غيرهم ، الا أننا كما أسلفنا ننظر الى هذا الانتاج نظرة شاملة ، ترمى الى معرفة مجموعه ، وتقدير كميته في الجملة ، وتحديد نسبته الفنية . لذلك كان حكمنا حكما عاما ونسبيا في انتظار ما ستكشف عند دراستنا المقبلة لهذا الانتاج ، وما سنستخلصه من نتائج في تقييم وتحديد نوعه واتجاهاته على ضوء المفاهيم التي تحكمت الى درجة ما في تطوره .

على أننا رغم كل ما سبق ، اذا ما نظرنا الى هذه النهضة بتجاوز وعلى ضوء المفاهيم المستحدثة ، أمكننا أن نغير رأينا بعض الشيء ، وان نخفف من حكمنا ، المدى قد يبدو قاسيا لفائدة هذه النهضة التي ازدهرت في زمن بني مرين . ذلك أن

الفن الادبي كما هو معلوم يتضمن عنصرين أساسيين ، يكمل أحدهما الآخر ، بتفاعل مستمر ، وتجاوب منسجم ، يشكلان وحدته ويؤسسان قاعدته ، انه شكل ومضمون ، أو عرض وجوهر حسب اصطلاح الفلاسفة ، وإذا كان المضمون ، في أساسه ، يعتمد على المخيلة والعاطفة والفكرة والمعنى ، فان الشكل ، الذي هو عنصر مكمل له ، يعنى بالكلمة وباختيارها ، وبالصياغة اللفظية ، وحسن التنسيق وبالاسلوب الجميل الرشيق ذي الوقع الحسن أو التأثير البليغ ، ان الشكل هو الادات أو الوسيلة الموصلة للهدف ، فاذا انعدمت الوسيلة أو ضعفت أو أصيبت بتحريف أو بنقص ، كان من الصعب، اذا لم يكن من المستحيل، تحقيق الهدف المنشود؛ بل أن الوسيلة أذا اعتراها ضعف أو تشويه ، اذا كانت غير سليمة ، كان لها تأثير سيء على النتيجة التي تستهدفها . لذلك نرى ، خلافا لما هو شائع ، أن الغاية لا تبرر دائما الوسائل ؛ نرى على العكس أن التناسق والتجانس بينهما أمر ضروري . ومعنى ذلك بالنسبة لموضوعنا أن البلاغة بأقسامها وفقه اللغة ، وعلم العروض والقواعد النحوية ، كل ذلك من الوسائسل الضرورية للادب لانها جزء منه ، تكون جانبه الشكلي وتساعد على أداء مهمته سواء كان أدبا فنبا محضا أو أدبا بمعناه العام . وليس من شك في أن النشاط الفكري المغربي حفل في هذا العصر ، بأبحاث قيمة في هذا الميدان ، لقد خلف المغاربة كما سنري في فصل آخر ، في البلاغة وفي علم العروض وفي النحو على الخصوص ، مؤلفات من الوزن الثقيل ، كتبا كثيرة يصعب احصاؤها نظرا لوفرتها وتشعب فروعها واختلاف مظاهرها وفقدان جزء كبير منها . فكان لهم الفضل الكبير والباع الطويل في خدمة اللغة العربية وفي المحافظة على كيانها وتنظيمها ، وتسهيلها ، وتبسيطها وتقريبها من القاريء المبتدىء، أبدوا فيها وأعادوا ، وحققوا وعلقوا ، وشرحوا وصنفوا الآلاف من الابيات في قواعدها وصرفها لجعلها عالقة بالاذهان ، راسخة في الفكر . فكانت لهم الشهرة الكبيرة في العالم العربي ، شرقه وغربه ، واقترن اسمهم بكل مجهود فكرى في هذا الباب. يكفى مثالا على ذلك ما تركته مقدمة ابن جروم من أثر بليغ في الاوساط العلمية ، والمثقفة بصفة عامة . ويكفى للدلالة على ذلك ما نظمه ابن المرحل وغيره من أبيات في العروض واللغة ، تذليلا للعقبات التي تعترض الطالب المبتدىء وتسهيلا لمهمة الاديب أو المتأدب . حسبنا مثالا على ذلك أن نورد هذه الامثلة على سبيل الايجاز ولاعطاء فكرة عن هذه الحركة المزدهرة في عصر بني مرين في انتظار ما سيسفر عنه بحثنا في موضع آخر . ومن ذلك يتضح أن المغاربة كان لهم دور فعال في تنمية الحركة الادبية الفنية ، ومشاركة ايجابية ومستمرة في تثبيت دعائمها عن

لكن هل معنى هذا أن هذه النهضة الادبية كانت شكلية محضة ؟ ذلك ما يستفاد من عرضنا السابق ومن تحليلنا لجوانب الحركة الفكرية التي سادت في هذا

طريق خدمة اداة فعالة من الادوات التي يعتمد عليها الادب في نشأته وترقيته وازدهاره ... هذه حقيقة لا غبار عليها ، يشهد بها التاريخ وتنطق بها الآثار التي لا زالت الى الآن علامة على نبوغهم وعلو شأنهم في هذا الميدان وبذلك حققوا نهضة أدبية فنية لا

يمكن انكارها أو التغافل عنها.

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العصر . الا أننا رغم كل ما ذكر ، نريد رفع انتباس وهو أننا لا تقصد التطرف في الرآى ، ولا ندعى وجود جانب وانعدام جانب آخر ، وانما الذي تقصده هو وجود الجانبين معا في نفس الوقت ، لكن مع طغيان جانب على آخر فالمسألة هنا مسألة نسبية بعيدة عن التظرف والاطلاق .

ومهما اختلفت الآراء في هذه النقطة ، ومهما تعددت وجهات النظر ، فالامر السملم به هو أن العصر المريني عرف حركة أدبية خاصة نرى من المناسب الآن البحث عن عواملها .

ان هذه العوامل التي سنحاول التعرف عليها مستملة من البيئة المغربية من واقعها المادى ومن معطياتها الاجتماعية ، وهي ، وان تعددت واختلفت في مظاهرها، ترجع في آخر أمرها الى مصدر واحد ، وتعلل وتفسر ظاهرة واحدة هي هذه الحركة الادبية الفنية التي عرفها العصر المريني .

من أحم هذه العوامل ، يجدر بنا أن لا ننسى عاملا بشريا كان وراد هذه الحركة وساعد على تنميتها بصفة مباشرة أحيانا وغير مباشرة في طروف أخرى . هذا العنصر البشري المحرك يتمثل في بئي مرين أنفسهم الذين استولوا على الحكم وقبضوا على زمام الامر في المغرب بعد مدة طويلة ، عرفت فيها البيئة المغربية كما مر بنا ، أحداثا خطيرة وانقلابات متعددة من الناحية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها . أن بني مرين ، كعنصر اجتماعي له خصائصه ومبيزاته وعاداته وتقاليده ، بصفاته الغزيولوجية والعقلية والنفسية والخلقية ، أثروا في هذه الحركة الادبية عن قصد وعن غير قصد وعملوا على تطويرها . ذلك أنهم كما نعلم قوم اندمجوا في البيئة المغربية بعد احتلالها وانضموا الى العناصر الاخرى التي تكونها ، فخلقوا بذلك تيارا اجتماعيا له وزنه وأثره في معطياته هذه . أن طبيعتهم ، كما رأينا في فصل سابق ، وأصلهم الذي كان عربيا أكثر منه بربريا ، وماضيهم المتبيئ بالبداوة والنزعة العربية وكسب العيش والنظر الى الحياة الاقصادية ، كل ذلك تضافر في عامل واحد وأدى الى تطعيم هذه الحركة وتركيز دعائمهما . ان التيار الاجتماعي الذي خلقوه بظهورهم في المغرب وامتزاجهم بمناصر عربية ساعدا على تقوية مركز اللغة العربية في البلاد سواء على الصعيد الرسمي أو الصعيد الوطني . إن الروح المسيطرة على مظاهر النشاط الثقافي كانت عربية في صبيبها وقوية في انتشارها بين مختلف عناصر السكان. لم يكن يصدر عن بني مرين ، كما يكون ، صدر عن غيرهم ما يخل بهذه الروح ولا ما يوحى بتيار رجعي يؤثر بصفة شعورية أو لا شعورية في تطور الحركة الادبية وازدهارها ، بل كانوا ، بتكوينهم العام وتشابههم مع العسرب في تقاليدهم وكثير من اخلاقهم ومظاهر سلوكهم يعملون من حيث لا يشعرون أحيانا لتدعيم هذه الحركة . ولقد سبق أن رأينا ما نتج عن هذا التشابه من تعاون وترابط في مختلف المجالات الاجتماعية والمرافق الاقتصادية ، الشيء الذي خلق شبه وحدة عنصرية كان لها من النتائج ما حاولنا ابرازه في محله وما فلمسه الآن في هذا الميدان .

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وغير خاف ما لعبته القبائل البدوية النازحة مسن المشرق الى المغسرب في المجتمع المغربي من الناحية الاجتماعية والاقتصادية ، فقد كان لهذه القبائل ظهور بأرز في مختلف أوجه النشاط ولا سيما في المجلات التي تتفق وطبيعتها . لقد سبق أن رأينا ما كانت عليه هذه القبائل من تقارب وتجاوب مع بني مرين الذين وجدوا فيهم مساعدين وخداما اعتمدوا عليهم في كثير من المهام الرسمية وغير الرسمية . أن انتشار هذه القبائل في نواحي كثيرة من المغرب كان له اتسسر ، ولو لم يكن مباشرا ، في تدعيم الحركة الادبية عن طريق نشر اللغة العربية في الميادين التي اكتسحوها حتى اصبحت قبائل بربرية عربية الصبغة والتقاليد عن طريق التأثير والايحاء ، وحتى أصبح من العسير ، فيما بعد ، في المغرب التمييز بين قبائس والايحاء ، وحتى أصبح من العسير ، فيما بعد ، في المغرب التمييز بين قبائس عربية وقبائل بربرية وقوة التمازج وانتشار حركة الاندماج ، فكان غربية وقبائل بربرية إلى المفنون الادبية وغيرها .

واذا كان هذا العامل يكتسى صبغة شبه تلقائية وغير هباشرة ، فان لنا في ينى مرين كفلك عاملا آخر اقوى وابعد مدى ، لانه يرتكز على الارادة القوية والرغبة الشديدة والجهود المستمرة التي امتازوا يها في ميدان الحركة الفكرية بصغية عامة ورعاية الفنون والآداب بصبغة خاصة . بذلك تحقق الازدهاد ، ويلغ النضيج قمته ، وعم البيئة المغربية تياد ثقافي وحضارى كان له ابلغ الاتسر في الداخل والخارج ، ذلك التأثير الذي انعكس على صفحات التاريخ وكثير من المصادر التي والخارج ، ذلك اليوم تطلمنا على بعض مظاهره ، لذلك رأينا ضروريا التعرض اليه بشيء من المتعيل والتحليل ، ويجدر بنا ان نشير الى أن هذا النشاط الذي بذله بنو مرين لرعاية الثقافة والحركة الادبية بوجه خاص يتجلى في مظاهر ثلاثة :

- x) ثقافتهـــم
- 2) رعايتهم للغنون بصفة عامة
- 3) احتمامهم بيناء دور العلم والاماكن الدينية .

لقد كان بنو مرين في جملتهم ، على جانب كبير من الثقافة العربية ، بل كانوا يعضهم ميرزين في ميادين العلم والادب ، فكانت لهم مشاركة فعالة فيه ، ورغبة اكينة في التقرب من العلماء والادباء ليستفيدوا منهم وليتبادلوا معهم الافكار والآراء حول شؤون ادبية خاصة ، فكان بلاطهم مدرسة تعج بالاساتذة ورجال العلم والادب يقصدونه من كل حدب وصبوب ، تأكدا منهم انهم سيجدون فيه مرتعا وميدانا خصيا ، وبذلك كثر التجاوب وقوى التفاعل واشتد الانسجام بين الجانبين، وكان الربع العظيم للحركة المفكرية بصفة عامة وللادب بصفة خاصة . ودليلا على وكان الربع العظيم للحركة المفكرية بصفة عامة وللادب بصفة خاصة . ودليلا على ذلك انه قلما نبغت شخصية في الادب او في الفكر الا ووجدوا اسمها ضمن مشاهير العلماء والادباء الذين كانوا يعيشون في ظل ملوك بني مرين وأمرائهم . ان الواقع التاريخي والحضاري يشهد بذلك لكل من الطرفين ، يشهد بالتسلاقي وبالتا وتضافر المجهودات في هذا الميدان ، فلم يكن هناك حائل او مانع يقف حجر عثرة

في الطريق . لقد وقع الترفع عن كل وطنية ضيقة تحدد آفاق العلب والمعرفة وتقلص ظل الادب وفنوئه ، فكان في البلاط المريني المشرقي والمغربي والبربري والاندلسس وغيرهم بقطع النظر عن حيثياتهم وميولهم ما داموا يحملون العلم وراية الاسلام ، وينتمون الى ميدان اللغة والادب ، ان الامثلة لكثيرة ومتنوعة ، وما نظن اننا بحاجة اليها الآن ما دمنا سنعرض الى تفاصيل هذه النقطة في مكان آخر بحول الله . يكفى ان نشيع هنا الى ملوك بني مرين وبعض أمرائهم الذين تثقفوا ثقـــافة عصرهم فكانوا رجال فقه ودين قبل كل شيء ، كما كانوا يهتمون بشؤون اللغة والادب ، يناظرون ويجادلون بتكوينهم الديني والفقهي ، ثم بما حصلوا عليه مسن ثقافة لغوية وإدبية ، شهد لهم يذلك معاصروهم فسجلوا لهم منه ما سجلوا . الا ان ما بقي منه اليوم في بعض المصادر شيء قليل ، لا يظفر به الباحث الا كابيات متناثرة هنا وهناك ، لا تجمعها روابط ، ولا تؤلف بين عناصرها المتفرقة ابحاث ال كتب ، بل ان كثيرا من هذه المصادر تكتفى بالاشارة والكلمة العابرة الى ان هذا الملك كان فقيها وشاعرا وذلك الامير كان كاتبا غير حافلة بما كتب او نظم غير آبهة بأعظاء فكرة عن نوع هذا الانتاج . وبذلك كثيرًا ما يعمه البساحث الى الاستقراء والاستنتاج نظرا لقلة او لانعدام الملاة التي يبني عليها احكامه . ومع ذلك فالباحث قد يستفيد من هذا الموضوع من مصادر هامة كسروشة النسرين (I) والسعد الصحيح (2) ونفع الطيب (3) وجذوة الاقتباس به) والذخيرة السنية (5) وغيرها هن المصادر التي يمكن ان تلقى بعض الضوء على هذه الناحية . وتجفيقا لهذه الغاية عشرنا على آثار شعرية للسلطان أبي الحسن ولابي عنان ولابي مالك عبد الواحد بن يمقوب ولابي العباس أحمد بن أبي سالم مما يدل على حظهم في الثقافة الادبية وما يؤكد تزعتهم الفنية ومبلغ مشاركتهم في هذه النهضة التي نحن بصيدها من ذلك قول أبي الحسن:

ارضى الله في سر وجهـــر

واحمى المرض من دنس ارتياب واعطى الوفر من مالي اختيارا واضرب بالسيف طلي الرقاب(6)

كما قال ابو عنان :

يا راميا بالنبال من غنهج وباديا كالهلال في سبحب وباسما عن لآليء نسقت رفقا بقلبى فان فيسبه هوى

وصائلا بالنمسال من دعيج وطافحا من سلافسة الفلسج وتاسمسا كيل عياطس ادج ولا تطمل في الملال والجسبرج

لابى الوليد اسماعيل أبن الاحمر .

²⁾ لابسن مرزوق

القسرى ٠

⁴⁾ لابسين [المقاضي أ مؤلفها مجهول إلى إلان تشرها محمد أين ابی شنب 6) ابن الاحمر ، روضة النسرين ، ص، 26

كما قال ابو مالك بن يعقوب المرينى (I)

فرقت في الميدان كل مليك وجمعت بين جرأة ونسوك وجعلت للاسلام حدا مالكا كي يفيد العدا سلوكا

ومن قول أبي العباس احمد بن أبي سالم بن أبي الحسن السريني(2) :

وعهدته من عهد ايام الصبا فاتخذته دينا الى ومذهبا كان الوفاء لها الطراز المذهبا لا مرحبا يتفرق لا مرحبا(3)

اما الهوى يا صاحبى فالفته ورايته قوت النفوس وحليها ولبست دون الناس منه حلة لكن رأيت له الفراق منغصا

حده ابيات اوردناها قصد اعطاء فكرة عن ثقافة ملوك بنى مرين الادبية وعن مشاركتهم فى قرض الشعر . الا تدل هذه الآثار على ما كان يتوفر عليه هؤلاء الملوك من ذوق فنى وطلاقة لسان ؟ ألم تكن هذه المشاركة الادبية كفيلة بتشجيع الادب وفنونه . لقد أعطوا المثل بأنفسهم ، وما أكثر ما يكون المثل موحيا ومؤثرا وباعثا قويا لا سيما اذا كان صادرا عن سلطة روحية أو زمنية . ناهيك ببنى مريسن وزعامتهم وشهامتهم وقرتهم المادية والمعنوية .

وسواء كانوا مؤثرين او متأثرين او هما معا ، فالنتيجة التى بين ايدينا هى انهم كانوا على حظ وافر من الثقافة الاسلامية والتكوين الادبى فكانوا بهده الثقافة وبهذا التكوين خير معين للحركة الادبية وخير ناصر ومشجع للادباء ورجال الفكر كما سيتضح من بعد . يكفينا منهم انهم احتضنوا هذه الحركة ، كما احاطروا بعنايتهم الخاصة ممثليها .

واذا كانت الحركة الادبية قد استفادت كثيرا من ثقافة بنى مرين وما نتسج عن تلك الثقافة من آثار ، فانها وجدت كذلك فى رعايتهم للفنون عاملا آخر لا يقل أهمية فى هذا الميدان عن باقى العوامل الاخرى التى كانت وراء هذه الحركة . لقد قيل ان عصر بنى مرين عصر ازدهار الفنون وعصر حركة عبرائية قوية فى البيئة المغربية . ونحن اذا نظرنا الى ما ثر هؤلاء الملوك فى هذا الميدان ، اتضبح لنا مدى صحة هذا القول ومدى انطباقه على الواقع الذى لا يزال يشهد ببعض ما خلفوه من آثار مادية ، تشهد لهم بالروعة والجلال ، والفخامة ودفة الاسلوب ، وحسن الابداع فيها شيدوه من قصور ومساجد ، ومدارس وفنادق ومرستانات اتسعت رقعتها وامتدت الى نواحى كثيرة فى المغرب . يتجلى ذلك الابداع وتلك الروعة فى الزخرف

¹⁾ اللخيرة السنية ص. 96 .

²⁾ أبو الوليد اسماعيل أبن الاحمر روضة النسرين (مطبوعات القصر الملكي بالرباط 1962) صفحـــة 35 .

والنقش والنبحت والتزليج الذي حفلت به هذه المؤسسات التي اصبحت آية في الروعة لدقة ما احتوت عليه من اشكال هندسية ونباتية ، ومن تعاريج فنية بلغت منتهي الاتقان والدقة ، مما يدل على أن يدا ماهرة فنانة ، خلاقة بذلت اقصى الجهود في العناية والصبر والاستمرار في العمل الطويل لتحقيق ذلك التراث الفنى الذي بقضه ماثلا الى العين حتى اليوم .

وكان من نتائج تلك الحركة الفنية ان تاثر بها المفاربة حتى اصبحوا يتنافسون ويتسابقون ، لا سيما في فاس ، في تشييد القصور وبناء الدور على النمط المتفشى وحسب الاساليب الفنية المعمارية السائدة في عصر بني مرين ، ولقد شهد بذلك معاصروهم ومن تتبع تطور اساليب البتاء في عهدهم منهم ابن خلدون (I) الذي لاحظ في عصره دان الدار بفاس اصبحت تساوى الف دينار ذهبية نظرا لما حوته هذه الدار من نقوش وزخرف وخلق وابداع » ، وفي ذلك ما يدل على مدى نمو المدوق الفني بين هذه العناصر من السكان وما يؤكد هذه النزعة الفنيسة التي اصبحت تطبع بعض ظواهر الحياة الاجتماعية المغربية ، واذا كان الذوق الفني نما الى هذه الدرجة وتبعلت آثاره في هذه الظواهر ، فان الادب ، وهو من الفنون ، لا يمكنه الا يستفيد من هذه الحركة وينتعش منها ، نظرا لوحدة الاسس وقوة الارتباط وشدة العلاقات بين العناصر التي يعتمد عليها كل فن .

ومن مظاهر هذه الحركة الفنية ايضا ما شاع في مدينة فاس من عناية بنسخ الكتب وتجليدها وتوريقها واخراجها في حلة قشيبة تسر الناظر وتاخذ بلب القاريء لما هي عليه من جودة واتقان وصناعة وابداع فني . ويحدثنا التاريخ عن هسفه الظاهرة وتطلعنا بعض الوثائق على مدى انتشارها في الحضرة الفاسية وغيرها من المدن المشهورة ، وما كان لها من أثر في الاوساط العلمية والادبية سواء في المغرب أو خارجه . ان الخطاطة اصبحت في هذا العصر صناعة فنية مستقلة ، يتعاظاها اقراد عرفوا بخطهم الجميل ، وذوقهم الفني الاصيل ، وعنايتهم الخاصة باستنساخ الكتب وتفننهم في تجويد خطها وتذهيب عناوينها وتلوين بعض حروفها وتجميل اشكالها حتى تخرج آية في الروغة والابداع والجمال . ان «الخط الجميل» اصبح من الصفات حتى تخرج آية في الروغة والابداع والجمال . ان «الخط الجميل» اصبح من الصفات الممتازة التي كان المرء يجد في كسبها والتمتع بمزاياها والعمل على تعميمها بين أفراد الاسرة الواحدة . لذلك كنت تجد في فاس وفي غيسرها من المدن المغربية او الاسرة الواحدة . لذلك كنت تجد في فاس وفي غيسرها من المدن المغربية او الاندلسية ، في زمن بني مرين ، اسرا عريقة انفردت بهذه الصناعة الفنية واكتسبت بها شهرة عملت على تخليد ذكره عبر الاجيال والعصور .

وقد اختفظت لنا يعض الصادر التاريخية(2) بأسماء نذكر منها محمد بسن

¹⁾ أنظر المقدمة ، ص 408 - 409 (مصر المكتبة النجارية بدون تاريخ) .

²⁾ انظر في مجلة المترب ، يحثا لمحمد فاشل بن عاشور ، فاس من خلال مخطوطاتها س 7 (مجلة المغرب (الدار البيضاء 1964)

عبد العزيز المحلو وأسرته التى بقيت هذه الصناعة منتشرة بين افرادها ، كما يؤكده الاستاذ فاضل ابن عاشور ، الى ما بعد القرن العاشر والحادى عشر هجرى . ولماذا تذهب بعيدا في البحث عن اضماء الخطاطين المشهورين والسلطان ابو الحسن أعطى المثال بنفسه فكتب بخط يده ثلاثة مصاحف بعثها الى المسلجد المقدسة . ويذكر لنا المقرى(I) ان أبا الحسن المريني وكان حسن الكتابة ، ذا بلاغة وشهاعة وشجاعة ، كتب بخطه ثلاثة مصاحف ووقفها على المساجد الثلاثة» . وهكذا يتضع لنا من هذا المنعي أن «حسن الكتابة » اصبح كما رايتا من الالقاب الشهيرة التي يعرف بها الغرد في زمن بني مرين ويفتخر بحملها . ولعل القارى يذكر ان ابن الخطيب عندما يتعرض لترجمة بعض الشخصيات في عصره سواه بالمغسوب أو بالأخليب عندما يتعرض لترجمة بعض الشخصيات في عصره سواه بالمغسوب أو بالأخليب عندما يتعرض لترجمة بعض الحال ذلك ، ان يذكر من بين صفات مترجميه الحال دنا خط حسنه فالخط الحسن كان اذن شيئا اساسيا في التعريف بمشاهير الادباء والعلماء .

وهكذا يتضبح لنا ما كان للفنون من اثر في المجتمع المغربي كما يتأكد لنا ان بني موين كانوا في مقدمة هذه الحركة اذ اعطوا المثال بانفسهم كي تنبو هذه الحركة وتستمر في المستقبل.

ان الحاسة القنية ، اذا تربت ونمت في فرد من افسراد المجتمع ، رققت طبعه ولينت سلوكه ، وهذبت ذوقه وجعلته يتذوق كل انتاج فنى ، وكل عمل فيه صنع دقيق واتقان وجودة وابداع ، مما يخلق في نفسه دافعا او محركا يجعله بالتالي ينسأق نحو هذا الانتاج ويبحث عنه اذا لم يجده . وتلك نتيجة حتمية بالنسبة للفرد وللمجتمع تفرضها عوامل نفسية واجتماعية هعينة ، ان حقائق علم الاجتماع وعلم النفس والتجارب على الخصوص تؤكد ما لذلك من اثر وضغط يسرى مفعوله بصفة شعورية ولا شعورية في الطبقات المكونة لبيئة ما . وثلك التجارب نفسها بينت بكل وضوح ما اتسمت به البيآت العربية وغير العربية في مختلف العصور من عناية بالفنون الادبية لان فنونا اخرى تطورت فيها ورقى مستواها . لقد ارادوا التنميق والزخرف في الالفاظ ، وتجميل الاسلوب ، كما احبوا الزخرف والتزويق التنميق والزخرف في الالفاظ ، وتجميل الاسلوب ، كما احبوا الزخرف والتزويق والتزمي بالفن المعماري والعضاري على العموم . يكفينا مثالا أن تتذكر البيئة العربية في القرن الرابع والخامس والبيئة الاندلسية في عصرها الذهبي . ان فيها لشواهد ناطقة وظواهر مختلفة تعلنا على مدى الترابط والتكامل بين الفنسون على اختلاف ناطقة وظواهر مختلفة تعلنا على مدى الترابط والتكامل بين الفنسون على اختلاف ناطقة وظواهر مختلفة تعلنا على مدى الترابط والتكامل بين الفنسون على اختلاف

¹⁾ نفح الطيب ج 6 ص 136 (مطبعة السعادة مصر 1949)

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويحق للقارئ ونحن نتحدث عن ازدهار هذه الحركة الفنية بالمغرب على عهد بنى مرين ان يتساءل عن السر فى هذا التطور الذى طرأ على بنى مرين ؟ يحق له ان يتساءل عن : «كيف تحول بنو مرين من قوم رحل عرفوا بحياتهم البدوية الخالصة وبتنقلاتهم عبر الصحراء وبعيشهم تحت الخيمة كسائر القبائل البدوية العربية ، الى رجال حضارة ورقى ، انه لتطور خطير يبعث على التفاؤل والدهشة فى نفس الوقت ، لان الامر يتعلق بتطرف واضح ، لقد عرفنا بنى مرين على ابواب الصحراء المغربية وعرفنا موطنهم بالمغرب الاوسط ، وعرفنا كيف كانوا يعيشون بأساليبهم البدوية التى لم تكن تعرف للاستقرار معنى ولا للحضارة سبيلا . عرفنا تقاليدهم واخلاقهم البدوية يوم اقبلوا على المغرب مستولين على حكمه ، قابضين على شؤون شعبه الزمنية والروحية ، ان فى ذلك لمما يدل على عبقرية كسامنة وشدة قابلية شعبه الزمنية والروحية ، ان فى ذلك لمما يدل على عبقرية كسامنة وشدة قابلية وسرعة اندماج ، واقبال شديد على معطيات البيئة المغربية المادية والاجتماعية قصد اختماعها وتطويرها .

ان سرعة التكيف مع بيئة ما حسب حقائق علم النفس وعلم الاجتماع ايضا ترجع الى عوامل شتى . منها الذكاء ، ومنها عدم التوفر على ماض طويل ، حافسل بتقاليد وبعادات اصيلة قد تصطدم بالمعطيات الجديدة . ومنها الشعور بمركب النقص وبعقه تفسية تحمل الفرد على بذل اقصى ما يمكن من الجهود في مواطن ضعفه كي يقضى على أسباب ذلك النقص ويظهر في موطن الضعف بمظهر القوة والغلبة . وفي التاريخ امثلة على ذلك وفي التجارب اليومية انواع كثيرة من نفس السلوك : افراد ضعفاء نعتهم الناس بالقصور والعجز وبعيوب اخبرى ، واشارت لهسم الاصابع بانحطاط المستوى ، وضعف العزيمة ، نهضوا وقاوموا هذا التخلف او هذا المركب فبذلوا في ذلك جهودا عظيمة وسرعان ما تغلبوا بفضل ارادتهم القوية على كثير من منافسيهم وتغوقوا على من كان في درجة اعلى في ميدانهم واختصاصهم . هذه بعض العوامل النفسية والاجتماعية التي قد تفسر لنا هـــنه الظاهرة التي واجهتنا في سلوك بني مرين وموقفهم من الحضارة والفن في البيئة المغربية ، ليس بخاف أنهم قبل وأوجهم أبواب المغرب كانوا محتكين بقبائل المصامدة ، تلك القبائل التي حققت الهراطورية المغرب وقام لها الناس وقعدوا في العالم الاسلامي وفي غيره . وكشيرا ما كانوا يصطدمون بهم نظرا لطبيعتهم الاجنبية وللطابع البدوى المتغلب على سلوكهم، كما كانوا محتكين بالقبائل العربية البدوية وبالعناصر الاندلسية وببني أمية الذين وجلوا فيهم عونا ونصرا لسياستهم ، فهم من هذه الناحية كانوا على علم بماضى المغرب وبالاحداث التي اثرت في سياسته وتطوره . فمن الطبيعي ان يتكون فيهم ، من هذه العوامل التي اشرنا اليها سابقا ، ما جعلهم مسلحين ، مجهزين ، مستعدين لتحقيق أهدافهم ومحو ما قد يكونون وصموا به من نقص في المجالات التي كانت مسرحاً لتجاربهم . لذلك رأيناهم ، وما أن استتب لهم الامر ، مقبليين على تحقيق مشاريع عمرانية وفنية في غير بطء ولا ارتجال . ومنا ساعدهم على ذلك ايضا وجود

كثير من الفنيين والمهندسين الاندلسيين بجانبهم ، فلقد روت لنا مصادر كثيرة(1) ان بنى مرين كانوا يعتمدون فى تشييد قصورهم ودورهم الفاخرة وفى بناء متشات أخرى عمرانية وعمومية على عناصر اندلسية من ذوى الخبرة الفنية والهندسية .

ومما هو جدير بالذكر ايضاً في هذا المجال ان عصر بني مرين شهد حركة بناء خاصة تتجلى في انشاء مدارس للطلبة في كل ناحية من نواحي المغرب . وحكذا اسست مدرسة او مدرستان (او اكثر) في كل مدينة من كبريات المدن المغربية آنذاك ، فحظيت بعناية الملوك الخاصة واشرفوا عليها بأنفسهم حستى شيدت في أروع مثال وابهي حلة . وكثيرا ما تجلي فيها الذوق الفني والمهارة الصناعية الرقيقة ، والخلق والابداع في النقش والنحت والزخرف البديع في اعلى الجدران والابواب ، فكانت بذلك آية في الفن المعماري الذي ما زال بعضه قائما الى الآن ، يشهد بذلك الاتقان وبتلك الروعة والعظمة . هذه المدارس التي كثر عددها في هذا الجصر ، وتفنن الصناع والمهندسون في تشييدها . اسست لايواء الطلبة الذين وجدوا فيها أمنا وراحة واستقرارا وهدوءا ساعدهم على أداء رسالتهم العلمية والثقافية ، فقصدوها من كل ناحية استكمالا لدراستهم وللاخذ من مشاهير العلماء والادباء . أن تصميم بنائها وموقعها الجغرافي بالنسبة لكل مدينة بنيت فيها جعلاها تستجيب لكشير من حاجياتهم المادية والمعنوية والروحية . وليس بخاف ما كان لهؤلاء الطلبة من مكانة سامية في المجتمع المغربي على عهد بني مرين ، اذ كانوا كما أكدته كثير من المصادر ، عماد الدولة ، كما كانوا يشكلون طبقة اجتماعية خاصة نالت من الحظوة والجساء لدى الملوك وغيرهم ما جعل بعض المؤرخين يتعرضون اليهم بصغة خاصة نظرا لما كان لهم من تأثير في حياة الامة . ومهما كانت الاهداف التي اسست من أجلها حذه المدارس ومهما اختلفت الآراء حول الدور الذي قامت به فيها يرجع لسياسة الدولة ونظمها ، فإن الذي يهمنا أن نسجله هنا هو أنها كانت دعامة قوية للحركة الادبية والفكرية في هذا العصر . واذا كان بنو مرين اكثروا منها وتفننوا في تشييدها حتى أصبحت غاية في الروعة والجمال ، فانهم بذلك خدموا مباشرة وبصغة ارادية واضحة هذه الحركة التي ارادوا نشرها وتعبيبها بنشر هذه المدارس وبثها في كل ناحية من نواحي المغرب المهمة .

واذا كانت هذه الحركة مدينة لبنى مرين فى كثير من وجوهها ومظاهرها ، فان المغرب كبيئة مادية او كاطار جغرافى يمتاز خصوصا بحدوده المتاخمة لبحر الابيض المتوسط وقربها من القارة الاوروبية على العموم ، يشكل بهذه الصفة عاملا آخر كان له اكبر الاثر فى تنشيط الحركة الثقافية والادبية . يكفيك مثالا ما لعبته

¹⁾ عبد العزيز بن عبد الله (النن المغربي الدار البيضاء 1960) تجد في هذا العرجع ومصادر اخرى ان من بين المهندسين الأندلسيين اللين كاثوا بالمغرب في خدمة بني مرين محمد بن على من المسيلية ومحمد بن الحاج من نفس المدينة .

مدينة سبتة من دور رئيسى فى حياته الثقافية والاجتماعية والسياسية . لقو سبق ان اشرنا الى ما كانت تمتاز به هذه المدينة من حيوية ونشاط فكرى كان له صداه فى داخل المغرب وخارجه . ان الموقع الجغرافى لهذه المدينة ولغيرها من المدن المتأخمة كطنجة وتطوان ، سهل الاتصال بعلماء وأدباء الاندلس وقسرب المسافة للتنقل بين العدوتين وشجع الرحلات السياحية والسياسية والدبلوماسية وغيرها ، فكانت هذه المتاخمة ملتقى شخصيات تمثل ثقافات وحضارات مختلفة استفاد منها المغرب فى حضارته بصفة عامة وفى حياته الفكرية والادبية بصفة خاصة .

ويدخل في هذا الاطار ايضا ، وكنتيجة حتمية لتأثيره المباشر وغير المباشر في سياسة المغرب الداخلية والخارجية ، تلك الحركة الهجرية القوية التي شهدها المغرب الاسبان أسر كثيرة اختارت المغرب مقرا لها فاستوطنت بعض مدنه (x) بصفة نهائية. وجدير بالذكر أن تتعرض هنا لشخصية اندلسية كان لها أكبر الاثر في حياة المجتمع المغربي الادبية والثقافية ، انها شخصية ابن الخطيب (2) الفذة ، تلك الشخصية التي ــ كما هو معلوم ــ طبقت شهرتها آفاقا بعيدة في المغرب وحارجه . ان وجود مثل هذه الشخصية في المغرب لكفيل باعطاء فكرة عن قيمة هذه الحركة الهجرية التي عاشتها البيئة المغربية في زمن بني مرين . ان ابن الخطيب بذكائه ، بعبقريته ، بتعلمه الواسع ، با دابه وفنه ، بنفوذه المعنوى والمادى ، بدهائه السياسي بدبلوماسيته وتجاربه ، خلق في المغرب جوا خاصا كان له اثر حسن على الثقافة وعلى الادب . يكفى أن تمر مثل تلك الشخصية ببيئة ما لتحرك الهمم وتقوى الرغائب وتثير تنافسا وردود فعل مختلفة تستفيد منها الحركة الثقافية على العموم . وكذلك كان الامر بالنسبة لابن الخطيب الذي عاش في البلاط المريني كما عاش في مدن اخرى رددت صداه وسجلت نشاطه وتنقلاته وبعض مطارحاته ومناظراته الادبية وتعليقاته على أدباء المغرب وعلمائه وانتقاداته الموجهة ضد بعضهم واحتكاكاته المستمرة برجال الفكر والصلاح . ان المغرب الثقافي كله في هذه الفترة كان يعيش مع ابن الخطيب في تنقلاته ومحاضراته وفي مسراته ومضراته ، وآلامه ونكباته ، الى أن لفظ بنفسه الاخير بفاس فبكاه البعض وتشفى منه البعض الآخر -

ذلك بايجاز ، هو الجو الذى خلقه ابن الخطيب فى المغرب وذلك هو الاثر الذى تركه بصفة عامة عن قصد وغير قصد ، فى الاوساط المغربية المثقفة ، ولم يكن ابن الخطيب وحده فى هذا الميدان بل شاركته كما سنرى شخصيات أخرى اندلسية كان لها وزنها الثقيل سواء فى عالم الادب او فى عالم الفقه والتشريع

¹ انظر الغمسل الاول

²⁾ ولد لسان الدين ابن الخطيب بالاندلس سنة 713 هـ وتوفى بفاس سئة 776 هـ .

الامىلامى او قى ميادين أخرى . وانما خصصنا ابن الخطيب بالذكر نظرا للنفوذ القوى الذى كان يتمتع به فى بلاده وغيرها ونظرا لما تركه فى المغرب من أثر وما خلفه من انتاج فكرى هو وليد البيئة المغربية بالدرجة الاولى(I) .

وهكذا يتضع للقارى، مما سبق ، وبصفة اجمالية ، كيف استفادت الحركة الفنية الادبية في المغرب ، على عهد بنى مرين ، من هذه العوامل التى اتينا على ذكرها . منها ، كما رأينا ، ما هو مباشر ومنها ما هو غير مباشر ، منها ما ظهرت آثاره بسرعة ومنها ما لم تظهر آثاره الا بعد مدة معينة . ورغم تفاوت هذه العوامل فى القوة والضعف ورغم اختلاف مظاهرها ، فالطابع الذى يغلب عليها هو انها كانت فى جوهرها من البيئة المغربية ، تستمد اصولها قبل كل شىء من موقعها الجغرافى ومن حدودها الشمالية والشرقية على الخصوص (تلك الحدود التى جلبت اليها الخير كما كانت وبالا عليها) ثم من ابنائها وتفاعلهم معها فى ميان المبياسة والاقتصاد وفى ميدان الاجتماع والثقافة .

المنعرض بتفصيل لاثر أبسن العليب الثقافي في الحياة الادبية المغربية كما سنتحدث عن شخصيات أخرى الدلسية كان لها دور مباشر في الحركة الفكرية عموما .

rted by 11ff Combine - (no stamps are applied by registered versi

مكانة الشعر بالنسبة للنثر

يلاحظ الباحث في هذه الحركة الادبية التي عرفها المغرب في عصر بني مرين ملاحظة لا تخلو من مغزى ومن اثر . ذلك ان المجهودات الــــتي بذلت في هـــــذا الميدان كانت تميل الى النثر أكثر من ميلها الى الشعر ، بمعنى أن النثر حظى بعناية فاثقة من طرف الادباء واستأثر باكبر جهودهم فكسان له المقسام السامي والمجال الواسع ـ على حساب الشعر طبعا _ كما كانت له الغليــة والسيطرة على سائر الانتاج الادبي بصفة عامة . لذلك كان ما كتبه هؤلاء الادباء اكثر مما نظموه . فكانت نسبة الشعر ضئيلة في هذا الانتاج الذي خلفته البيئة المغربية في هذا المصر ، تلك حقيقة تاريخية وظاهرة اجتماعية خاصة امتازت بها الحركة الفكرية والانتاج الادبى بصفة عامة . وليس من الصعب على الباحث ان يلمس هذه الظاهرة اذا أراد أن يتحقق منها ويتأكد . يمكنه أن يلقى نظرة على انتاج هذا العصر ليعرف كميته ووزنه ويقف على نوعيته ، ويميز بين اقسامه وفنونه . يكفي القاريء ان يتجه الى مكتبة عامة او خاصة ليبحث عن مؤلفات هذا العصر وعن القصائد والابيات التي يرجع عهدها اليه . يتطلب ذلك الاحصاء مجهودا فكريا ووفتا طويلا ، لان عصس بنى مرين يتجاوز القرنين ولان تراثه الفكرى ضخم ومتشمب الفروع ثم لان اجزاءه ما زالت الى اليوم مبعثرة بين المكتبات العامة والخاصة في المغرب أو خارجه . وتسمهيلا لمهمة القاريء وتوفيرا لكثير من العناء والكد الذي يجده في ذلك ، حاولنا المقيام بهذه العملية قصد اعطاء فكرة عن هذا الانتاج فكانت طريقتنا ، نظرا لوفرة المؤلفات وكثرة العلماء والادباء في هذا العصر ، هي الايجاز والاختصار مع مراعاة تسبة التمثيل الحقيقي للبيئة الغربية ، فاعتمدنا على مشاهر ادباء هذا العصر ، واقتصرنا على نخبة منهم تمثل البيئة المغربية تمثيلا واسع النطاق ، مراءين في ذلك الاصالة وصدق الشعور والاحساس بمعطيات المجتمع المغربي ومظساهره المادية والمعنوية والروحية . وفي ترجمتنا لهؤلاء الشاهير الذين حاولنا مــــا امكننا اطملاع القارىء على أهم جوانب حياتهم النفسية والاجتماعية والثقافية لسم يفتنا أن ذيلنا ، حسب المصادر التي وقفنا عليها الى الآن ، ، بحثنا بشب قائمة لمؤلفاتهم ، يتجل فيها نوع انتاجهم وكميته والنزعة الغالبة عليه . من الممكن ان نعتبر هذه الآثار مقياسا نستدل به على حظ النثر من هذا الانتاج وكميته الوافرة ، وسعة افقه وتشمعب قروعه واستبداده بفكره وجهود العلماء والادباء . يتضح من ذلك أن ما

قالوه وما كتبوه كان نثرا اكثر منه شعرا ، وإن اعظم ما تركوه لنا كتراث فكرى هو عبارة عن مؤلفات صخبة ومصنفات كثيرة من العسير احصاؤها والالمام بجوانبها في هذا المجال . لننظر اذن الى هؤلاء الاعلام الذين ترجمنا لهم ولنلق نظرة خاطفة على منجزاتهم المختلفة كي نتأكد من مدى صحة هذا الرأى . فالشيخ زروق مثلا اعظم مؤلفاته نثرية رغم كون بعضها يتضمن شعرا ، ورحلة ابن بطوطة كلها نثرا باستثناء بعض الابيات وكذلك رحلتا ابن رشيد والعبدرى ، وإن كانتا تنطويان على أبيات كثيرة من الشعر . وإذا استثنينا قصائد ومنظومات مالك ابن المرحل وارجوزة الملزوزى فلا نكاد نجد في هذا التراث الفكرى الا النثر وما شابه النثر وفنونه فلماذا اذن هذا الاتجاه ؟ لماذا كان حظ النثر موفورا وحظ الشعر ضئيلا ؟.

ان هذا السؤال يذكرنا بمعركة قديمة ومعروفة في تاريح الادب العربي ، معركة قامت حول النثر والشعر للمفاضلة بينهما وتقييم وضعية الكتاب والشعراء تبعا لذلك ، معركة عرفت خصوما وانصارا ، فكانت الغلبة احيانا للشعر واخرى للنثر، تبعا لمقاييس خاصة ذاتية اكثر منها موضوعية في اغلب الظروف ، فكانت النتيجة ان جرت هذه المعركة اليها كثيرا من النقاد الذين وجدوا فيها مادة خصبة لترويج بضاعتهم بتغليب تارة الشعر ومرة اخرى النثر مستدلين بحجج ما نظن انفسنا بحاجّة الى عرضها هنا لبيان خطئها أو صوابها ، يكفى أن نقول ان عدد النقاد الذين شغلوا بهذه المعركة كان كبيرا وان هذه المعركة لم تحسم رغم طول أمدها وحدة الصراع القائم بين من دخلوا فيها . فالظروف السياسية والاجتماعية والقيم الاخلاقية بل والاغراض الشخصية كثيرا ما تحكمت فيها وحولت مجراها فبقيت قائمة مستمرة ، يكفى ان تشمير من ذلك الى ما تشب من خلاف حول هذا الموضوع بين الثعالبي وبين ابي رشيد وبين ابى هلال العسكرى وغيرهم من النقاد . اما نحن فقد وضعنا هذا السؤال على أنفسنا لا للمفاضلة بين النثر والشعر ولا لمعرفة ايهما احسن مقاما وأعلى درجة ، الكَّاتب ام الشاعر ؟؟ وانما ذكرنا بهذه المعركة القديمة لما لها من صلة بموضوعنا. ونظرا لكون أسبابها قد تتشابه في بعض الوجوه كما سنرى ، مع العوامل التسي تحكمت في الانتاج الادبي في عصر بني مرين واثرت في اتجاهه بتغليب جانب النثر على حانب الشمر . فما هي اذن هذه العوامل ؟ لقد قيل قديما أن الملوك والامراء وذوى المراتب العالية والخير والفضل يترفعون عن الشعر ويتجنبون انتسابهم الى طبقة الشعراء ، رغم ما نظموا من ابيات ورغم ما عرف عن بعضهم من جودة واتقان وكفاءة في هذه الناحية الادبية. ذلك لان ظروفهم المجتمعية ووضعيتهم الروحية أو السياسية تأبى عليهم ان ينغمروا في هذا الميدان الذي قلما سلم من دخله من نقد لاذع ، ودعاية قبيحة تكون السبب في كثير من الاحيان في تحطيب سمعتهم والاطاحة بسلطتهم وبنظامهم : لان الشعر لغة العاطفة والوجدان ووليد الخيال قبل كل شيء، يكثر فيه الزيف والافتعال أن لم نقل النفاق والتزليف والاحتيال كما تدور اغراضه ومعانيه في بعض الاحيان حول مواضيع قد تزول فيها الحشمة ويخلع الوقار . فالشاعر اذا تحدث كان حديثه وصف حبيبة كلف بها وكلفت به أو وصف خسر

يعاقرها او يتلذذ بشربها او اطلاع الناس على مغامرات جنسية خاصة فيتغنى بذلك متفننا في وصفه ، مبدعا في تشبيهاته ومطنبا في تصوير لذاته وشهواته ، وانفعالاته الحسية وغرائزه الجنسية غير مبال بما قد يكون في ذلك من مساس وخلاعة ومجون وفساد ذوق ومرض العواطف ، مما يتنافى والاخلاق العامة وما تنهى عنه الشريعة الاسلامية التي تأمر المومن بالعفة وصيانة اعراض الناس وعدم التعرض الى عورتهم ولا الى شيء فيه مساس بالاخلاق ومبادئ الدين الحنيف .

وفي الموضوع نفسه سبق لابن خلدون (I) ان ادلى برأيه قائلا: «ثم انصرف العرب عن ذلك اول الاسلام بما شغلهم من امر السدين والنبوءة والوحى ، ومسا ادهشهم من أسلوب القرآن ونطمه فاخرسوا عن ذلك وسكنوا ... » الى ان قال : فصاد غرض الشعر في الغالب انما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التى كانت للاولين كما ذكرناه ، وانف منه لذلك اهل الهمم والمراتب من المتأخرين وتفير الحال واصبح تعاطيه (2) هجنة في الرئاسة ومذمة لاهل المناصب الكبيرة » .

واذا كان ابن خلدون قصر السبب فى الكذب والاستجداء وقصر الكلام على ذوى المراتب العالية ، فنحن نرى ان السبب أقرى واخطر ، واكثر مساسا بالدين والقيم الاجتماعية والاخلاقية وأشد ارتباطا لا بذوى المراتب فقط بل بسائر طبقات الشعب .

وما لنا نذهب بعيدا ، وامامنا اديب مغربي من صميم البيئة المغربية ومن مشاهير هذا العصو الذين تشبعوا بروحه وكرعوا من ينابيع تياراته المادية والروحية، ذلك هو العبدرى ، صاحب الرحلة المغربية الذي سبق ان عبر عن نفس الاتجاء بقوله عند ما مر بمراكز التفتيش بالاسكندرية (3)

ندرت النصيحة في حقكم وحق الرفاء على الندادر وحبك انطقني بالقريض وما ابتغى صلة الشاعر ولا كان فيما مضى مكسبى وبيئس البضاعة للتاجر

هذه أبيات من قصيدة نظمها العبدرى ناصحا بها أمير المسلمين صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وفيها يعبر بكل وضوح عن ميله عن الشعر وترفعه عنه ، وعدم اللجوء اليه الا في حالة اضطرار ، لانها بضاعة التاجر البئيس المفلس . وكفأنا حجة هذا الراى الذى صدر عفويا عن شخصية مغربية كان لها من الوذن الادبى والثقافي في عهد بنى مرين ما جعلها تحتل مكانة مرموقة في الشعر وفي النثر .

¹⁾ المقدمة (مصر ، المكتبة التجارية بدون تاريخ) ص 581 .

²⁾ الشعب

³⁾ الرحلة المغربية للمؤلف (تحقيق ابن جدو مطبوعات كلية الجزائر بدون تاريخ) صفحة 98 .

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هل في هذا ما يبرر ، في البيئة المغربية ، قلة الانتاج في الشعر ويعلل انصراف الادباء إلى غير الشعر من الفنون الاحرى ؟ ذلك امر محتمل ، لان المجتمع المغربي ، كما راينا في الفصل الاول ، مجتمع تقليدي متشبث الى اقصى حد بتعاليم الاسلام ، عامل على احترام هذه التعاليم وتطبيقها ، حارص كل الحرص على نشرها وتعميمها والسير على هداها في سائر مرافق الحياة ، لقد رأينا كيف كان سلوك بني مرين مع موظفيهم وجنودهم ورعاياهم بصفة عامة ، لا تاخذهم في الله لومة لائم، ولا يتراخون في معالجة كل من صدرت عنه أقوال أو أفعال تخل بهذه الروح الاسلامية المتغلغلة في النفوس. أن الصرامة الشديدة في العقاب كانت تنتظر العابثين بأمور الدين كما كانت المكافأة من نصيب المستقيمين وذوى السلوك الحسن كما راينا انهم ، لنفس الغاية ، عينوا صاحب الصلاة وامروا جندهم بالتوقف في السير عند سماع آذان الصلاة الى ان يؤدوا واجبهم الدينى . ولم يكن الشبعب باقل حرصا منهم في عذه الناحية على اداء واجبه بل كان كثير التجاوب مع ملوكه شديد الاخلاص لدينه ، حارصا كل الحرص على تطبيق أواءره . واذا كانت هذه هي سمات البيئة المغربية وطابعها العام من الناحية الروحية فليس من شك في أن الشعر بمعانيه الفاحشة ، واغراضه المتهتكة ولغته الماجنة وخلاعته الصارخة ، فليس من شك في أن شعرا من هذا النوع لا يجد في مثل هذه البيئة المحافظة تربة صالحة وميدانا خصبا يشجع نموه ويساعد على توسيع آفاقه وتطوير اغراضه . ليس الشعر كله ، كما قيل ، من هذا النوع السافر الذي لا تراعى فيه أخلاق ولا مبادى، الاسلام ، الا اله اعلق بالوجدان واشد اتصالا بالانفعالات والاحاسيس ، وخلجــات النفس البشرية وما يعتمل فيها من حب وكلف ، وحزن والم وشجون قد يكون التعبير عنها بكل واقعية وبكل صراحة من قبيل السلوك الذي يعتبر ماسا بالاخلاق لا سيما في المجتمعات المحافظة كالمغرب في عصر بني مرين .

وليس معنى ما قلنا أن الشعر لم يجد مكانا فى البيئة المغربية ولسنا ندعى أن هذه البيئة لم تنجب شعراء ، او نم تساعدهم او عرقلت نشاطهم بصفة من الصفات ، ذلك ما هو مخالفلواقع ، لان المغرب فى هذا العصر عرف شعراء مجدين بل فحولا امتازوا ببراعتهم ومواهبهم الفطرية وارادتهم القوية ، لقد راينا من ملوك بنى مرين من كان يقرض الشعر كما سنرى شعراء نبغوا فى المجتمع المغربي وشاركوا بجهود وافرة فى هذه النهضة الادبية ، الا ان الشعر ظل مع ذلك ، وبالنسبة للنثر ، خافت الصوت ، قابعا وراء ستار حال دون انطلاقه وتحليقه فى أجواء بعيدة .

واذا ما استمررنا في البحث عن أسباب هذا الانكماش وجدنا عوامل أخرى تمتد جذورها الى البيئة المغربية نفسها وتنبعث من واقعها النفسي والاجتماعي ؛ ان الظروف السياسية التي كان المغرب يعيشها في هذا العصر ظروف خاصة ، جعلت بني مرين في موقف صارم ، لا تهاون فيه ولا تهاود ؛ كان الشعب ينتظر على أيديهم انفراجا وحلا للازمة التي يتخبط فيها . ليس بخاف ما أصاب هذا الشعب من محن

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الموحدين الذين حاولوا ، ما أمكنهم وبشتى الوسائل ، القضاء على الفقه المالكي ، مذهب الامة الذي بقى متغلغلا في النفوس رغم الاضطهادات التي مني بها الفقهاء والتعسفات الشديدة التي لقيها الطلبة وغيرهم ، والمحن العسيرة التي أصابت من كــان ينــاوى: دعــوة بنــى عبد المومــن ، الى أن جاء بنــو مرين ، فــوقع ِ الانفراج ، وكـان عليهم أن يسايروا التيـار الشعبي ، محافظة عـلي سلطتهـم وتثبيتا لدعائم دولتهم ، فكانت المعركة قائمة ، والاهداف واضحة ؛ فاستأنف الفقهاء نشاطهم ، وانصرف الطلبة الى مناهج دراستهم المقررة مقبلين عليها بكل شوق وارادة ، سائرين في الطريق التي خطها لهم رؤساؤهم وأساتذتهم والتي تحقق مطامح شعبهم ، فكثرت الدراسة والتصنيف والتأليف في الفقه وفروعه ، كما ظهرت عدة مؤلفات في التحقيق والتعليق والرواية ، فكان الانتاج في هذه الناحية ضخما دقيقا ومتشعب الفروع والاصول ، مما أدى الى حركة فكرية في هذا الميدان ميزت المغرب في هذا العصر عن العصور الاخرى وطبعت نشاطه الثقافي بطابع خاص ، فكان في ذلك اطفاء لعطش وتحقيق لرغبات مكينة أصيلة طالما عبر عنها الشعب في شتى المناسبات ودافع عنها دفاعا مستميتا ، فالطالب الظافر في نظر الشعب هو الذي نال من هذه الثقافة الفقهية حظا وافرا واستطاع أن يفيد بها أبناء وطنه في معاملتهم الخاصة ، في زواجهم وفي ارثهم وفي بيوعاتهم . لقد كان كل أديب فقيها قبل كل شيء ، اذ كانت مادة الفقه أساسا لثقافته ووسيلة أولى لنجاحه ، فالفقيه المحدث هو مصباح تستضىء به أسرته ومفخرة يعتز بها حيه وأهله ، واذا كانت هذه هي منزلة الفقية في مجتمعه ، فلقد سبق أن رأينا في ترجمة ابن المرحل والعبدري وزروق وابن رشيد وغيرهم ، ما يؤكد هذا الاتجاه الثقافي ، ويجسم هذه الرغائب الشعبية اذ كان كل منهم ، كما رأينا فقيها قبل أن يكون أديبا ولغويا . يكفي أن نتذكر أن الشاعر الملزوزي كان قد استفتى من طرف السلطان أبي يعقوب في مسألة فقهية عندما أراد أن يبذل الموازين . فكان الملزوزي الشاعر المعروف على اتم استعداد لافادة ملكه حتى اذا ما اتخذ الاجراء ونغذ كان مطابقا لاحكام الشرع الاسلامي ومستجيبا لرغبات الشعب الذي كان لا يتساهل في أمور دينه ولا يتعامل في شؤون حياته الا على أساسه ، رافضا، في عمومه ، كل بدعة محرفة وكل تشريع لا يستمد أحكامه من فقه مالك ومن الكتب المصمنفة في فروعه .

لذلك فلا غرابة أن تنصرف الهمم الى الكتابة وتدوين الحقائق العلمية والتعبير عن الافكار والنظريات بلغة مناسبة تخاطب العقل قبل أن تخاطب الوجدان والقلب أى بالنثر قبل الشعر . ألم يكن في هذا النشاط أو كما يسمى عند علماء الاجتماع بالضغط الاجتماعي ما يقوى نفوذ النثر ويزكى دعائمه ويشجع طرقه ويوسع آفاقه ؟ أن البيئة الحافلة بهذا النشاط جندت نفسها من بداية معركتها لاحراز نصر ، بل لتحقيق رغبة ملحة ظلت تحركها رغم العواصف والاضطهادات ، فكان عليها أن تنتصر على هذا الضعف الذي ركبها وتتخلص من هذه العقدة النفسية التي كبحت جماحها .ان الكبت من عوامل الانفجار والانطلاق والابداع كما يؤكده علم النفس وكما تؤكده التجارب

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قبل كل شيء. فالمسألة مسألة جد ورزانة قبل ان تكون متعة وتسلية وترفيها . ذلك ، في نظرنا ، ما شغل الافكار ، وصرف الهمم عن الشعر واستأثر بمجهودات الفقهاء والادباء واستبد بعنايتهم وبقرائحهم ومواهبهم ، فلم يظفر الشعر بما ظفر به النثر ، رغم بروز شعراء ابدعوا وأجادوا وتفننوا فانتجوا روائع كانت – ولا يزال منها شيء مفخرة للمغرب ومساهمته في الادب العربي باجمعه . انها البيئة المغربية بظروفها الاجتماعية والسياسية ، وبمقوماتها الاخلاقية ، ومثلها الروحية ، ومناهجها الثقافية التي انبعثت منها عوامل ، تضافرت وتكاملت فخلقت تيارا مجتمعيا خالصا لله سيطرته وتأثيره المادي والروحي على القيم والمثل والمعتقدات والاتجاه والتصرفات والشعر ، ككل ظاهرة اجتماعية خاضعة في نشأته وتطوره لهذا التيار العام وهذا الاتحاء السائد .

النزعبة الروحيية

في الشعب المغربيي

لقد اطلعنا على البيئة المغربية غير ما مرة ووقفنا على كثير من جوانب حياتها المادية والروحية واتضح لنا من كل ذلك ما كانت عليه هذه البيئة من روحانية وصدق عقيدة ، وتمسك قوى بروح الاسلام وبتعاليمه . لقد طفت كما رأينا هذه الروح على النفوس والافكار والعواطف . فكيفت سلوك الافراد ، وحددت اتجاهاتهم وتصرفاتهم ، ومواقفهم من الحياة ، من الطبيعة ، مما وراء الطبيعة من المادة ومن الروح . فكانوا في حياتهم وفي مختلف مجالات نشاطهم مومنين أشد الايمان بالله ، بوحدانيته ، بملائكته بكتبه وبرسله ، آخذين من الحياة الدنيا زادا لآخرتهم حيث الثواب والخلود في الجنة لمن أخلص لربه وفعل ما أمره به . بل كثيرا ما كان بعضهم يغالون في هذا الاتجاه ، ويتطرفون في أفكارهم وعقائدهم خوفا من الوقوع في الشك وتجنبا للمعاصي التي يعاقب عليها الله تعالى ، فاشتدت الرغبة عن هذه الحياة الدنيا وما فيها من قوى ، وحيوية ونشاط سواء من الناحية الاجتماعيسة أو الاقتصادية . فوقع شبه انسحاب وخلت الميادين التجارية والفلاحية والصناعية أو الاقتصادية . فوقع شبه انسحاب وخلت الميادين التجارية والفلاحية والصناعية مجتمعات أخرى لا تسير في نفس الاتجاه ، وذلك ما ساعد على الفقر والاستسلام مجتمعات أخرى لا تسير في نفس الاتجاه ، وذلك ما ساعد على الفقر والاستسلام والرضا بالواقع وعدم المبالاة بالمستقبل في الحياة .

ولقد ادى هذا التطرف فى العقيدة وفى السلوك الى نوع شاذ من الزهد والتصوف، فأقبل بعضهم يعيش لآخرته ليله كنهاره ، لا يبذل أى مجهود لتحسين أحواله ، ولا يرى فى هذه الحياة الا الظلام الحالك ، الا عدوا يجب محاربته ، وذلك بالفرار والانسحاب والانزواء وبالتقوى والعبادة فى كل وقت وحين ، وترك جبيع ما له صلة بالبيئة المادية والمعطيات الاجتماعية ، خوفا من الوقوع فى شبكتها وحبائلها ، فكان العدم أولى بهؤلاء والموت أحلى لهم لانه كان أمنية غالية ، والوسيلة الوحيدة لتحقيق الفناء والالتحاق بالرب الاعلى ، ذلك ما لم يأمر به الاسلام الذى ينص على اقامة التوازن بين المادة والروح بدون غلو ولا تطرف كما قال النبى (ص) «اعمل لدنياك المناك تعيش أبدا ولآخرتك كأنك تموت غداء ، ان الحياة الدنيا يبذل فيها الانسان نشاطه ، وحيويته ، ويستغل مواهبه لآخرته لاسعاد غيره من بنى جنسه ، تحقيقا للسلام العام ، وتخفيفا من آلام الغير ، وتشييدا لحضارة انسانية شاملة . ومع ذلك لو وقف الامر عند هذا الحد ، ولم يتجاوزه الى التدجيل والشعوذة وسوء الفهم وكثرة لو وقف الامر عند هذا الحد ، ولم يتجاوزه الى التدجيل والشعوذة وسوء الفهم وكثرة الارتباك والشك والتكهن بأمور لا يسلمها العقل ولا يقبلها كل ذى حكم سليم .

قاصبحت التأويلات الخاطئة والمعتقدات الواهية والتنبؤات الخارقة للعادة تسيطر على الفكر وتتحكم في السلوك ، وكادت الامور تهوى الى الدرك الاسفل لولا قيام نخبة من ذوى الثقافة المتينة والسلوك الحسن ، الذين استطاعوا بشجاعتهم وحكمتهم وقوة نفوذهم المعنوى والروحي ، أن يتدخلوا تدخلا عمليا لا يكتفى بالنصيحة والارشاد ، لضبط الامور ورد المياه الى مجاريها ، بتحديد موقف الشريعة وتبيين أغراضها ، وأهدافها من الحياة الدنيا والآخرة ، وتمييز ما بين المادة والروح من فروق وصلة كي لا يشتبه الامر على الاعوام ولا على ذوى الثقافة البسيطة ، نذكر من هؤلاء المصلحين الشيخ احمد زروق الذي نصب نفسه لاصلاح الوضع ولمقاومة هذا الضلال وهذا التدجيل مقاومة لقى منها ما لقى من عنت ، وتعسف واضطهاد ، ان دوره كان كبيرا وموقفه صريحا ، ثانيا كما رأينا عندما ترجمنا له في الفصل الثاني من هذا البحث أن الشيخ احمد زروق كما رأينا نبع من هذه البيئة ووسط هذا التيار الجارف . وقوق منه موقف الفاعل العامل لا موقف المتفرج ، أو العالم النظرى الواعظ بذكره ، أو بكتبه . وما مؤلفاته الضخمة الكثيرة في التصوف ، وأحكامه الا رد فعل ضد هذه الموجة العارمة ، وهذا الالتباس وسوء الفهم اللذين وقعا في المادة والروح والعلاقة بينهما بالنسبة للمسلم .

وكيف لا يقوى هذا الاتجاه الروحى ولا يطغى وملوك بنى مرين أنفسهم شاركوا فيه وشجعوا شعراءهم وكادوا يحصرون موضوع التبارى والتنافس فيه . ولا يفوتنا كدليل على ذلك أن نذكر هنا ما أورده الاستاذ محمد ابن تاويت فى أبحاثه المغربية الاندلسية القيمة مترجما لرحلة قام بها الى المغرب فى أوائل المقرن السابع

عشر انجليزى(I) يدعى وليم لنكو ويهمنا من ذلك ما نصه: «...ولكن أيام ملوك المرينيين كان الملك فى ذلك اليوم(2) يحشد جميع الاهالى فى قصره ويقيم حفلة الميد فى محضره، فيحتفل جميع الشعراء المحسنين ويجعل كل واحد منهم ينشد القصائد فى مدح النبى محمد قائما على دكة عالية ثم يمنع من اعتقد أنه يفوق الآخرين منحته الملكية التى تكون 100 دينار ذهبى سلطانى وفرسا وجارية وكساء طويلا مما يكون يرتديه هو فى تلك الساعة ، كما أنه يامر بخمسين دينارا سلطانيا الى كل واحد من الشعراء الباقين وعلى هذا فكل واحد من هؤلاء الشعراء ينال جائزة على ما سطر قلمه ، وحقيقة انها لفتة قيمة لو أن ملوكنا الاوروبيين عملوا بها

هذه شهادة أدلى بها أجنبى زار المغرب ووصف أحواله ، وشاهد محافله الرسمية وغير الرسمية . وهكذا يدل هذا النص الصريح على مدى اهتمام ملوك بنى مرين بالشعر الذى ينزع نزعة روحية ا ان عطاياهم ومكافآتهم لم تكن تمنح فى هذه المناسبة الا لمن تفوق وأبدع وأجاد وتفنن فى مدح النبى وابراز خصاله وخيراته وفضله على الناس فى الدنيا والآخرة ، خلافا لما كانت عليه العادة فى البيآت العربية الاخرى حيث كانت الاموال والهدايا تغدق عادة على من برع وأجاد فى وصف الخليفة أو الملك أو الامير . واذا كان صاحب هذه الرحلة التى اقتبسنا منها هذا النص قد تحدث فى مكان آخر عن وجود شعراء خلعوا عنهم صفات العفة والحشمة فى شعرهم وانساقوا وراء عواطفهم الجنسية ، فان تلك الظاهرة برزت فى أوائل القرن السابع عشر حيث استقر فى المغرب عدد من المورسكيين الذين نعرف عن عاداتهم وأخلاقهم الشيء الكثير .

فى هذا الجو من الروحانية المتغلغلة فى النفوس ، ووسط هذه التيارات الجارفة الناشئة عن الزهد والتقوى والسخط على الحياة وعلى المادة فى كثير من العلوم الاحيان ، نشأ عدد كبير من علماء هذا العصر ونبغائه فى الادب وغيره من العلوم والفنون . أما كان طبيعيا بل حتميا أن يتأثروا به ، أما كان ضروريا أن يقف بعضهم منه موقفا مؤيدا أو معارضا حسب الظروف والملابسات كما فعل الشيخ زروق وغيره من المشاهير ؟ ان ذلك فى نظر علماء النفس وعلماء الاجتماع من الامور الحتمية التى لا

لاحسنواء .

¹⁾ الدد ابن تاویت فی بحثه اللی اشرنا الیه اعلاه (مجلة تطوان) المسلد 9 سنة 1964 منشورات الجامعة المغربیة صفحة 142 ، ان صاحب الرحلة أنجلیزی ولد فی لنرك باسكوتلندا وقد قام برحلته عدهما بین سنة 1614 وسنة 1616 وقد اخل علیسه الاستاذ عدة اغلاط منها : مبالغته فی وصف المجتمع الفاسی باوصاف مدمومة منها ان النبید كان فی كل قریة من قری المغرب ، الشیء اللی بتنافی والواقع المغربی وانظمته الاجتمساهیة وطقوسسه الدینیسة .

²⁾ أي عيد المولد النبــوي .

يفلت منها كل فرد يعيش في بيئة ويتفاعل معها ، مع تفاوت بين الافراد راجع الى التكوين الفيزيلوجي والاستعدادات الفطرية والى عوامل أخرى .

أما نحن ، فترى لا حسب هذه الحقائق وحدها بل حسب التجربة والدراسة، أن آدباءنا في هذا العصر تأثروا الى حد بعيد بهذا الجو الذي كانوا يعيشون فيه ، كما عاش فيه أجدادهم وأسلافهم . فبحكم الوراثة وبحكم التكيف البيثي حصل ما حصل وانتقل اليهم من سمات مجتمعهم الشيء الكثير ، فكان ابن المرحل في المقدمة ، وهو شاعر المغرب الشهير ، ومعاصر ملوك بني مرين الاولين وشاهد قيام دولتهم وازدها وعدهم ووقوع كثير من الاحداث في ظلهم .

وهو من صعيم البيئة المغربية كما رأينا في ترجمته ، رغم الاختلاف الذي وقع في تحديد مسقط رأسه ، ولعل القارى المس بنفسه عندما ترجمنا لمالك ابن السرحل ما خلفه هذا الاديب من آثار ، وما نوع هذه الآثار ، وفي ذلك دليل على مدى تجاوب روح ابن المرحل مع بيئته التي وقفنا على كثير من جوانبها فيما قبل ؛ ان جل ما تركه يعتبر صدى لهذه البيئة ، وأصدق تعبير عما يتردد في نفسه من روحانية صافية ، وعواطف صادقة وأحاسيس فياضة ، واخلاص عميق لدينه ، لكتاب الله ولسنة رسول.

فلنستمع اليه وهو يمدح النبي في وسيلته الكبرى(1)

الى المصطفى أهديت غير ثنائيى أيا عتقياء المصطفى ان حقيه أما كنتم مين قبليه في شقاوة أترجو في يوم القيامة غيره أيا ديك يا خير الورى عمت الورى

فيا أطيب أهدائى وحسن هدائى عظيم فكونوا أكرم العتقاء فلولاه هل كنتم من السعداء اذا قيل للناس من شفعاء فجزاك رب الناس خير جيزاه

براهین تخفی الشبس عند طلوعها
بعثت الی المختار من آل هاشم
بواسم عن زهر المانی وزهرها
بردت بها قلوبا تفور ضلوعه
بدارا الی تخفیف ذنب حملته

كما خفيت في الشمس سيار الشهب حلى مدح أرجوبها رحمة السرب هي النور في الافلاك والنور في القطب وعزرتها بالدمع سكبا على سكب لعل الاهي أن يخفف من ذنب

¹⁾ مخطوط الخزائة المامة بالرباط 89 ص 47

بمدحه له استشفعت ثم بمحبتی بلی ان فی مدح النبی وسیلة

تـذكـرت ميـلاد النبـى محمـد تناسى فؤادى كـل حـب بحبـه تمنيت فى تلـك المعالـم خطـوة

أمالى فى مدحه شفيع وفى حسب وف حبه أخرى فحسبى هما حسبى

فأمللته لابل دموعى أملت كذلك تحيل الشمس ضوء الاهلة تسكن قلبا لى وتبرد غلات

وهكذا يستمر في مدح النبي عاشقا رؤيته ، متمنيا زيارة قبره معددا أوصافه وأخلاقه وفضله على البرية ، الى آخر بيت من وسيلته ثم يستأنف في قصيدة أخرى حنينه الى قبر الرسول (ص) شاكيا ، باكيا ، متفانيا في حبه من ذلك :

أمالى الى قسر النبسى مبلسنة آمانة مشتاق حبى الدمسع جفنسه أمانى كانسست لى زيارة قبسر آمال قناتى بعد حسن اعتدالها أمات قسوى الاعضساء الا أقلها أمام جميع المرسليس محسد

سلاما فلقد أفنى الزمان ذمائى فما طاف طيف النوم خوف حمائى وأرضى روض يانع وسمائى زمان أرانى النقص بعد نمائى وأعطش روضى حين أنصب مائى وأكرم بعوث فى الكرماء (1)

لم يكتف ابن المرحل بهذا الحنين وبهذا التلوع ، والتحرق ، بل استرسل في التنفيس عن نفسه والتعبير عما يجيش في صدره ، اطفاء لظمئه واشفاء لغليله ، عله برتاح وتنفجر آزمته ويبرد قلبه . ولنآخذ فكرة كافية عن حالته النفسية واتجاهه في الحياة ، يجدر بنا أن نردد هنا أبياتا أخرى في مثال النعال النبوية لا تقل صدقا وحسرة وبكاء عن سابقتها .

أحب رسول الله حبا لو أنه كان فؤادى كما مس ذكره أهيم اذا هبت نواسم أرضه وما دعانى والد واعيى كثيسرة ومثال لنعلى من أحب حويته أجر على رأسى ووجهى أديمة صبابة مشتاق ولوعة هائم أصك به خدى واحسب وقعه ومن لى بوضع النعل من حر وجنتى تفيض دموعي كلما لاح نبوره فيا دمع عينى أنت دميع ناظرى ويا حر قلبى أنت تحسرم باطني

تقسمه قومی کفتهم قسائمه فی الورق جفاف أصیبت قوادمه ومن لفؤادی انتهت نواسمه الا الشوق الله الشوق هم اکتامه وهانا فی یومی ولیلی لائمه والثمه ظهورا وطورا ألازمه نعم أنا مشتاق الفؤاد وهائمه علی وجنتی خطوا هناك یلازمه لما شرعت فوق النجوم وبراجمه یكابد ذا البرق الذی أنت شائمه معیما به فارفیق فانیك ظالمه لصوقا به فاسكن لعلك راحمه لقلبی لعل القلب غیر جاحمه لقلبی لعل القلب غیر جاحمه

1) ن، م، ورقة ، 49

وفى الابيات الآتية سنقف على مظهر آخر من مظاهر هذا السلوك الروحى الذى يتجلى لنابصفة واضحة فى عواطف ابن المرحل ، وفى اتجاهه وموقفه من الحياة الدنيا . لقد أصبح زاهدا فيها ، راغبا عنها ، موليا وجهه الى الآخرة ، لينعم بخلودها وبرؤية المصطفى فيها ، وذلك تحول طبيعى فى السلوك الروحى ومرحلة من مراحل تطوره اذ الزهد والتصوف نتيجتان لحياة روحية تبدأ بالعبادة والتقوى وسائر الواجبات الدينية ، ثم تنتهى بالتفانى والتطرف والاعراض نهائيا عن الدنيا والاقبال كليا على ما له صلة بالآخرة . وابن المرحل يمثل هذا التطور اذا استعرضنا له أبياتا أخرى من قصيدة نظمها فى الزهد :(1)

بای لسان ام بای طبیب بیاض کما لاحت لنا کواکب سحره بیاض کما لاحت لنا کواکب سحره بنی ابلک لی آن البکا یبعث البکا بحارا رکبناها بغیبر سفائی بکی صاحبی حتی اذا مال فی الثری بحقك لا تبرح اطارحـك لوعتی بنی الدهر أما الدهر فهو عدوکم بوارقـه لاری فیها لعاطش بلاکم وأبلاکم تقلب صرفـه بعید عن التنفیق من بات ساهرا بخیل لعمری من دعاه حبیبه

يداوى عـذار من بياض مشيب تريك طلوعا مؤذنا بغروب على كاذب حالو اللسان حلوب وليس جوابى منك غير وجيب غرورا فان نهلك فغير عجيب وسالت مآقيه كمثل غروب على نغيم من انة وجيب وال لاح يوما في ثياب حبيب ولا خصب في الوائه لجديد فيا ويحكما من أنفس وقلوب رجاء بعيد لا مخاف قريب

وهكذا يسترسل ابن المرحل في وصف الدهر ووصف خديعته وتضليله للمومن مذكرا بتفاهة الحياة الدنيا ، بسرعة لزوالها وسفاسف معطياتها ، مترجما انعدامه لما تنظوى عليه من دنس واطماع ولما تجره على صاحبها من انخداع وغرور يهوى بهما الى الدرك الاسفل وبئس المصير ، مصير من ضحى بآخرته لاجل دنياه .

ولقد تعدنا نقل هذه الإبيات كلها من مصادرها رغم ما يكون فى ذلك من طول وملل ، اذ أن غايتنا هى اعطاء فكرة كافية للقارىء عن هذا الاتجاه الروحى الذى طبع الشعر المغربى فى هذا العصر وخير ممثل له كما نعلم هو مالك بن المرحل ، ولعل القارىء لمس معنا فى هذه الإبيات التى أوردناها صدق الإحساس ، وصفاء النية وأصالة التعبير وشدة الاخلاص والإيمان بالقول ، لا رياء ولا تزلف ولا نفاق فى ذلك

^{1}} العشريات الزهديــة ،

كما اعتدناه في أغراض أخرى من الشعر اذ ليس هناك ما يبعث على التزييف والافتعال والانتحال. انها التلقائية التي تكشف عن واقع نفسى استطاع النفوذ الى عالم «الانا الاجتماعي» ، كما يقول علماء النفس التحليلي ، لانه يحرر من الضغط والاكراه وعوامل التأثير والايحاء الموقت فوجد في شعر ابن المرحل معبرا أمينا ومترجما صادقا ؛ انها البيئة كذلك التي يتردد صداها في هذا الشعر المنبعث من الاعماق ، واذا كان ابن المرحل قد نظم في هذا الشعر القصائد الطوال ، واذا كان نظمه هذا يساير مراحل حياته فانه كان ، كما سبق أن أشرنا الى ذلك ، ممن يمثل البيئة المغربية في هذا العصر أوسع تمثيل نظرا للتجاوب الكامل الذي تحقق بين الطرفين .

وليس ابن المرحل سوى واحد من هؤلاء الادباء الذين انجبتهم البيئة المغربية في عصر بنى مرين والذين مثلوها أصدق تمثيل بالشعر أو بالنشر أو بهما معا . لقد كانوا كما رأينا في تراجمهم متشبعين بروح اسلامية متينة وبعقيدة روحية راسخة ، لم يصدر عنهم ما يخل بهذه الروح الثابتة ، لا افحاش في القول ولا انحراف في السلوك ، ولا استهزاء بالقيم الاخلاقية ، ولا عبث بالمثل الاجتماعية كما هو الشأن عند كثير من الشعراء والكتاب الذين عرفتهم مجتمعات أخرى أو المغرب نفسه في زمن آخر . لا حاجة بنا اذن الى الاطالة والتكرار الممل ما دمنا أتينا بنموذج يصبح أن يقال عنه انه أصدق نموذج ، يكفى أن نشير الى أن عبد العزيز الملزوزي ـ صاحب نظم السلوك ـ لم يفته في أرجوزته أن قدم لها بتوطئة حمد الله فيها وأثنى عليه ومدح نبيه (صلعم) كما مدح رسلا آخرين ، مما يدل على ايمان راسخ وعقيدة ثابتة وغم كون الارجوزة نظمت لغية معينة وهي مدح بني مرين

وكذلك فعل العبدرى في رحلته المغربية التي ضمنها كثيرا من الابيات والقصائد، انه كثيرا ما يتوسل بشعره أو بنثره ويدعو ربه ويصلي على النبي ويطلب منه الشفاعة في كل لحظة وحين للتكفير عن ذنوبه وفي الابيات التالية ما ينم عن هذه الروح التي لمسناها في شعر العبدري(1):

تغربت عن أهلى اليك ومالى تغربت عن أهلى الد أنت مطلبى سبوت على قصد اليك بهمة ولاحت لى الدنيا فابصرت عمرها وما عيشها الا كظل غمامة اهيم بدنيا ما تساوى قلامة أبى ذلك لى قصد الى الله صاعدا

واعرضت عن قيل عداك وقال محب له شوق الى وقال ترى عيش كسرى مثل عين دلال ولو زيد اضعافا كحل عقال وما ملكها الا كطيف خيال وأخضع مرتادا النيل نوال وعلم سما بى فيه نحو كسمال

وكذلك كان الشأن بالنسبة لابن رشيد ولابس بطوطة في رحلتهما يكفي القارىء أن يتصفحهما ليقف على هذه الظاهرة التي كثيرا ما تتجلي معالمها وآثارها

¹⁾ الرحلة المفربية نشر كلية الاداب الجزائرية تحقيق ابن جدو بدون تاريخ صفحة ، 21

في هذا الانتاج بصفة تلقائية (لا لبس فيها ولا غموض) الا أن القمة لم تظهر الا في زمن الشيخ احمد زروق (846 – 899) حيث عمت موجات روحانية سائر الطبقات والاوساط المثقفة ، وأصبح أفراد المجتمع المغربي يعيشون في جو من الروحانية المنافذة الى الاعماق المتمكنة في النفوس والمتحكمة في السلوك ، ويعتبر الشيخ أحمد زروق خير ممثل لهذه الفترة وأصدق معبر عنها ، نظرا للتجاوب العميق الذي وجدت في نفسه ، وبذلك كللت المجهود ووصل التطور في هذا السلوك مرحلة تكاد تكون نهائية . وفي هذا الميدان ترك لنا الشيخ زروق ، كما أسلفنا ، تراثا فكريا ضخما يعتبر كله صدى عميقا لهذا الجو وتعبيرا أمينا عن هذا الشعور الذي كان يختلج في يعتبر كله صدى عميقا لهذا الجو وتعبيرا أمينا عن هذا الشعور الذي كان يختلج في النفوس ، يمكننا القول ان جل ما كتبه زروق كان يدور حول الزهد والتصوف وهو دراسة علمية في جملتها أراد فيها مؤلفهااقامة التوازن بين الفقه والتصوف كي لا يطغى جانب على جانب آخر لما رأى في النفوس من جموح واندفاع وانسياق وراء

نتائج هذا الاتجاه الروحي بالنسبة لاغراض الشعر المغربي

معتقدات وأنواع من السلوك لا تخلو من ضعف وشعوذة وتدجيل .

ليس من الصعب على الباحث ، في أغراض الشعر المغربي ، أن يقف على الابواب التي طرقها شعراء هذا العصر وعلى مدى قوتها وضعفها . أن التيار الروحي الذى سيطر على البيئة المغربية وتمكن من نفوس أفرادها بجميع طبقاتهم يجعل القارىء ، نظرا لما سبق ، يتنبأ أو يتكهن بنتائج حتمية ناتجة عن السلوك العام الذى تميز به هؤلاء الافراد عن أدباء غيرهم ؛ لقد تعودنا أن نرى في بيات أخرى (في المشرق أو في المغرب) من الاغراض الادبية الزاهرة ، الخمريات والغزليات والمجزنيات وأنواعا أخرى لا تقل تهتكا وخلاعة وفحشاء ينطق فيها أصحابها بكل حرية ، بل بكل وقاحة . يطلقون فيها العنان لخيالهم السابح في اجواء بعيدة ، ولعاطفتهم الجامحة التي قليلا ما تقيم وزنا للقيم الاجتماعية والاوضاع المتعارفة والمعهودة . أن هذا النوع من الشعر اللذي تعودنا وجوده في مجتمعات أخرى يكاد لا يجد مكانا في البيئة المغربية في عهد بني مرين ، ذلك أن الاحوال الاجتماعية التي كان يعيش فيها المغاربة مهما اختلفت حيثياتهم ومهما كانت طبقاتهم كانت تشكل عوامل رئيسية وظواهر خاصة تقف حجر عثرة في وجه الانحلال الخلقي وتحول دون الانسياق وراء العواطف الجامعة المريضة ، وتعرقل التعبير بصراحة عن الاحاسيس الفردية الخاصة وعما يختلج في النفوس من انفعالات حسية أو وجدانية لها مساس كبير بالواقع النفسي للشاعر ، الذي لا يستطيع التنفيس عن نفسه بواسطة الشعر خوفا من سخط الرأى العام ومسايرة القيم الاجتماعية والخلقية والمثل العليا ، التي تشكل المعطيات الاجتماعية السائدة أو الطاغية حسب اصطلاح علماء الاجتماع ، ولكن ليس معنى هذا أن شعراء هذا العصر

كانوا دون غيرهم احساسا وتذوقا للفن ومظاهر الجمال في الطبيعة وفي الانسان ، كلا ؛ لم يكونوا أقل من غيرهم اعجابا بمنظر جميل أو تأثرا بوجه حسناء فاتن يسرى مفعوله في النفس ويولد فيها عواطف حب وشغف ، وكلف يجعل الشاعر يهيم بمحبوبته ويتوق اليها في تحرق وتلوع ، يدفعانه الى التعبير عن ذلك شعرا أو نثرا أو بكاء أو سلوكا من نوع آخر . نعم قد يختلف الافراد كما نعلم في درجة الحساسية ، وردود الفعل والتأثر ويتفاوتون في سرعة التعبير ودقة الفهم والملاحظة وقوة الخيال كما يختلفون بدنيا وسلوكيا ، ذلك من الحقائق النفسية المسلم بها علميا وتجريبيا ، الا أن شعراءنا كان يجمعهم سلوك عام ، طابعه الحشمة والرزانة والعفة والوقار ، نتيجة للعوامل التي وقفنا على اكثرها في الفصول السابقة نعم قد يكون واقعهم النفسى أو واقع بعضهم يناقض هذا السلوك المجتمعي الذي عرفوا به وتميزوا به عن غيرهم في بيئتهم ، من الممكن أن يكونوا من ذوى العواطف المريضة والسلوك الجامح الذي لا يقيم للاخلاق وزنا ولا يعرف للمعايير الوضعية قيمة ؛ من الممكن أن يكونوا خلعاء فساقا ، متهتكين ماجنين ، اباحيين شاذين ، ذلك كله ممكن ، الا أن ما سجل عنهم أو سبجلوه عن أنفسهم بواسطة شعرهم أو نوع آخر من سلوكهم ، يجعل الباحث يتفي عنهم هذه الاوصاف ويدرجهم تحت لواء مجتمعهم الذي كان رزينا ومحافظا مثلهم. اننا لا نجهل أن الفرد قد يدافع عن أفكار لا يومن بها واعتقادات ما أشد بغضه اليها ، ويسلك سلوكا مجتمعيا يخالف تمام المخالفة ما يريد أن يسلكه ، فيظهر بشخصير قوية تنال رضى الناس واعجابهم واستحسانهم لانها تساير الذوق العام والنماذج الاخلاقية والمثل العليا التي تسود المجتمع . وتلك هي الخديعة التي كثيرا ما يقع فيها مؤرخو الآداب الذين يكتفون بقراءة شعر لاديب ما فيحكمون على أخلاقه أو مميزاته النفسية أو مدى انسجامه مع مجتمعه بواسطة هذا الشعر ؟؟ أن الشاعر كثيرا ما يكون في صراع بين الانا النفسي ، الوراثي والوجداني والانا الاجتماعي المتكيف بالتقاليد والقوانين الوضعية التي تفرض عليه سلوكا ما أبغضه اليه وما أكثر معارضته لمبوله ونزعاته وذوقه ، ولكنه يستحيب اليه حباً في الرضا وطمعاً في الرئاسة أو الجاه أو أغراض أخرى . أن التحليل النفسي لمن العلوم التي تساعد الباحث الإدبي في مهمته ، في معرفة نفسية الشاعر وما يحركها من عوامل متكاملة أو متناقضة أو متصارعة . ليس من اليسير أن نحكم على شاعر ما بالعقم أو بجمود العواطف أو بالجموح أو بالانقباض أو بالانفعال أو بغير ذلك من خصائص النفس البشرية . ان الشعر كمادة أو انتاج هو عصارة لمنتج ولا يمكن أن يعرف انتاج معرفة واقعية وموضوعية الا اذا عرف المنتج وألم بجوانبه والظروف والملابسات المحيطة به ، والا فالنتيجة تكون سلبية أو عكسية أو مشوهة أو محرفة . لذلك عمدنا ، عندما عرضنا لترجمة كل من مشاهير هذا العصر الذين أدرجناهم في فصل سابق ، إلى القيام بهذه العملية التحليلية كى نعرف القارىء ، جهد المستطاع ، بالاديب الذي نريد أن نتحدث له عن انتاجه وعن نوع اتجاهه في هذا الانتاج ، اجتنابا للسرعة وتحريا للموضوعية والدقة في البحث الذي نحن بصدده . بعد هذا نعود فنقرر أن شعراءنا رغم ذلك التحفظ الذى أبديناه فى معرض هذا الحديث قالوا شعرا فى الشوق وفى الحب وفى الغزل وفى غير ذلك من الاغراض التقليدية المعهودة فى كل بلاد من بلدان العالم العربى . ولكى ياخذ القارىء فكرة بنفسه عن هذا الانتاج ويعرف هويته ومقدار رزانته أو انحطاطه نسوق له أمثلة من انتاج بعض شعراء هذا العصر الذين راعينا فى اختيارهم صفتهم التمثيلية للبيئة المغربية .

ففى الغزل والحب يقول ابن المرحل مثلا:

تملكتم عقلى وطرفى ومسمعى تيهتمونى فى بديىع جوالكم وأوصيتمونى لا أبوح بسركم فلما فنى صبرى وقل تجلدى شكيت لقاضى الحب قل احبىتى وعندى شهود فى الصبابة والاسى سهادى وشوقى واكتآبى ولوعتى

وروحی واحشائی وکلی باجمعی فلم أدری فی بحر الهوی أین موضعی فباح بسا أخفی تفیض أدمعی وفارقنی نومی وحرمت مضجعی جفونی وقالوا أنت فی الحب مدعی یزکون دعوای اذا کنت أدعی ووحدی وسقمی واصفراری وأدمعی(I)

هل في هذه الابيات ما يمس بالاخلاق أو ما يخل بالقيم الاجتماعية السائدة في المجتمع المغربي ؟ هل فيها من حيث اللفظ أو من حيث المعنى ما يذكرنا بشعر جميل بثينة أو عمر ابن أبي ربيعة أو بغيرهما من شعراء البيئة المشرقية أو المجتمع الاندلسى الذي حفل بكثير من الشعراء الذين تغزلوا فكانوا في غزلهم أقرب الى الخلاعة منهم الى العفاف والحشمة انه شعر عبر فيه صاحبه بكل بساطة وصراحة عن ما يتركه الشوق من أثر ، لاسيما في الجسم الذي يصبح سقيما ، عليلا أصفر اللون، سريع الانفعال . ان الشاعر وصف لنا جسمه قبل كل شيء وحالته النفسية بدون ما تحليل أو سبر لاغوارها ، فكان وصفه ماديا سطحيا واقعيا أكثر منه نفسيا ووجدانيا. ونحن لا نستغرب من ابن المرحل كونه يقف عند هذا المستوى ولا نريد أن نتعرض هنا للعوامل التي جعلته يقف عند هذا ألحد ولا يتجاوزه الى أفكار ومعاني يأتى بهافي تحليل عميق ودراسة للحب واثره في الفرد ، وانما الذي يهمنا أن تسجله هنا هو أنه لم ينحط ولم يسفل ولم يتعرض في شعره لظاهرة جسمية أو نفسية تمس بالاخلاق أو بمبادىء التربية الاسلامية التي تشبع بها كما تشبع بها أبناء وطنه . قد يقول قائل : ان ابن المرحل نظم أبياتا أخرى غير هذه وفي موضوع الحب كذلك ، وفي هذه الابيات قد يكون أكثر انطلاقا وحرية وأقل ترزنا ، نحن لا ننكر أن ابن المرحل نظم في نفس الغرض شعرا لا نتجاهل ما فيه من تعبير أعمق وأدق ، ولكننا نستبعد أن يكون قصد به ما يقصده غيره من شعراء المجون والخلاعة . وأحسن وسيلة بل

¹⁾ راجع القصيدة كلها في النبوغ المغربي ج 3 ص 725

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأقوى حجة تساعد على الحكم هي عرض المادة على انظار الحاكم ، فها هو ابن السرحل يتغزل مرة أخرى :

یا عبادل الیسك عنسی ذا نبازل كمشل طبی ما بین جغونه حسام والسیم یسب ثم ینبو السیم یصیب شم یخطی مهلا فدمی له حلال والفتح محرك الیسه والفتح محرك الیسه واللیل یهسز معطفیه واللیل یهسز معطفیه یسقیك بریقه مدامسا

لا يقرب ساحتى العسواذل يشقى بلحظة المنازل مخارقه له حمائسل واللحظ يطبق المفاصل واللحظ يم في المقاتل أو جدلنمي فيلا أجادل من طاف مسكن البلابل ما أقسرب عهده ببابل كالنص تهزه الشمائل كالنجم باسعد المنازل عشقا ولطافة الشمائل

يتضع من هذه الابيات التى أوردناها لمالك ابن المرحل فى الحب والغزل أن الشاعر بذل مجهودا آكبر بالنسبة للقصيدة الاخرى كى يعبر عن جمال مرثياته تعبيرا أدق وآكثر تحليلا واحتفالا بالجزئيات . ويتعلق الامر هنا كذلك باوصاف حسية فى غالب الاحيان ، تتناول الجسم وأعضاه وملامح الوجه ، ولون الخد ، وفتنة الطرف ، كما يشتمل على تشبيهات مستمدة من النبات من الورد والزهر والرائحة التى تفوح منهما . وهى تشبيهات مألوفة ، معروفة وردت فى شعر كثير من الادباء والكتاب سواه فى المشرق أو فى المغرب بشىء من التفصيل والتدقيق والتحليل العميق والعناية بالجزئيات وخبايا المرئيات والمسموعات والملموسات ، فعل القارى، النبي يريد أن يتحقق من ذلك وان يتوسع فيه أن يرجع الى انتاج شعراء وكتاب القرن الرابع والخامس(ه) والى آثار البيئة الاندلسية فى ميدان الادب (ابن حزم ، ابن العميد، بديع الزمان ، أبو بكر الخوارؤمى ، وغيرهم) .

وعلى كل فلا نرى فى هذا الشعر لا خلاعة ولا مجونا ولا هتكا للاعراض ولا افعاشا فى القول من حيث الشكل أو من حيث المضمون . قد يعارض هذا الرأى قائل : «إن ابن المرحل يتغزل بمذكر وذلك نوع من الافعاش والحب الشاذه . نم ان مالك يخاطب فى هذا البيت المذكر ، ولكن ليس معنى هذا أن الامر يتعلق بغزل شاذ أو بانحراف خلقى ، كل ما هنالك أن الكتاب والشعراء قد الفوا مخاطبة المؤنث بضمير المذكر ، وكان ضمير المذكر أخف وأسهل وأنسب للجرس الموسيقى ، واسبحت المادة جارية وأصبح الناس يظنون ذلك نوعا من الشنوذ فى السلوك الاخلاقى مع أن الامر لا يعدو ان يكون بدعة لفظية أثرت فى المشارقة كما أثرت فى المغاربة

عن طريق الايحاء والتقليد المقصود .

وفي هذا الاتجاء صار شعراء هذا العصر الذين قل منهم من خرج عنه وهوى بأخلاقه وبعواطفه الى درجة العبث والفحشاء . وحتى أمراء وملوك بني مرين الذين نظموا في الغزل التزموا الرزانة والعفة كسائر الشعراء الآخرين فلنستمع الى أحد منهم وهو أبو العباس احمد ابن أبي سالم(I) المريني :

أما الهوى يا صاحبي فألفت ورأيته قوت النفوس وحليها فتخذنه دينسا الى ومذهبا ولبست دون الناس منه حلة كان الوفاء لها طرازا مذهبا لكن رأيت له الفراق منغصا

وعهدته من عهد أيام الصب لا مرحبا يتفرق لا مرحبا

وللقارىء أن يقارن بين هذا الشعر المغربي وبين ما قاله في نفس الغرض شاعر أندلسي مشهور ، الوزير ابن الحكيم ، ليدرك الفرق بين الاتجاهين .

يتغزل ابن الحكيم قائلا(2):

هل الى رد عشيات الوصال وليل ما تبقى بعدها وغزال قد بدالي وجهـــه ما أمال التيه من أعطاف

وله أبيات أخرى منها :

ألا واصبل واصلبة العقبار وقم واخلم عذارك في غــزال قضيت مائس من فوق شعف ولاح بخسده السف ولام

سبب أم ذاك ضرب من المحال غير أشواق الى تلك الليسال فرأيت البدر في حال الكمال لم يكن الا على خيصل اعتبدال

ودع عنك التخلق بالوقــــار يحق لمثله خلم العذار تعمير بالدجس فسوق النهار فصار معرفا بين الدرار

لم نجهد أنفسنا في اختيار هذه الإبيات لعقد المقارنة بين شعر مغربي وشعر اندلسي ، وانما (عندما تصفحنا آثار الاندلسيين في الشعر) وجدنا بصفة تكاد تكون عفوية هذه الابيات التي لا يجب أن تعتبر نموذجا للغزل الاندلسي ، اذ هناك أشد منها صراحة وواقعية بل فحشاء وخلاعة . ولقد سقناها لاعطاء فكرة موجزة عن مدى الاختلاف بين الاتجاهين المغربي والاندلسي في هذا النوع من الشعر . ولو لا خوفنا من الخروج عن حدود الموضوع التي التزمنا باتباعها لاتينا هنا بنماذج كثيرة ومتنوعة من الشعر المشرقي أو الاندلسي . وكفي بذلك دليلا على ما اتسم به الشعر المغربي في عهد بني مرين من عفة ورزانة حتى في الاغراض التي هي أقرب الى الوجدان

¹⁾ راجع عبد الله كنون ، النبوغ المغربي ج 3 ، 738 .

²⁾ راجع ابن الخطيب ، الاحاطة ج 1 ، 73

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وميدان الانفعالات والضعف التي يجد فيها الشاعر نفسه ، ولو بحكم التقليد ، مضطرا الى التعبير عما يجيش في صدره من لوعة وهيام وكلف بمحبوبته ؛ لا يستطيم الاحجام عن ذلك الا بجهد جهيد وقهر للنفس وكبت وحرمان قد يخل باتزان شخصيته ويولد فيه عقدا نفسية لها ما لها من الاثر في سلوكه العقلي والوجداني والعملي ، فالفرق اذن واضح ، وهو راجع ، كما رأينا في موضعه ، الى الفرق بين البيئتين ، بيئة محافظة ، شديدة التمسك بتقاليدها الرزينة التي تكاد تشكل نوعا من التزمت والانقباض ، وبيئة أخرى عرفت بالانبساط والاقبال على الحياة والتمتع بملذاتها ونعيمها بما في ذلك من رقص وغناء وشرب خمر وعقد مجالس للهو واللعب والاستلذاذ بكل الشهوات التي توفرها البيئة المادية والاجتماعية ، لا فرق في ذلك بسين الرجال والنساء . وفي ذلك يقول عبد الله عنان : دوقد كانت الامة الاندلسية أمة مرحفة الشعور والحس ، تعشق الفن الجميل وتحب الحياة الناعمة المترفة وتجنح الى المرح والطرب»(I) وفي ذلك يقول ابن الخطيب(2) أيضا وهو واصف لتلك البيئة التي كان بعيش فيها : ووحريمهم حريم جميل موصوف بالسحر وتنعم الجسوم واسترسال الشعور وطيب النثر وخفة الحركات ونبل الكلام وحسن المجاورة ، وقد بلغن من التفنن في الزينة في هذا العهد والمظاهرة بالمصبغات والتنفيس بالذهبيات والديباجيات والتماجن في أشكال الحلي الي غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها ويكفكف الخطب ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة، .

هذا كلام أبن الخطيب وهو معاصر لهذه البيئة وشاهد عيان وفي وصغه لها ما يجعل القارئ يستفنى عن حجج أخرى تثبت مدى الفرق بينها وبين المجتمع المغربي الذي عرفنا عن أخلاقه وعادات أهله ما يؤكد هذا الفرق وما يجسم هذه العوامل المختلفة التي كانت وراء ظهور انتاجين أدبيين اتفقا في الغرض واختلفا في الاسلوب والمنهج .

ولعل القارى النس معنا ونحن نستعرض هذه الابيات الشعرية من المغرب ومن الاندلس أن الاوصاف لا تكاد تختلف في جوهرها عن ما عهدناه في البيئات الاخرى حيث اقتصر التشبيه غالبا على المرئيات والمسموعات والملموسات وحيث انتزعت أوجه الشبه من الطبيعة ومظاهرها المختلفة . مثال ذلك (3) دشاذن يضحك عن الاقحوان ويتنفس عن الريحان ، أعلاها كالغصن ميال، ومطلع الشمس من وجهها، وملقط الورد من خدها ومعرض الغصن من قدها «اختلسا قامة الغصن، ماء الجمال يترقرق في خده.

هذه أوصاف كثر ايرادها في شعر ونثر كتاب القرن الرابع كما ذكر زكى مبارك ، وهي التي جاءت كما رأينا في كثير من الشعر المغربي والإندلسي في نفس

¹⁾ نهاية الاندلس ، 248 (الطبعة الثانية) .

²⁾ ابن الخطيب ، الاحاطة ج 1 ص 17

³⁾ ذكى مبارك ، النثر الفنى في القسرة الرابع صفحة 95 .

الموضوع ، لكن مع شيء من الاختلاف ، فالتأثر هنا واضح ولا نكلف أنفسنا عناء البحث عن أمثلة أخرى ترمى الى نفس الهدف.

في المدح:

وفي المدح ايضا نجد الشاعر المغربي يتصف بنفس الصفة ويلتزم نفس الخطة ، وتسيطر على مشاعره وكلامه الروح الدينية التي توجهه توجيها وتوحى اليه بمعانى مدحه وأوصاف ممدوحه . ونتخذ هنا من شعر ابن المرحل نموذجا للاستدلال وللتأكد مما نذهب اليه في هذا الموضوع . فبمناسبة فتح مراكش وجه شاعرنا الى أبي مالك يوسف قصيدة يهنئه فيها مادحا اياديه البيضاء وفضله على الاسلام والمسلمين ومما جاء في هذه القصيدة على سبيل المثال:

> أضبحتله جنة الرضوان قد فتحت الحمد لله هذا ما وعدت ب لن يخلف الله وعدا كان واعــده يفتح مراكش عم السرور فسأ حبا بها الله مولانا الامير كــــما فدولة الدين والدنيا قد اختلفت من سنة الله أن يحيى خليقت وان يقيم بك الاسلام مــن أود لله منك مليك لانظيس له ومسن يتخيره للديسن خالقسه

أبوابها وفؤاد الدين قسد نعما يا خير من ولي الدنيا ومن حكما فاشكر يضاعف لك الحظ الذي قسما يكابد الغم الا قلب من ظلما حبا اباه فأسنسي فتحها لها في الفتح والنصر والتأييد بينهما على يديك وان يكفيها النقما وأن يديم بك الاحسان والنعما لولاك لكان وجود الدين قد عدما أعطاء نورا يحكى الظلم والظلما(I)

في هذه الابيات التي يمدح بها ابن المرحل أميره يجد القارى، ذكر الله في كل بيت تقريبا ثم ذكر الاسلام . ان النصر الذي حققه أبو يوسف هو في الواقع نصر للاسلام وللمسلمين واحياء لدينهم الذي «لولاه» لعدم . أن هذه المعاني التي أتى بها في مدحه تكاد كلها تدور حول معطاة روحية خالصة فلا أثر فيها تقريبا للمادة ولقوتها ولا للجاه ولا للرئاسة وأبهة الحكم ورفاهيته ونعيم نتائجه المادية . ان الفتح وسيلة فقط لا غاية ، هي اقامة الاسلام للفوز بالثواب في الآخرة . واذا تركنا ابن المرحل والقينا نظرة على شعر عبد العزيز الملزوزي في نفس الغرض ، نجده هو الآخر في مدحه للسلطان يعقوب لا يكاد يخرج عن نفس الاطار . فلنستمع اليه اذن وهو يخاطب

تنام عيون الناس طرا وأنـت في

أرى كل جبار بسيفك يصغر وكل مليك عن فعالمك يقصر صلاح العلا والخلق ما زلت تسهر بعثت الى يغمور بالصلح معلما وقلت عساه بالبصيرة ينظر

¹⁾ راجع القصيدة كلها في الذخيرة السنية ص، 98

فلم يغتبط بالصلح جهلا وغلظة أردت بأن تهديسه للرشد والهدا فانك لا تهدى من أحببت للهدا

ومن قوله أيضا في أرجوزته :

سيرة يعقبوب ابن عبد الحق سيرته أن يقبرأ الكتابا يقوم للكتاب ثبلث الليل حتى اذا ما أصبح لاح وارتفع وضع بالتسبيع والتقديس يعقد للكتب إلى وقت الضحا

فیا عجبا من خاسر کیے فی یخسر وکیف یسری رشدا شقسی مغیسر أتدفسع عنه ما علیـه مقــدر(I)

قد حاز فيها قصبات السبق ويذكر العلوم والآدابا وما له عن ورده من ميل قام وصلى لللاه وركع حتى يتم الحزب في التغليس ثم يصلها كفعل الصلحا(2)

ان في هذه الابيات ، سواء منها ما يتعلق بالارجوزة أو بغيرها ، ما يكفى للدلالة على ما كان يدور في خلد صاحبنا من معانى المدح وأوصاف الممدوح ، وسواء كان صادقا في مدحه أو متكلفا فانما جرى على لسان غيره من أوصاف يتعلق كلها بالدين وبالعمل من أجل الاسلام والآخرة انتقل اليه عن طريق الايحاء والتأثير في هذا الميدان .

ومن يطلع على أرجوزته يجد فيها من بدايتها الى نهايتها هذا الطابع الذى تميز به الشعر المغربى فى هذا العصر سواء فى المدح أو فى الغزل أو فى غيرهما من أغراض أخرى . وكذلك كان العبدرى فى رحلته(3) حيث يقول مادحا السلطان أبا يعقوب :

فمن مبلغ علياه من نظمى ضعيف القوى أودت بانضاء جسمه الا لا تطل شكوى فلست بمشتك فذاك الذى أفنى الطفاة بسيف طغى الكفر حستى صده بجيوشه الى الملك السامى صعودا على الورى الى يوسف سيف الاله الذى أتى

رسالة مستعد شكى ظلمة الظلم فيافى برت أهوالها مصمت العظم الى ملك البرين واسكت على رغم فلم يبق منهم مسن يشير الى ظلم كما صد ذو القرنين ياجوج بالردم وليثهم فى الحرب والغيث فى السلم لحسم العدا ان الحسام من الحسم

وهكذا يسترسل العبدرى فى قصيدته مستوحيا أوصاف ممدوحه ومعانى مدحه من شخصية اسلامية نموذجية ، غايتها القضاء على الظلم والدفاع عن الاسلام

¹⁾ نظمت هذه التصيدة منة 669 ، انظر اللخيرة السنية ص 108

²⁾ نظم السلوك ص، 77_79

³⁾ انظر الرحلة المغربية للمؤلف نقسه ص 3 ، 4 ، 5 .

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومحو الطغيان مهما كان مصدره . وتلك هى تعاليم الشريعة الاسلامية التى تأمر الخليفة باتباع الحق وانصاف المظلوم اذ «العدل أساس الملك» . فالعبدرى هنا خلافا لما جرت عليه العادة عند شعراء آخرين فى مجتمعات أخرى معاصرة لم يحفل بأبهة الملك ولم ينحط فى مدحه قصد الحصول على فائدة مادية أو مالية ، وانما المدافع هو فى قرارة نفسه ، ايمانه القرى بالاسلام ، وشدة غضبه على من خالف أوامر الاسلام . انها العاطفة الصادقة التى تجدها هنا تنطلق للتعبير عن الواقع النفسى الذى كان يعيشه العبدرى فى ظروف عرف عنها القارى وفى غير هذا المكان ما عرف من اضطرابات سياسية وأحداث اجتماعية كأن لها مفعولها القوى وأثرها المباشر فى سلوك الافراد والجماعات .

في الهجساء

واذا تخطينا المدح الى الهجاء ، فاننا لن نصطهم بمظاهرة مخالفة او مناقضة لهذا الظاهرة الروحية التي وقفنا على بعض آثارها فيما سبق . قد نعثر على نقد لاذع وهبجاء مر ، ولكننا لن نجد ما نهى الاسلام عنه من هتـــك للحرمات ونهش للاعراض وفجش في القول وتشنيع وتقبيح للصور البشرية ، لن نجد ما عهدناه في بعض البيئات حيث كثر السباب والحقد والظغينة التي تدفيح بصاحبها الى المكر والخديعة والتعبير عن ذلك بكل صراحة وبكل واقعية لا تعرف معنى للحشمة والعفة والاخلاق الفضيلة بصفة عامة . ولذلك لم يجد هذا النوع من الشعر ميدانا خصبا ينطلق فيه وينتعش، لان المقومات التي كان يعتمد عليها في مجتمعات اخسري في انتعاشه وازدهاره لم تكن تساعده في نبوه ومعرفة طريقه ، بل كانت على العكس تعرقل سيره وتقاومه اذا حاول النهوض. لذلك خلا (او كـاد) الادب المغربي من الهجاء في هذا العصر ، او على الاصح لم يخلف الشعراء في هذا الميدان الا انتاجا ضئيلا لا يستطيع الباحث ان يعرف منه الا الشيء القليل ، وأغلب الظن أن السبب في قلته مو ، كما ذهبنا ، تلك القيود التي كان يفرضها المجتمع المغربي على أبنائه من رزانة واستقامة وتمسك بشعائر الاسلام ، اذ لم يكن في المغرب حينذاك صراع بين الاخلاق والادب كما راينا في مجتمعات اخسري . حيث عمت الخلاعة وحيث اطلق الشعراء العنان لعواطفهم فاستباحوا كل رذيلة وكل هنات وتتبعوا عورات الناس ، وصوروها ابشع تصوير واشنعه ، وقبعوا وجه الانسان وأعضاءه ، فاذا هو قرد أو حيوان مفترس أو خليقة وحشية ، مخيفة ، تأتى من الافعال والسلوك ما يندى له الجبين وما يصم الآذان عنه سمعه . لسنا هنا في حاجة إلى ذكر امثلة عن تلك البيئات التي انتشر فيها هذا النوع من الادب المكشوف

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعم الاوساط المثقفة وغير المثقفة رغم ما قام حوله من ضجات صاخبة يدافع اصحابها دائما عن مستوى الاخلاق ، في شيء من التفاؤل احيانا وفي كثير من اليأس والتشاؤم أحيانا أخرى . ان المصادر التاريخية حافلة بذلك النوع الادبى سواء كان ذلك مدحا او هجاء او غزلا . يكفى القارىء ان يرجع قليلا الى الوراء ليطلع مثلا على ما خلفه جرير والفرزدق والاخطل وغيرهم من تراث أدبى ضخم بقى مسجلا وتعمل صفحاته كثيرا من هذا الادب الذي لا يقيم وزنا للاخلاق ولا يعسرف حدا للسباب والهجاء وتتبع الهنات والعورات وفضح الشهوات ، ويكفى القارىء كذلك مثالا ان يلقى نظرة على انتاج البيئة العربية في بغداد او غيرها من البيئات الشرقية العربية ليقف بنفسه على مدى استخفاف كثير من ادباء القرن الرابع او غيره بالاخلاق العامة واستهتارهم بأعراض الناس وتتبع سوآتهم واحصائها بكل دقة ووقاحة وبكل سفالة وصراحة . فلا الاشارة تكفى ولا الثورية تجدى ولا الكناية تنفعهم في مقاصدهم وصراحة . فلا الاشارة تكفى ولا الثورية تجدى ولا الكناية تنفعهم في مقاصدهم الهجائية . ولعل من الموضوعية والانصاف ان ناتي ببعض الامثلة لشعرائنا كي نقف على مذهبهم في هذا الغرض من الشعر ولكي ندرى ما كانوا يختلفون به عمن نقف على مذهبهم في هذا الغرض من الشعر ولكي ندرى ما كانوا يختلفون به عمن سواهم فيه .

من المعروف تاريخيا وادبيا ان ابن الخطيب حل بالمغرب في فترات منقطعة وفي ظروف مختلفة أشرنا اليها سابقا ، ومن المعروف ايضا أن أبن الخطيب عند حلوله بالمغرب سفيرا او لاجئا اتصل بملوك بني مرين وبخلفائهم وبوجهاء الدولة وكبار مثقفيها من فقهاء وادباء احتك بهم احتكاكا كان احيانا مبنيا على الصداقة والمودة وأحيانا اخرى كان سببا في نشوب اصطدامات ومناوشات وخلافات سجلها التاريخ كما سجلها ابن الخطيب نفسه بما تركه من آثار في الموضوع الذي نحن بصدده . نذكر من تلك الصراعات ، على سبيل المنسال والايجاز لا على سبيل الحصر ، ذلك الخلاف الذي وقع بينه وبين ابي العباس القباب . والموضوع يتلخص فى كون ابن الخطيب استدعى القباب لزيارته ، لكنه لم يستجب لهـــنه الزيارة لسبب عاقه عن القيام بها . فما كان من ابن الخطيب الا أن قام وقعد ورأى فسى ذلك مسبة له واهانة لشخصيته الكبيرة وحطا من قيمته العظيمة ، فاعتبرها كبيرة وهي صغيرة وجعل منها كما يقال ، قبة وهي حبــة ، فنهض وشس عـن ساعديه واستعد للانتقام وتسلح بسلاح الانفعال والانسياق وراء عواطف السخط والحقد والكراهية ، وقام بالمرصاد وتصدى له ولامثاله بالنقد بل بالشبتم واللعن والقدف والطعن ، فنال منه ومن اعراضه كما نال من جميع المتهنين مهنته من الموثقين والعدول . ولم يترك لا كبيرة ولا صغيرة الا ونسبها لهم ولا عيبا الا اختصهم به ، لا لذنب ارتكبوه أو لمخالفة قاموا بها ضد من ناصبهم العداء وحشرهم كلهم بدون تمييز ولا تفاوت في طبقة سفلي من طبقات المجتمع الفاسي بل المغربي وانما لكونهم من نفس الطبقة التي ينتمني اليها من قامت ضده هذه الضجة الصاخبة وهذه الحملة العنيفة التي صبها ابن الخطيب في قالب خاص وصاغها في كتاب مستقل سماه « مثلي الطريقة في ذم الوثيقة ، ورغم ما جاء في هذه الرسالة من قذف وسباب تظم ابن الخطيب فضلا عن ذلك ابياتا تنم عن موقفه من ابن القباب وسنخطه عليه والتعريض به والتشهير بساوئه والى القارىء من هذه الابيات (I) :

وغير غريبة ان رق حـــر واما زاجر الـورع اقتضاهــا وغشيــان المنازل لاختبار

على من حالسه مثلى رقيقسة ويأبى ذاك دكسان الوثيقسة يطالب بالجليلة والدقيقة السخ

ادرك القباب ما لهذه الحادثة من اثر في نفس ابسن الخطيب فاعتذر له قائلا : (2)

و کانها تکهن بسوء العاقبة رسولك لم يبين لى طريقه فلا ماوى لدى ولا اباء وهب الى اسات فكم صديق وانى فيك معتقد ولكين على ذى الود فى من ود حتى على ذى الود فى من ود حتى

تقرب من حديقتك الانيقسة ولكن ساء في الغرض الطريقة تدلل واعتدى فجفي صديقسه أرى الايام حاقدة حنيفة يفارقه وان اضحى دفيقسه

هذا كل ما جاء فى رد القباب على ابن الخطيب وهو ، كما يرى ، جواب يلتمس فيه صاحبه العذر ولا يتعرض فيه لاى نوع مسن الفحش والسوء ، كلام خال من التعريض والتشنيع والتقبيح ومع ذلك لم تهدأ ثورة ابن الخطيب ولم يهدأ وطيسه لانه لم يكفه ذلك التبرير وذلك الاستسماح لغروره وشدة اعتزازه بنفسه وقسوة طغيانه وحدة مزاجه وسرعة انفعاله فاسترسل فى لومه بل فى هجائه المر قائلا:

من استغضب من هذه الخليقة بعثت بمرسل لك مع عتيق وثوقت السفير الذنب لما وقد عارضت عذرك باعتراف وهل بعد اعتراف من نـزاع

بعغضبه بانكار الخليقة فلم تطع الرسول ولا عتيقه عجلت به ولم تبلغه ريقه فزدت مذمة تسم الطريقه وصل بعد انفصال من وثيقة(3)

فليقارن القارىء بين هذا الرد الجارح وبين رد القباب الهادىء المسالم ليدرك الخلاف بين الرجلين ، بين مغربى وبين اندلسى تصادما فتعارضا شعرا ، فكان الاول هادئا ، ورعا ، مستسلما والثانى ثائرا ، حانقا ميالا الى الهجاء اللاذع الفاحش الذى يمزق الاعراض ويفتك بالاخلاق .

¹⁷² س ج الاحاطة ج س 172. (1

²⁾ نقلنا بعض هذه الإبيات عن دابن الطيب من خلال كتبه) للاستاذ محمد التطوائي (تطوان - 1959) صفحة 152 .

³ ن م ، 153

ولعل من الانصاف كذلك أن نثبت هنا صدى ما جرى بين أبن رشيق التغلبي ومالك أبن المرحل لتقوية الحجة والتدليل على صحة الراى والتأكد من الاتجاه الذي ساد هذا العصر وطفى على الشعر المغربي مهما اختلفت أغراضه وأنواعه ، ولنورد هنا بعض الابيات من قصيدة لابن رشيق نظمها في هجاء أبن المرحل حيث يقول :

واشدها دركا لذلك مالسك واحال فكيه الكلام الآفسك وفى كل محتنط لسان آفسك واعف سيرته الهجماء الماعك لمز لاستار المحافل هاتسك ويعاف رؤيته الحالم الناسك من فيه ما فيه ولا يتماسك يرغو كما يرغو البعير البارك ظهرا لبطن وهو لاه ضاحسك فالذئب ان اعفيته بك فاتسك فى مثل هذا للملوك سالسك

لكلاب سبتة في النباح مدارك شيخ تفاني في البطالة عبره كلب له في كل عرض عضة احل شمائله السباب المفتري والذ شيء عنده في محفل يغشي مخاطره اللئيسم تفكها انفاسه وفساؤه من عنصسر النفاسه وفساؤه من عنصسر والدحر باك لانقلاب صروفه لا تأمن للذئب دفع مضرة عار على الملك المنزه ان يسرى فكلامه للدين سسم قاتل

الخ(I)...

لقد اتينا بهذه الإبياب قصدا وتعمدنا نقل ما جاء فيها من الفاظ نابية وعبارات وقحة تحريا للحقيقة ومراعاة لموضوعية البحث الذى نسعى فى أن يكون مجسرها نزيها لا تعسف فيه ولا تحيز ، وما ايرادنا لمثل هذه الالفاظ المخجلسة والمسلمة للفوق الا حرص منا على الامانة العلمية وعرض أمثلة كافية على أنظار القارىء كى يستطيع الحكم بعد الاطلاع عليها والمقارنة بينهما . اوردنا هذه الامثلة كما جامت في مصادرها رعم كونها تظهر مناقضة لما ذهبنا اليه من كسون الشعر المغربي ينطبع بطابع العفة والمرومة سواء كان شعرا فى الهجاء أو المدح أو الغزل . ذلك مناقد يلاحظه القارىء علينا بادىء ذى بدء ، ان ما اوردناه فى ابيات ابن رشيبق يكاد يكون كله افعاشا وهتكا للاعراض وتشويها للانسان خلقيا وخلقيا ومسا بكرامته ومروءته وسمعته ، وذلك صحيح الى درجة نجد فيها انفسنا وكاننا مسع جرير والفرزدق فى نقائضهما ، ذلك ما يخالف الذوق ويعارض القيسم الانسانية والمجتمعية ويمس فى الصميم الشريعة الاسلامية التى تنهى عن مثل هذا السلوك . والمجتمعية ويمس فى الصميم الشريعة الاسلامية التى تنهى عن مثل هذا السلوك . وسميم البيئة المغربية التى تشبعت بهذه الروح الاسلامية المتجلية فى سلوك ابن المرحل صحيم البيئة المغربية التى تشبعت بهذه الروح الاسلامية المتجلية فى سلوك ابن المرحل صحيم البيئة المغربية التى تشبعت بهذه الروح الاسلامية المتجلية فى سلوك ابن المرحل

¹⁾ انظر الاحاطة المجلد ألاول صفحة 198 .

والقباب وغيرهما . ان ابن رشيق عاش في سبتة بدون شك الا ان استيطانه بهذه المدينة الثغرية ونشأته بمرسية و نثرة تنقلاته بالاندلس واستقراره بها نهائيا ، كل ذلك حعله يتأثر بهذه البيئة وينزع منزع ابنائها في السلوك والاتجاه ، فكانت احلاقها وعاداتها غالبة عليه ومؤثرة في ذهنه ونفسه . يذكر ابن الخطيب(٢) و.... منتم الى صاحب الثورة على المعتمد، كما يذكر انه دخل الاندلس وحط بها بالمرية ، وقعد اصيب بأسر عياله فتوسل الى واليها من قرابة السلطان الغالب بالله ، ولحق بغرناطة ومدح السلطان بها ونجحت له مشاركة الرئيس بالمرية ... وفي كلام ابن الخطيب ما يدل على ان صاحبنا قضى فترة كبيرة من عمره في الاندلس . واذا كان اتى بذلك الكلام البنىء ووصف ابن المرحل بتلك الاوصاف القبيحة ، فالغالب على ان ذلك لا يعدو ان يكون من باب الاختلاق ومحظ افتراء لما نعرفه عن ابن ألمرحل من عفة ووقار ولما يتميز به ابن رشيق من طبع حاد يكاد يكسون شاذا وسلوك يكاد يكون غريبا ، نتيجة لعوامل فيزيولوجية ونفسية اتينا على ذكرها في موضوعها . ثم.ماذا كان بعد هذه السفالة التى اظهرها ابن رشيق في شعره في موضوعها . ثم.ماذا كان بعد هذه السفالة التى اظهرها ابن رشيق في شعره وبماذ! قابلها مالك ابن مرحل ؟ كل ما هنالك ، حسب ما وقفنا عليه ، انه لم يزد وبماذ! قابلها مالك ابن مرحل ؟ كل ما هنالك ، حسب ما وقفنا عليه ، انه لم يزد على ان اجاب بهذين البيتين .

كلاب المزابـــل اذيننى بابــوالهــن على دارى وقد كنت اوجعها بالعصا ولكن عوت من وراء الجدار

ذلك جواب ابن المرحل ، ورده على ابن رشيق ، وبذلك انتهت المعركة التى لولا رازنة الخصم الاول وعفته وحشمته ومراعاته للاخلاق لسمعنا من أذيالها الكثير ، كما سمعنا عن المعارك اللفظية التى كانت تدور فى بيئات لخرى بين جرير والاخطل. لكن روح التسامح والتسامى تغلبت على روح الحقد والظغينة بفضيل التربيسة الاسلامية .

اننا لا تنكر رغم ذلك وجود شعراء نظموا في الهجاء كما لا ننكر ما قد يكون في هجائهم من نقد جريح . نجد ذلك عند العبدرى المعروف بحدة طبعه وبتشاؤمه وبسرعة انفعاله وولوعه بالنقد الذي قد يكتسى صبغة لاذعة ، كما نجده عند غيره من الادباء الذين تعرضنا لهم في هذا البحث او الذين لم نجد متسعا من الوقت في هذا البحث لدراستهم ومعرفة آثارهم . لكن ذلك لا يقصد قصدا ولا يلتزم فيه اصحابه ما التزمه غيرهم من معاني شنيعة ، والفاظ نابية ، تخرج من المعهود والمالوف . قد يكون ذلك من قبيل الصدف وفي ظروف يشتد فيها خصام ويحتدم فيها صراع بين اديبين او فقيهين ، فينطلق الانفعال وينطلق معه السخط والغضب فيها صراع بين اديبين او فقيهين ، فينطلق الانفعال وينطلق معه السخط والغضب من كلا الجانبين . وتلك حالات نفسية ووجدانية تعترى جميع الافراد مع فرق في درجة الاثر والحساسية والانفعال ، وسرعة رد الفعل ، ان ذلك من الظواهسو

¹⁾ الاحساطة ج 1 ص

الاجتماعية التي لا يفلت منها فرد من افراد مجتمع ما ، ان الاخلاق الحسنة ، والتربية المتينة ، والتيسك بالمبادى الاسلمية وتقليده ، كل ذلك يهذب السلوك ويضغط على الغرائز ويحد من شذوذها وقلوة جموحها ، ويضبط العلاقات بين الافراد على أساس المساواة والعدل والتسامح والتعاطف ، ويحلل المودة والاخامحل العداوة والبغضاء والترامى بالصفات المخجلة وبكل ما نهى عنه الشرع الاسلامي .

ادب الرحلات

ان الرحلة انواع كما يعلم القارى، منها ما هــو سياسى ، ومنها ما هو دينى ، ومنها ما هو تجارى ، ومنها ما هو تعليمى او سياحى او سفارى الى غير ذلك من الانواع التي تعددت وتنوعت بتعدد وتنوع الاغراض التى كانت تقصد من ورائها . ان طبيعة المجتمع واخلاقه وعاداته وظــروفه السياسية والاجتمـاعية والاقتصادية وطقوسه الدينية هى التى كانت ولا تزال تحــدد طبيعتها وتكيف محتوياتها وتطبعها بالطابع الذى تفرضه روح العصر . وقد وجدت هذه الرحلات منذ زمن بعيد عند الامم الاجنبية (بطيلموس) ، كما وجدت عنــد العرب فى الجاهلية وخصوصا مند ان انتشر الاسلام ، واصبع المسلمون ، نظرا للعوامل التى ذكرناها، وخصوصا مند ان انتشر الاسلام ، واصبع المسلمون ، نظرا للعوامل التى ذكرناها، الرحلات التى سبجلها التاريخ العربى رحلة ابن حوقل (المسالك والممالك) ورحلة الرحلات التى سبعلها التاريخ العربى رحلة ابن حوقل (المسالك والممالك) ورحلة اليعفوبى (كتا بالبلدان) ورحلة المسعودى (مروج الذهب) ورحلة المقدسي (احسن التقاسم فى معرفة الاقاليم) ورحلة ياقوت الحموى (معجم البلدان) الى آخر ما خلف من ثرات فكرى من هذا النوع الذى يعتبر من اهم ما جادت به قرائـــع الرحائين العرب فى القرون الوسطى(ت)

وليس يهمنا ان نستقصى كل هذه الرحلات ونلم بجوانبها والظروف التى المنت فيها ، لان ذلك يتطلب ان نفرد له بعثا خاصا ومستقلل لا يتسع مداه لموضوعنا . وانما الذى نهتم به فى هذه الظروف هو محاولتنا اعطاء فكرة للقارىء عن هذا النوع من الانتاج الفكرى فى عصر بنى مرين .

ان من المسلم به ان الرحلات تمتد جذورها الى ما قبل الاسلام رغم آثارها ثم الى ما بعد ظهور الاسلام عند العرب ، كما يرجع تاريخها الى عهدود سبحيقة عند الامم الاخرى ، الا اننا نرى انها اصبحت فنا قائما بنفسه ، مستقلا بذات له خصائصه ومميزاته ، ورواده الذين قصدوه قصدا والتزموا ما التزموه لتحقيقه والتفانى فى اجادته والعمل على تخليده قدر الامكان . ولا ادل على ذلك من تلك الاهوال والمخاوف والاخطار التي كانوا دوما يتعرضون لهسا ويتحملونها لتحقيق

¹⁾ ظهر بحث چدید 4, هذا الوضيوع ــ وهـــو چدیر بالدراسة : André Miquel, La géographie humaine du monde musulman, Paris, 1967.

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

غايتهم بشىء كبير من الصبر والتجلد والصمود امام العراقيل التى كانت تعترض سبيلهم حتى لكادت تصبح رحلاتهم نوعا من المجازفة والمغامرة التى لا يستطيع القيام بها الا نفر قليل من الشجعان والابطال.

فما هي اذن الدوافع لذلك ؟ ما هي الاغراض التي كان الرحالون المغاربة يرمون اليها من وراء مغادرتهم لبلادهم وتنقلاتهم عبر المدن والاقطار ، بل القارات ؟ لقد تعددت الآراء واختلفت الاقوال حول ذلك وظن البعض ممن تعرضوا لهذا النوع من الانتاج الفكرى ان الدوافع هو مجرد اشباع غريزة حب الاستطلاع واكتشاف المجهول والتأكد من صحة الروايات والاتصال باجناس أخرى الى غير ذلك مسن الاسباب . واذا كان هذا الراى ينطبق على بعض الرحلات في عصو من العصور ، فان لنا رأيا في الموضوع تكون لدينا على ضوء الاحداث التي كان المغرب يعيشها.

ان الرحلات المغربية في عصر بني مرين تسبتمه مقوماتها من البيئة المغربية قبل كل شيء ، ثم من خارج هذه البيئة ، ومن المسافة التي كانت تفصل بينها . وبين الاماكن التي كان يقصدها كل مسلم لاداء فريضة الحج . أن المجتمع المغربي كما وقفنا على كثير من جوانبه ، كان يشكل عاملا اساسبيا في بروز هذا الفن . ان المغربي كأن يعيش في جو من الروحانية النافذة الى الاعماق والتربية الاسلامية الخالصة التي تشبع بها الافراد والجماعات في هذا العصر الذي نؤرخ له . لذلك نرجح ، خلافًا لما ذهب اليه بعض من كتب عن الرحلات المغربية ، ان الدافع ديني قبل كل شبيء وإن الرغبة الملحة التي كانت تساور النفوس هي مغسادرة الاوطان تأدية لفريضة الحج ، والحج من اركان الاسلام التي يتـــم بها اسلام المـومن اذا توفرت لديه الاستطاعة . لذلك كان تحقيق هذه الرغبة بالنسبة له شيئا واحبا ، لا يطمئن له بال ، ولا يخلص له ضمير الا اذا ادى هـــذا الواجب ، واذا لم يــؤده فذلك لعجز مادى او مرض او لمانع قاهر لا يمكن التغلب عليه . فلا السياخة اذن ولا التجارة ولا المغامرة كانت غاية لهذه الرحلات التي خلفتها لنا البيئة المغربية على عهد بني مرين . ان العبدري وابن رشيد وابن بطوطة كلهم غادروا اوطانهم للقيام -بهذه الهمة الدينية . لقد عبر كل منهم عن هذه الرغبة في رحلته التي يمكن للقارئ، ان يرجع اليها ليرى ذلك بصريح العبارة ، وبصفة مقصــودة لا لبس فيها ولا غموض ، نعم ، قد تظهر أغراض أخرى في محتوى هذه الرحلات لكنها قد تاتي عفوية ، قد تكون وليدة الظروف التي احاطت بالرحالة المغربي عند ما كان مقيما ببلدة غير بلده ، فاضطر ، نجاة بنفسه أو تحقيقا لبعض الحاجيات المتولدة عن . مقامه ، ان يسلك سلوكا آخر يكتسى صبغة سياحية أو تجارية أو استطلاعية أو غيرها . لكن ذلك حسب رأينا يدخل في اطار عام ويعتبر مسبباً لاسباب او نتيجة حتميه لم تكن تخطر بباله ولا تدور بخلده ورب معترض يلاحظ في هذا شيئا من التعسف او التطرف ويقول ان هؤلاء الرحالين كانوا يقصدون كذلك اغراضا أخرى من ، منها الاتصال بالعلماء والشيوخ وكبار الفقهاء والمجدثين للاخذ عنهم والتحقيق فسي سندهم والروايات التي قد تكون صدرت عنهم . وجوابنا على هذا الاعتراض هو أن ذلك صحيح لكننا نرى ان الغاية كانت لا تختلف جوهريا اذ العلوم التى كان يقصدها الرحالة المغربى تكاد لا تتجاوز ميدان الشريعة الاسلامية ، من فقه وحديث وتفسير وقراءات . فليس هناك اذن فرق ما دامت الغاية ترمى الى التضلع والتبحر فى العلوم الدينية . فليرجع القارى تخلك ، ان شاء ، الى هذه المخلفات الادبية المغربية ليتحقق من هذه الظاهرة التى اشرنا اليها فى انتظار التعرض اليها بشىء من التفصيل فيما سياتى . واذا كان بعضهم قد استغرب من كون ابن بطوطة ذهب بعيدا واجل رحلته الى الاندلس رغم كون المسافة قصيرة والوسائل متوفرة ، فاننا لا نرى ، والحالسة هذه ، داعيا للاستغراب اذ الرحالة المغربى لم يكن فى نيته ، فى بداية الامر ، سوى زيارة قبر النبى واداء مناسك الحج ، لذلك فضل الامتحان والمغامرة والتعرض أصدقائه . لم يكن فى البيئة المغربية كما نرى اليوم او فى ذلك العصر فى بيئات أخرى تصارعا حادا او تنافسا شديدا بين الافراد قصد تكديس الامسوال وتحقيق أخرى ما والموطة ، ان ذلك يعد فى نظر الشرع الاسلامى غرورا كما جاء فى القرآن الكويم (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) دانما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد» .

على أننا نعود فنقرر ان هـنه الاهداف اذا كانت دينية في صعيمها ، فهي كغيرها من الظواهر الاجتماعية تدخل في نطاق عام وفي اطار اجتماعي اكسبها قوة واضفي عليها صبغةالمجد والاحترام والتقدير والسمعة الطيبة التي لا يمكن ان تاتي عن طريق الفرد وحده ، بل تنتج عن روح الجماعات وتفاعل الطبقات والتكيف السائد والسائر مفعوله بين الناس ، احب الفرد ام كره . فالباعث هنا مهما ظهر دينيا محضا قد امتزج بقوة اجتماعية قد تختفي وراءه في الظاهر ولكنها تظل تحركه وتنميه فيتعاونا معا على خلق ما يسمى بالدافع حسب اصطللح علماء النفس او العامل حسب علماء الاجتماع . فلولا البيئة التي كانت متشبعة بروح اسلامية متينة، ولولا انصرافها بصفة عامة عن المادة وتخلصها من سيطرتها على التفكير والسلوك في مرافق الحياة الاقتصادية والسياسية ، لولا ذلك لما قوى ذلسك الباعث ولما اكتسى هذه الصبغة القوية الدافعة .

ازدهار أدب الرحلة في عهد بني مرين

ازدهر أدب الرحلة على عهد بنى مرين ازدهارا لم يسبق للمغرب أن عرفه فى العصور التى مضت ، فلم يذكر لنا التاريخ ، بل لم يسبجل لنا من هذه الرحلات منذ بداية الاسلام فى المغرب حتى العصر المرينى ، اى ما يقرب من سبعة قرون الا عددا قليلا لا نكاد نعرف منه بالنسبة للمغاربة سوى رحلة نزهة المشتاق للشريف الادريسي والمعجب فى تلخيص اخبار المغرب لعبد السواحد المراكشي

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي . انه زمن طويل اذا ما قيس بالزمن الذي استغرقته دولة بني مرين التي لم يتجاوز عهدها قرنين ونصف قرن ، ومع ذلك أنفت في هذه المدة القصيرة ثلاث رحلات تعتبر اهم واعظم ما الف في هذا الفن ني تاريخ المغرب . الفت فيها الرحلة المغربية للعبدي ومل العيبة في طول الغيبة لابن وشيد الفهرى وتحفة النظار في عجائب الامصار لابن بطوطة .

وليس بخاف ما لهذه الرحلة من شهرة طبقت الآفاق ، كان لها اثر في مختلف المجتمعات العربية وغيرها ، اذ شغل بها كثير من المثقفين وغير المثقفين الذين وجدوا فيها ما يناسب مستواهم الفكرى وما يخاطب خواطرهم ويجول في انفسهم . ان أعظم رحلة خلفتها لنا البيئة المغربية (ملء العيبة) ترجع الى هذا العهد الذي نتحدث عنه . وأشهر رحلة شغلت الناس في كل مكان هي رحلة ابن بطوطة التي لا يزال النقاد والادباء والمؤرخون من العرب والمشرقين يخصونها بعنايتهم وبأبحاثهم المتنوعة الى اليوم . هذا التراث الفكرى الخالد هو من انتاج قرائح مغاربة عاشوا كلهم في ظل بني مرين ، وتكيفوا ببيئتهم المغربية متفاعلين مع معطياتها الاجتماعية والمادية . فالمسألة هنا بالنسبة لهذا العصر مسألة كيف وكم : انتاج ضخم من مستوى عالى فالمسألة هنا بالنسبة لهذا العصر مسألة كيف وكم : انتاج ضخم من مستوى عالى فالرحلة اذن بلغت مستوى النضج وارتفعت الى قمة الشهرة والصيت الذائع في هذا العصر الذي نؤرخ له . وما نظن أنفسنا في حاجة الى اعطاء أمثلة على هذه الشهرة التي نالتها الرحلات التي انتجتها البيئة المغربية في عهد بني مرين ، اذ الامر معروف في التاريخ وتاريخ الرحلات على الخصوص . فلنكتف اذن بما أوردناه ولنتساءل الان عن عوامل هذا الازدهار .

ان هذه العوامل تكمن في البيئة نفسها . ان الظروف السياسية التي كان المغرب يعيشها والازمات التي كان يتخبط فيها والمشاكل التي كانت تعدت له مع غيره من الدول المجاورة كل ذلك أدى بالإضافة الى عوامل أخرى دينية واجتماعية الى بعث هذا الفن وتطويره وتشجيع رواده لتجود قرائحهم ومواهبهم الفكرية والارادية بما خلفوه لنا من آثار في هذا الميدان . لسنا ننسى ما هو نوع العلاقات التي كانت قائمة بين المغرب والاندلس من جهة ، ربين المغرب الاقصى والمغربين الاوسط والادني من جهة أخرى . انها علاقات كثيرا ما اصطبغت بطابع الحدة والتوتر ، بل بالقوة والعنف اذ كان تدخل بني مرين في سياسة بني عبد الواد تدخلا سافرا يعتمد على القوة والبطش والسلاح لاخضاع هاتين الدولتين للسلطة المغربية المركزية . لسنا ننسى ما كان ينتج عن هذه العلاقات من تنقلات ورحلات فردية واجتماعية تلقائية أحيانا ومفروضة أحيانا أخرى . ان القوات المغربية كانت دائما على استعداد لخوض المعارك كما كانت تخوضها بالفعل داخل المغرب وخارجه ؛ أما العدوة الاندلسية فعلاقاتها مم المغرب علاقات تارة ودية وأخرى عدائية نتيجة لسياسة بني الاحمر فعلاقاتها مم المغرب علاقات تارة ودية وأخرى عدائية نتيجة لسياسة بني الاحمر

المتقلبة والمتلونة حسب الظروف والاغراض السياسية والمصالح الشخصية . فالتنقلات بين العدوتين كانت جارية وسهلة لقرب المسافة ولاعتماد المغاربة في كثير من الظروف على الشواطئ البحرية في تنقلاتهم الى الشرق وغيره .

على أن هذه المعطيات البيئية والاجتماعية التي تكتسى صبغة غير مباشرة لم تكن وحدها كافية بخلق حركة مقصودة وتشكيل عوامل رئيسية من شأنها أن تنهض بأدب الرحلة وتتقدم به الى الدرجة التي نالها . ان أدب الرحلة وجد في بني مرين خير مشبجع ، وأقوى مساعد مباشر ؛ وأكثر من ذلك أن أبا عنان المريني كان قد خصص لصاحب رحلة تحفة النظار وهو عائد من سفره استقبالا حارا تقديرا لجهوده وتشجيعا لانتاجه ، فلما حضر الى فاس «قبل يده الكريمة وتيمن بمشاهدة وجهه المبارك وأقام في كنف احسانه بعد طول الرحلة والله تعالى يشكر ما أولاه من جزيل احسانه وسابغ امتنانه، . وكان أبو عنان المريني قد أخذ العدة وأعطى الاوامر لكاتبه محمد ابن جزى لتناول الرحلة بالتدوين والتنسيق حفظا لها من الضياع وتخليدا لذكر مؤلفها . وطبقا لتعليمات ملكه ونفذ ابن جزى الاشارة الكريمة بأن كتب ما شاهده في رحلته من الامصار وما علق بحافظه من نوادر الاخبار ويذكر من لقيه من ملوك الاقطار وعلمائها الاخيار وأوليائها الابرار «ان الاس العالى صدر للعبد المنقطع الى خدمة مولاه بأن يضم أطراف ما أملاه الشيخ أبو عبد الله متوخيا تنقيح الكلام وتهذيبه معتمدا ايضاحه وتقريبه، . أليس في هذا كله ما يدل على العناية الخاصة التي أولاها الملك المريني للرحلة ولصاحبها ؟ . وعلاوة على ذلك ، فان القارىء يجد في نصها كثيرا من الاسئلة التي كان أبو عنان يطرحها على ابن بطوطة بقصد الاستفسار والاستيضاح ، مما يدل على شدة رغبة أبي عنان في الاطلاع على ما احتوته من اخبار ووصف للامصار .

واذا كان ابن بطوطة قد نال هذه الحظوة عند أبى عنان تقديرا لانتاجه ، فان ابن رشيد ، هو الآخر ، قد سبق له فى ظل السلطان أبى الربيع أن حظى بنفس العناية المولوية ، ولا أدل على تلك العناية التى لقيها وتلك المكانة التى أدركها فى البلاط المرينى من تحقيق رغبته فى الانتقال الى مراكش بعد الاختيار الذى تركه له السلطان فى الاستقرار حيث شاء. انها التفاتة ملكية خاصة توجت باستدعاء الرحالة من مراكش وجعله من خواص البلاط ، ذلك تشجيع مباشر نعتبره من العوامل الرئيسية التى نهضت بستوى أدب الرحلة فى هذا العصر .

أما الآن فيحق لنا أن نتساءل عن خصائص هذا الفن الذي يتميز به عصر بني مرين .

ان الرحلة تمتاز ، بخصائص عامة ومشتركة تنطبق على جميع الرحلات التي

الفت في هذا العصر ، رغم كونها تختلف في جزئيات تنفرد بها هذه عن تلك ، كان يكون مثلا أحد العناصر المكونة لها جميعا أقوى أو أضعف في هذه أو في الاخرى .

فما هي اذن هذه الخصائص ؟

ان من يتصفح رحلات هذا العصر ويمعن النظر فيها ، يجدها تمتاز بطابع خاص هو بروز العنصر الذاتي ، وتغلبه على العناصر التي تكون أسسها . ان الرحالة نفسه هو مصدر الملاحظات والاوصاف والمشاهدات ، وعنه تصدر الآراء والافكار والانتقادات الموجهة تارة للاشخاص وأخرى للاشياء ؛ كثيرًا ما يمدنا بانطباعــه ، واحساساته ، ومشاعره المختلفة المتولدة عن احتكاكه بالاشخاص وبالاشياء . ان ما نجده في الرحلة قد لا يتعدى هذا الميدان ، ميدان تفاعله مع البيئات التي يزورها أو الافراد الذين يتصل بهم ، انها شخصية الرحالة بطبيعته ومزاجه ، وبوجدانه وبفكره ، بحالاته النفسية المتقلبة ، بعاداته الذهنية والمُجتمعية بعواطفه الخاصة ، بميوله الفطرية والمكتسبة ، التي تطغى على الحوادث فتصفها كما تشاء وكما يتفق لها لا كما هي في الواقع ؛ إن ما نجده في هذه الرحلات من أوصاف وحكايات وأخبار أو مشاهدات للدور والبيئات لا يتعدى في غالب الاحيان العنصر الذاتي الى العنصر الموضوعي . أن للخيال أثره وللعاطفة والثقافة الشخصية دورهما فيما يحكى وما يوصف وما يستقبح وما يستملح . ان الرحالة في هذه الظروف قلما يستطيع التجرد عن ذاتيته في حكمه على الاشخاص والاشياء ، فلا محل للفكرة المجردة الا في ظروف خاصة وميادين معينة . انه من الصعب عليه أن يتحرر من هذا العنصر ويتصدى لرحلته بروح علمية أى بوصف ما هو كأثن فعلا وما هو موجود لا ما يظنه كائنا أو يتمنى أن يكون ، الشيء الذي يشوه الحقيقة ويحرف الاحكام ويخل بالموضوعية والحياد الفكرى ، لذلك اتصفت رحلة العبدري بالمبالغة والتطرف في الحكم على سلوك الافراد الذين لقيهم في طريقه كما اتصفت أحيانا بالعنف والنقد الجريم ، والوصف الشنيع للاماكن التي مر بها ، فاذا بها في نظره خالية قفراء لا انسان فيها ولا حيوان ، لا نبات ولا حجر ، تبكى خظها وكأنها شخص أصيب بأذى أو فقد عزيز لديه . فلنستمع اليه وهو يتحدث عن مدينة قيروان : «ثم وصلنا الى مدينة قيروان فدخلتها مجدا في البحث غير وال ، فلم أر الا رسوما محتها بد الزمان ، وآثارا يقال عنها كان وكان ، والاحياء من أهلها جفاة الطبع ، ما لهم من رقة الحضارة باع ، ولا في معنى من معانى الانسانية انطباع وكسدت سوق المارف بينهم .. والمدينة ليس لها بر ولا بحر ، ولا شجر ولا نهر ، وضعت في سجنه قرعاء لا ماء فيها ولا مرعى، الى أنة ال وهو يصف طرابلس : «ثم وصلنا الى مدينة طرابلس وهي للجهل مأثم وما تلعلم بها عرس أفقرت ظاهرا وباطنا وذمها الخبير بها سائرا أو قاطنا ، اكتنفها البحر والقفر ، واستولى عليها من عربان البر ونصارى البحر النفاق والكفر وتفرقت عنها الفضائل ، لا ترى بها شجرا ولا ثمرا ولا تخوض في ارجائها حوضا ولا نهرا بل nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أقفر من جوف حمار وأهلها سواسية كأسنان الحمار النع ...، وهكذا يسترسل العبدرى فى وصفه للديار والامصار ولاهلها ناسبا لهم ولها كل رذيلة وكل سيئة فهى قفراء روهم حمر ؟ . هل هذا هو الواقع ؟ هل كان المبدرى غضبان يوم زار طرابلس والقيروان ؟ كم مكث فى تلك الديار للحكم عليها وعلى أهلها الذين أصبحوا كلهم فى نظره جهالا .

وذا كان ابن بطوطة آكثر مسالمة وأقل حدة في نقده وأميل الى القص والاخبار ، فانه لم يسلم رغم ذلك من تأثير الانفعال وسلطة العادات وضغط العاطفة ، مما قاده الى التسرع في الحكم حتى اعتبرت كثير من مشاهداته وأوصافه للإشياء وللاشتخاص نوعا من الخرافة والغرابة ، وعد ذلك بعض النقاد من المعاصرين وغيرهم مجرد أوهام وأحلام . ولقد سبق لابن خلدون أن شك في أحاديث ابن بطوطة واعتبرها كذبا كما رماه بنفس التهمة ابن الخطيب الذي لم يتورع هو الآخر عن الحط من قيمة ابن بطوطة والشك في أخباره .

ونحن ، وان كنا لا نستبعد ما جاء في هذه الرحلة من مبالغات وأخبار قد تكون بعيدة عن الواقع ، الا أننا لا نعتبر ذلك كذبا أو تلفيقا مقصودا نظرا لما عرف به الشيخ ابن بطوطة من إستقامة ونزاهة وأمانة في نقل ما سمع وما شاهد . وانما الذي حدث هو أن مؤلف الرحلة لم يستطع التحرر من سلطة «الانه» الجبارة لياتي بالفكرة المجردة ، والمساهدة الواقعية ؛ لان الوصف الواقعي يحتاج الى شروط ذهنية ونفسية ووسائل أخرى خارجة تتضافر كلها وتتعاون في الجهود الذي يبذله الواصف كي يؤدى مهمته الملمية بكل تجرد وموضوعية . فالمسألة هنا مسألة سوء فهم وقع فيه من تصدوا لرحلة ابن بطوطة . لان الكذب نوعان : نوع يتعلق بعلم الاخلاق ، ونوع يتعلق بعلم النفس . لذلك يجب أن لا نطلق الكلام على عواهنه كما يقال . ان الحواس قد تخطىء وقد تصيب في وظيفتها ، وان الحالة الذهنية قد تتأثر بالحالة النفسية الطارئة على الفرد ، فتشوه تفكيره وتحرف أحكامه من حيث لا يشعر . ومع النفسية الطارئة على الفرد ، فتشوه تفكيره وتحرف أحكامه من حيث لا يشعر . ومع في نظر نا أن يكون نتيجة من نتائج تفلب المنصر الذائي وتحكمه في كثير من محتويات في نظر نا أن يكون نتيجة من نتائج تفلب المنصر الذائي وتحكمه في كثير من محتويات ألرحلة . وهو الطابم الذي تنطبم به كما رأينا في بداية هذا التحليل .

النزعسة الدينيسة

تتسم الرحلة المغربية ، الى جانب ما أوردناه ، بسمة دينية تلمسها فى كل فصل من فصولها ولدى كل مناسبة او حادثة وعند كل مؤلفيها ؛ ولا غرابة فى

ذلك ، فإن القوم كانوا من صميم البيئة المغربية ، تشبعوا بتربية اسلامية متينة . كما تشبعت بيئتهم بها ، ولقد رأينا في الفصول السابقة الى أي حد كانت هذه الروح متغلغلة في النفوس والى أي درجة كانت مسيطرة على العقول والسلوك الفردي والجماعي . ان هذه الرحلات سجل لعبارات دينية كثيرة وآيات قرآنية وأحاديث تبوية والفاظ اسلامية تاتى عفوا في سياق الكلام ، كما يقصدها مؤلفو الرحلة قصدا حامدين الله تعالى في كل وقت ومصلين على نبيه الصطفى . هذا من حيث الاسلوب اللفظي والتعبير الصريح ، أما السلوك الذي يكتسي صبغة عملية كتلاوة القرآن ، أو القيام بالصلاة والصيام ، أو أى فعل يدخل في دائرة التقوى والعبادة ، فانك تلمس ذلك في كثير من فقرات وفصول الرحلة . والامثلة على ذلك كثيرة ومتنوعة . ولا يسعنا أن ننقل منها الا ما يتسم له مجال هذا البحث . ولقد أعطى ابن بطوطة الثل بنفسه في هذا الميدان حيث أورد في رحلته ما يغني عن كل شرح وتحليل. لقد كان في سلوكه مثالًا للاخلاق الفاضلة وللعفة والرزانة وحسن المعاملة ، فكان كلما نزل بالمدينة قصد مسجدها ليصلي فيه ويذكر كتاب الله ، وقصد أولياءها وصلحاءها وزهادها ، تبركا منهم ، وانتفاعا بوعظهم . يحكى ذلك بصراحة في رحلته ويقول : وانه زهد في الدنيا وولى وجهه نحو الآخرة يصوم خمسة أيام بدون انقطاع، ويعتكف في المساجد حتى أصبح وهو ذازل بدلهي رجلا صوفيا ، اعتزل الناس وخلا بنفسه مدبرًا عن الأكل والشرب . وفي ما يلي يقف القارىء بنفسه على هذه الروح الدينية وهذا السلوك الاسلامي الذي يتجلى بكل بساطة وصراحة في هذا النص: دعندما وصلنا ، يقول ابن بطوطة ، في الصباح الى البلد الامين مكة المكرمة شرفها الله تعالى ، فوفدنا منها على حرم الله تعالى ودخلنا البيت الحرام الشريف الذي من دخله كان آمنًا ، من باب بني شيبة ، وشاهدنا الكعبة الشريفة ، زادها الله تعظيما وهي كالعروس تجلى على منصة الجلال ، وترفل في برود الجمال ، وصلينا ركعتين بمقام ابراهيم وتعلقنا بأسطار الكعبة وشربنا من ماء زمزم وهو لما شرب له حسب ما ورد عن النبي والحمد لله الذي شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم... (١) هذا مثال أوردناه مقتبسا من رحلة ابن بطوطة ويلاحظ القارىء اخلاص صاحبه لدينه وتشبثه القوى بمقيدته كما يلاحظ التكرار اللفطى للكلمات والعبارات الدينية التي يصطبغ

ولم يختلف العبدرى عن ابن بطوطة فى هذا الميدان ، فى هـذا السلوك الروحى الذى يتميز به هذا الفن الادبى كسائر الفنون الاخرى ، فهو رغم قلة تحدثه فى رحلته عن عبادته ، صلاته ، صيامه ، زهده ، ورغم أنه لم يكثر كابن بطوطة من الذكر الحكيم والالفاظ والعبارات الدينية التى وجدنا منها كمية كبرى فى تحفة النظار ،

بها حبادا النص .

¹⁾ تحقة النظار ص، 236 -

فان رحلته لا تخلو من آثار هذه الظاهرة الروحية التي انطبع بها سلوكه كما انطبع بها سلوك غيره من مؤلفي الرحلات . ولنا في مؤلفه أمثلة كثيرة بعضها جاء عفويا وبعضها قصده الكاتب قصدا ، من ذلك قوله عندما وصل الى تلمسان : وولما وقفنا على باب تلمسان صادفتنا العادة الكريمة من لطف المولى سبحانه فالفينا قافلة تخرج وهي كبيرة تزيد على الالف وقال لنا قائل على الباب ان له في محاولة الخروج نحوا من ثلاثة أشهر ، فدخلنا الى البلد وخرجنا ساعة دخولها الى زيارة قبر الصالحين بالموضع المعروف بالعباد وزرت قبر الشيخ الصالح آية زمانه أبي مدين رضي الله عنه (Σ) . ثم يضيف : «ثم وردنا على مدينة أزمور وزرنا قبر السادة المدفونين بها من الصالحين نفعنا الله ببركاتهم وختمنا الرحلة بزيارة قبر شيخ الصالحين وقدوتهم ، شرف لماغرب الاقصى وفخر شمس زمانه أبي محمد صالح بن ينصارن أفاض الله علينا من بركاته وأمد بصائرنا بنور يستمد من مشكاته ثم من الله علينا بجمع الشمل والاجتماع بالاهل له الحمد والشكر كثيراه(2) من هذه الامثلة التي سقناها على سبيل الاختصار ولم نراع في نقلها لا دقة ولا اختيارا يتضح للقارىء كيف كان سلوك العبدرى وكيف كانت أخلاقه التى انطبعت بروح الاسلام وبتعاليمه التي أثرت في فكره وفي نفسه وجعلته يهتم هو الآخر بالاولياء والصالحين باحثا عن قبورهم لزيارتها ، مكثرا من الحمد والشكر لله . ولعل القارىء بزيد اقتناعا اذا ما اطلعناه على نص آخر للعبدري وهو يتمثل في قصيدة نظمها صاحبها وبعث بها من مدينة القيروان الى ابنه محمد تقتطف منها هذه الابيات ، يقول بعد المطلم الآتي : (3)

وصية والدبسر حفسى محرضة على نهبج التقى كفى عوضا به من كل سيى وصال تواصل العيش الهنى وان أبدت مطاوعة الابسى ولا تغبط بنى سوى تقسى تعلق حبها من فرط غيسى لغيس الواحد الصمد العلى فلا عمسرت حنانيك يا بنسى وتقفو أثر والدك العصى

اصغ سمعا أوصك يا بنى وقد شاهدت فى الدنيا أمسورا فكن بالله عنها مستعيضا ولا تأسف لفرقتها ففيها فلا تك يا بنى بها ولوعسا وكن بالله ذا ثقة تقيا وباعد ما استطعت حليف دنيا بنى تسوؤنى منك المعاصى بنى يسوؤنى منك المعاصى وبيح أن أكون عصيت ربى

اليس في هذه الابيات ما يدل على تلك التربية الروحية التي كونت شخصية العبدرى وطغت على تفكيره ووجدانه . فهو ، كما يرى القارىء ، يوصى ابنه باتباعه

¹⁾ الرحلة المنربية س. 132

²⁾ ن٠ م٠ س٠ 133

³⁾ ن٠ م٠ س٠ 66

فى نهجه وفى سلوكه نحو ربه . يوصيه بالطاعة وبالتمسك بدينه وبالانصراف عن مشاغل الدنيا وشهواتها ومادياتها ، بل يذهب الى أبعد من ذلك ويقول له بصراحة : «كن ذاهدا لتناول المرتبة العليا» .

فالعبدرى لم يكن باقل من ابن بطوطة تربية اسلامية وسلوكا روحيا وان كنا نعترف ان تحفة النظار أحفل وأزخر بالمعانى الإسلامية والالفاظ والعبارات الدينية ، والسبب فى ذلك كما أشرنا ان ابن بطوطة كان كثير الثقة بالاولياء والصالحين وغيرهم الى درجة جعلت بعضهم يتهمونه بالسذاجة والاعتقاد فى الخرافات والاوهام وكلام المشعوذين ، مما أدى به الى نقل بعض الحكايات وبعض الاخبار التى تدل على أن ناقلها لم يتحر فيها الواقعية ولم يفحصها ، ولم يخبرها قبل نقلها لتكون أكثر مطابقة للواقع ، وتناسبا مع المنطق والحكم السليم . وهنا كان يجب على هؤلاء النقاد أن يفرقوا بين الهدف الناتج عن قوة العاطفة والصدق الذى يمليه العقل المتحكم فى الامور والاشياء . فالمسألة ليست مسألة صدق أو كذب كما يظن البعض وانما كان يجب أن يرجع فى ذلك الى ابن بطوطة لتحليل شخصيته قبل اتهامه بالكذب أو يبحب أن يرجع فى ذلك الى ابن بطوطة لتحليل شخصيته قبل اتهامه بالكذب أو الصدق ، فكان ذلك واجبا تحريا للموضوعية ، للالمام بالعوامل النفسية والمواهب العقلية التى كانت تنبئى عليها هذه الشخصية . وقد سبق أن تعرضنا لبعض هذه العوامل فى ترجمتنا للرجل .

اما ابن رشيد ، فقد كان ، كما رأينا في ترجمته ، رجلا متدينا عرف بتخصصه في علم الحديث ، فضلا عن ماله من اطلاع وتفوق في علوم أخرى . وفي رحلته ما يجسم هذه الثقافة ويدل على هذا التكوين الذي لقيه هو وغيره من أبناء وطنه . نكتفي هنا ، رغبة في الاختصار ، بايراد مثال نظنه كافيا لاعطاء فكرة للقارىء عن هذا الاتجاء الذي لم يختلف فيه صاحب «ملء العيبة ... عن غيره . قال ابن رشيد : هوبمقربة من العين أصل شجرة يابس ، فيه غصن كبير ناعم أظنها سدرا يزعم الناس انه (صلعم) قعد هناك فاقتربت الشجرة والله أعلم ، ولقد اتفق لى هناك أذ أخذت شيئا لاني رأيت بعض من حضر هناك آخذ شيئا منها متداركا فرأيت شخصا قد أقفل الى ولم أعرفه من قبل ولا بعد ، فقال حتى أنت تفعل ذلك ، فعلت ولم ! وما تنكر من ذلك فقال ان كان حقا ما ذكر فيقتدى الناس بك في الاخذ منها فيفنيها كما نرى حافل بالمعاني الدينية ودال على رسوخ عقيدة صاحبه . وكنتيجة لهذه الروح الدينية التي طبعت مؤلفي الرحلة كما طبعت رحلاتهم المختلفة ، يلاحظ أن انتاجهم هذا خلا أو كاد يخلو من كل سلوك غايته تجارية أو اقتصادية . فلم يكن يخطر ببال هذا خلا أو كاد يخلو من كل سلوك غايته تجارية أو اقتصادية . فلم يكن يخطر ببال الرحالة ولا يدور بخلده أن يتجر أو يقيم علاقة اقتصادية مع من يتصل بهم من سكان الرحالة ولا يدور بخلده أن يتجر أو يقيم علاقة اقتصادية مع من يتصل بهم من سكان

¹⁾ راجع ميكر وفيلم الخزانة المامة بالرباط نقلا عن مخطوط الاسكوريال .

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البلاد التي يزورها . ومع ذلك فالفرصة كانت سانحة والوسائل متوفرة للحصول على المال . لقد حظى ابن بطوطة على الخصوص بمقابلة الملوك وذوى الرئاسة والمال فولج البلاط الهندى ، ولذلك كان فى استطاعته أن يستثمر هذه الظروف وهذه المناسبات . الا أنه كغيره من مؤلفى الرحلات لم يكن يفكر هذا التفكير ؛ لم يرد استغلال هذه المواقف التي كان يتعالى عنها ويتخذها وسبيلة لغاية معروفة . ولذلك يمكننا القول ان رحلات المغاربة في هذا العصر خلت من عنصر المادة بجميع مظاهرها واشكالها ، واعنى بالمادة هنا كما أسلفت ما يدر وبحا ، ما يغنى الفقير ، ما يكسبه مالا أو عقارا أو جاها أو قوة أخرى من هذا النوع .

عنصسر التوصيف

أما العنصر الثاني الذي تتكون منه هذه الرحلات فهو اعتمادها بصفة اجمالية على الوصف، وصف البيئة الجغرافية والبيئة الاجتماعية ، الشيء الذي لم نظفر به في فنون أخرى ، شعرا كانت أم نثرا . فكثيرا ما كنا نامل ونحن ندرس الانتاج الادبي أن بتعرض الشاعر أو الناثر لوصف الطبيعة وأحوال المجتمع المغربي من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بوجه عام . وقد سبق أن لاحظنا نفس الظاهرة في المؤلفات التاريخية التي كتبت عن المغرب في هذا العصر أو غيره . لقد رأينا أن المؤلف كثيرا ما يهتم بالجانب السياسي أو العسكري ولا يتعرض لما سوى ذلك من المعطيات الاجتماعية الا بصفة عفوية أو عابرة . ان الشاعر كما رأينا يكاد يقصر انتاجه على المديح الديني أو النظام التعليمي سواء كان الامر يتعلق باللغة أو بالنحو أو بالبيان والعروض. أما في الرحلة فكثيرا ما نظفر من صاحبها بمعلومات اضافية عن الاماكن التي زارها أو الطرق التي مر بها أو العادات والتقاليد التي لاحظها لدى كثير ممن احتك بهم من السكان . فكثيرا ما أطلعنا ــ على الخصوص ــ ابن بطوطة على أحوال الهند والصين وغيرهما من الاقطار التي لم نكن نعرف عنها الا الشيء القليل. فجاء خبره ممتعا ومفيدا ، فظنه الناس غريبا وخارجا عن العادة لانهم ما تعودوا عليه أو ما سبق لهم أن سمعوا عنه شيئا ، فالشيء النادر كثيرا ما يستغرب ويعد قبيحا أو حسنا حسب الاهواء والنزعات والميول والاذواق المختلفة . وتلك نتائج الذات القاعلة والمنفعلة وبها يقسد الحكم على الاشياء أو يصلح . وعلى كل حال فقد أمدتنا هذه الرحلات بمعلومات غنية كنا في أشد الحاجة اليها : معلومات بيئية ومعلومات بشرية تتعلق بالسكان وبثقافتهم العامة ، باذواقهم ومشاربهم . ورغم كون هذه المعلومات لبست عامة وشاملة ، بمعنى أنها لم تكن تتصف بالطابع الموضوعي المجرد ، فأنها ساعدت كثيرا من المؤرخين والجغرافيين والادباء على أداء رسالتهم : وكم كنا نود أن تتناول هذه الرحلات المجتمع المغربي فتصفه ماديا واجتماعيا كمسا فعلت بالنسبة erted by Liff Combine - (no stamps are applied by registered version

للمجتمعات الاخرى ، لكنها لم تنصب الا على خارج المغرب ، على المفازات ، على المدن الواقعة في طريق الرحالة أو الاماكن التي حل بها مرغما أو بقصد الضيافة . تفوق في هذا الميدان ، كما أشرنا ، ابن بطوطة ثم يليه في الترتيب العبدري ثم ابن رشيد الذي لم يغفل هذا الموضوع رغم اهتمامه بمواضيع أخرى استأثرت بعنايته ، ومع الاعتراف لابن بطوطة بالاكثار من ايراد الاخبار والاوصاف والاتيان بالجزئيات والتفاصيل التي قد لا نجدها عند غيره من الرحالين ، فاننا نلاحظ أن العبدري في وصفه أكثر دقة وتلخيصا وفنية ان صم التعبير ، وأشد تعمقا في النظر الى الاشبياء ، أيكون ذلك راجعًا لاختلاف ثقافة الرجلين؟ أو لاسباب أخرى قد تخفي علينا؟ وعلى كل حال ، فليس من السهل تعليل ذلك الفرق وذلك التفاوت بين رجلين ما دام ابن جزي هو الذي حرر رحلة ابن بطوطة ونقحها ونسقها وبوبها . فله اذن يد في ما جاء من الاوصاف والاخبار رغم ما التزم به في مقدمتها من مراعاة للتص وتحرى للدقة والموضوعية . وكلامه الصريح في ذلك يدل على أنه أضاف أشياء ونقص أخرى توضيحا المتحاني وتقريبا للرحلة من أدهان الناس. فالتوضيح قد يتناول الاسلوب كما يتناول الجوهر ، وخير حجة هي أن نستمع إلى ابن ترجى وهو يتحدث عن مقاصده وأهدافه و تحديد التزاماته (I) .. «نقلت معانى كلام الشبيخ أبي عبد الله بالفاظ موفية للمقاصد المتى قصدها وموضحة للمعانى التي اعتمدها وربما أوردت لفظا على وضعه فلم أخل بأصله ولا فرعه وأوردت جميم ما ورده من الحكايات والاخبار ولم أتعرض لابحث عن حقيقة ذلك وقيدت المشكل من اسماء المواضيع والرجال بالشكـل والنقط ليكون أنفع في التصحيح والضبط وشرحت ما أمكنني شرحه من الاسماء العجمية لائها تلتبس بعجمتها على الناس، . ففي هذا النص الصريح ما يغنى عن التعليق ، ويكفى للدلالة على ما أشرنا اليها سابقا .

وقبل أن نتخلص الى جوانب أخرى ، نرى من المفيد هنا ايراد أمثلة خاصة بوصف منار الاسكندرية ، ذلك المنار الذى تحدث عنه كل من ابن رشيد والعبدرى وابن بطوطة . وقصدنا فى ذلك هو اعطاء فكرة عن أسلوب كل من الرحالين الثلاثة فى موضوع واحد تتأوله كل منهم بالحديث والوصف . اما ابن رشيد (2) فقد قال فيه د يعجز عنه الوصف ويحار فيه الواصف وضخامته من داخله اكثر مما هو عليه من خارجه وهو من عجائب المصنوعات وغرائب المرئيات، وأما العبدرى فيصفه كما يلى : «وأما المنار فقد كتب الناس فيه وسطروا ما فيه الكفاية وقد دخلته وتأملته وما وصلت الى أعلاه الا بعد جهد ولا يظهر له من خارج قرط علو وهو خارج المدينة على أزيد من ثلاثة أميال وعلى تل مرتفع بشمال البلد وقد أحاط به البحر شرقا وغربا حتى

¹⁾ تحفة النظار ، ص، 21

²⁾ بحث للاستلذ محمد الفاسي في مجلة دموة الحق العلد الثاني الستة الثالثة صفحة 76 .

verted by Liff Combine - (no stamps are applied by registered version

تآكل حجرته من الناحيتين فدعم منها ببناء وثيق اتصل الى أعلاه وزيد دعما بدكاكين متسعة وثيقة وضع أساسها في البحر ورفع عنه نحو ثلاث قامات وباب المنار مرتفع عن الارض نحو اربع قامات ..» (١) ويستمر العبدرى في وصفه لهذا المنار آتيا بكل جزئية وتفصيل رغم كونه يقول ويكرر. وإن الناس كتبوا عنه وسطروا ما فيه من الكفاية ولعل القارىء لاحظ ما في هذه اللوحة من انتباه ودقة ملاحظة واختيار للالفاظ الموحية التعبيرية ، ذلك ما لم نجده في وصف ابن بطوطة الذي غالبا ما اقتصر فيه على ما ذكره سلفه وللقارىء أن يرجع ان شاء الى رحلته ، فهي منشورة لا تكاد تخلو منها مكتبة أو خزانة أما نحن فقد تعمدنا نقل كلام العبدرى لان رحلته ما زالت غير معروفة ونسخها قليلة ولم تنشر نشرا كاملا بعد(2) .

وهكذا يتضح للقارىء الفرق بين هؤلاء الرحالين الثلاثة في موضوع معين ويدرك مدى اختلاف أسلوبهم في جانب من جوانب انتاجهم وهو وصف الاماكين والآثار . يختلفون كما وكيفا ، قوة وضعفا . فالعبدري أكثر دقة كما قلنا ، وأرقى درجة في هذه الناحية ؛ وابن بطوطة يميل الى البساطة والاكتار من العناصر المتعلقة بالاشياء ، والتفاصيل السطحية ، الناتجة عن الانطباعات الاولية . الا أنه يمتاز عن غيره باعطاء فكرة كافية عن العادات والتقاليد الاجتماعية المختلفة ، المتبعة مثلا في الاكل أو اللباس أو الشرب أو حلق الرأس أو الحفلات التي تقام بالبلاد الاجنبية ، وغير ذلك من الظواهر الاجتماعية المتنوعة ، سواء كان الامر يتعلق بالميدان الاجتماعي الصرف أو بميدائي الاقتصادي والثقافة . فرحلته من هذه الناحية حافلة زاخرة بالمعلومات التي قلما نجدها في رحلة أخرى . أما ابن رشيد فقد كان في رحلته ميالا الى الاختصار في هذه الناحية وكنتيجة أخرى يلاحظ أيضا أن مؤلفي الرحلة كانوا في حديثهم منصرفين عن الجانب الاجتماعي الذي يتمثل فيه الصراع القائم بين الطبقات الاجتماعية والمعارك التي تخوضها هذه الطبقات في مرافق الحياة الاجتماعية وتحليلا خاصا لهذه المجتمعات التي زاروها وأقاموا بها مدة قد تطول أو تقصى ورغم بصفة عامة . فلم نجد في هذه الرحلات بصفة مقصودة أو غير مقصودة وصفا دقيقا ما ظفرنا به في هذه الرحلات من معلومات تتعلق بالعادات والتقاليد الاجتماعية وبعض الانظمة السائدة ، فإن الرحالة المغربي قليلا ما يتعرض لوصف دقيق لاحوال أفراد المجتمع المادية ووسائل كسب العيش ، وأنواع الماملات التجارية ، وطرق استغلال ثروات الارض ، ووسائل الانتاج ، ومستوى الدخل الفردى ، ومستوى التعليم والثقافة بصغة عامة كاملة ؛ كما لم يتناول بالوصف الدقيق والتحليل الشامل الجوانب الخلقية التي كثيرا ماتكون منحطة في بعض البيئات. هذان الجانبان الجانب المادي والجانب الاجتماعي ، وان لم تخل منهما هذه الرحلات كانا جديرين باكساب هذا الانتياج

الرحلة المغربية ص 137 .

²⁾ لم نتمكن من الاستفادة من تحقيق الاستاذ محمد الفاسى الذي نشرها بعد انجاز هذا البحث

الادبى المغربى قيمة خاصة وفائدة كبرى ، لو حللا من طرف الكاتب بصفة أدق وأشمل . ولكن لكل عصر طاقاته ومستواه ومفاهيمه وطقوسه الخاصة . ولا يمكننا أن نحكم فى عصر بنى مرين مفاهيم ومقاييس وقيم العصر الحالى . وانما أبدينا هذه الملاحظات بقصد المقارنة وايثار بعض الاسئلة المتعلقة بالفروق بين المجتمعات الناتجة عن التطور الذى يخلق هذه المجتمعات ويكيفها .

النسزعسة التعليميسة

ومن خصائص فن الرحلة الاهتمام بالناحية التعليمية كغاية مقصودة يهدف اليها الرحالة وهو يقوم برحلته كي ينمى معلوماته وينهض بمستواه الثقافى عن طريق الاتصال بكبار العلماء والفقهاء والشيوخ وأساطين المعرفة . فالرحالة كان سعيه وهو ينتقل من مكان الى آخر من مسجد الى مسجد ، مجالسة هؤلاء العلماء للاخد عنهم والتدقيق فيما يروى عنهم من سند أو قول . فالتنقيب عن المشايخ وذوى الصبيت والشهرة الواسعة في ميدان العلم والمعرفة كان من الاهداف التي ينشدها الرحالة المغربى. ولذلك كان يستسهل الصعوبات ويتحمل المشاق الجسام ويكابد ويعاني من الازمات والنكبات ما يجعل حياته أحيانا في خطر محقق ، ولكن الامر كان هينا بالنسبة اليه ، ما دام يجد لتحقيق غايته وسيلة من الوسائل التي كان يغامر في التوفر عليها . وسواء كان الامر يتعلق بالعبدري أو بابن رشيد أو بابن بطوطة ، فالظاهرة عامة وسائدة في هذا النوع من الادب الذي خلفه لنا هؤلاء المغاربة في عصر بني مرين ؛ فالرحلات التي كتبت في هذا العصر نجدها كلها حافلة بذكس اسماء العلماء والمشايخ وكبار الفقهاء والمحدثين والصلحاء ، بل نجد فيها من التراجم لكبير الشخصيات ما لا نجده أحيانا في المؤلفات الضخمة التي كتبت خصيصا لهذه الغاية ولا أدل على ذلك من مل العينة لابن رشيد ، فهى زاخرة بالاعلام وسجل ضخم لكبار الفقهاء والعلماء والمحدثين. انها نموذج ومثال ناطق. يكفى القارئ دليلا على ما نزعم ويرجع اليه متى شاء التأكد من صحة هذا الرأى . أن أول نظرة نلقيها عي هذه الرحلة تعطينا فكرة واضحة عن مقاصد صاحبها ونواياه الحقيقية ، حتى ليكاد القارىء يحكم عليها بأنها تقتصر على ذكر أسماء العلماء والادباء والمسايخ والكتب التي كان المؤلف يكثر من قرادتها واستنساخ العدد الكبير منها . قابن رشيد هنا أصدق مثال لهذه الظاهرة لان ما ذكره من أعلام وما لقيه من شيوخ وما قرأه واستنسخه من كتب يكاد يشكل صلب الموضوع ويكون الاساس لرحلته ؛ تقــرأ الجزأ الاول أو الثاني أو الثالث من رحلته فلا تكاد تجد فيها سوى هذا النوع من المعلومات ، وكل ما سواه قد ياتي عرضا أو في اشارة عابرة أو كلمة خاطفة . فاذا قيس بغيره من مؤلفي الرحلات في هذا العصر ، اعتبر متفوقا في هذا الباب اذ اهتم به

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version

اهتماما خاصا وأفرد له أكبر قسط من انتاجه فكثيرا ما تجد وأنت تطالع رحلته هذه المبارات «وممن لقيناه بالقاهرة والاسكندرية» التي يفتح بها كلامه ثم يسير بعيدا في سرد العلماء والفقهاء وذكر نسبهم ومكانتهم العلمية ورواياتهم وسندهم الى غير ذلك من المعلومات التي تتجاوز أحيانا حدود الترجمة المالوفة .

ومن خلال تلك التراجم التى حفلت بها هذه الرحلات المغربية نستطيع أن نقف على نوع الاتجاه الثقافى الذى كان سائدا فى عصر بنى مرين ، فالثقافة التى كان المغاربة يجدون فى اكتسابها ثقافة دينية قبل كل شيء ثم لغوية وأدبية فلم يكن يهمهم غالبا سوى العلوم الدينية (القراآت ، الحديث التفسير) والعلوم اللسانية (اللغر والنحو والبيان والصرف والادب) وكتب الفقه على مذهب مالك . وهذا النوع من الثقافة هو الغالب فى الرحلات والجانب الذى يكون نزعتها التعليمية . هناك فروق يلاحظها القارىء بين مؤلفى الرحلة أنفسهم فى اتجاهاتهم الفكرية لكتها فروق كمية لا تخرج عن هذه الدائرة التى كانت تقريبا المجال الوحيد لتشاطهم الثقافى ، كمية لا تخرج عن هذه الدائرة التى كانت تقريبا المجال الوحيد لتشاطهم الثقافى ، مجال اختصاصه ، فمؤلفاته كلها كادت تقتصر على هذا الجانب من العلوم ، ترك منها مجال اختصاصه ، فمؤلفاته كلها كادت تقتصر على هذا الجانب من العلوم ، ترك منها مساسبة تراجم صحيح البخارى ثم السنن الابين فى السند المعنعن ثم ايضاح المذاهب منصب عليه اسم صاحب الغ ... ،

أما العبدرى فهو كذلك يهتم بالروايات وبالقراآت ويعتنى بالتحقيق في الحديث والسند الا أننا نراه يتجه اتجاها أدبيا مركزا كما يصرف عنايته الى علوم اللغة والنحو والبيان فهو في هذه الناحية أبرز وأكثر ميلا الى ضبط القواعد والتراكيب النحوية واللغوية حتى يخيل اليك وأنت تقرأ رحلته أنك أمام استاذ في النحو وفي اللغة وفي الادب والبيان . ان رحلته عبارة عن دروس في هذه العلوم التي اضطلع فيها وأكثر من الخوض في جوانبها وفروعها . تجد فيها من الشواهد النحوية واللغوية والعروضية كبيرة ودقيقة ، مما يدل على نبوغ صاحبها وسعة أفقه في هذا البيدان .

ومما بتصل بهذا الاتجاه الفكرى أن العبدرى كان فى رحلته (نتيجة حتمية لذلك) من النقاد الذين يتتبعون بكل دقة وشدة ملاحظة ما يقع فيه الادباء من الانقلاط والهفوات التى تخالف قواعد النحو والصرف والبلاغة ؛ كان غير متساهل ، شديد الحساسية لكل ما يقال نثرا وشعرا قوى الحرص على تقويم المعوج من الكلام ، حاد النقد لاذعه ، صارفا عنايته كلها الى ما يصدر عن الادباء من نثر وشعر ليضع كلامهم فى الميزان ثم يحكم لهم أو عليهم حكما صريحا قاسيا مبنيا على الحجج وشواهد قوية يستدل بها للدفاع والاقناع ، وهو فى نقده هذا لا يتورع عن ذكر جميع المثالب

والعيوب ، لا يعرف المجاملة واللباقة أو التسامع ، بصدر حكمه على الخطىء كسهم خارق يصيب من أخطأ أو نسى أو خالف رأيه . بهذا الاتجاه الادبى تميز صاحبنا عن غيره من مؤلف الرحلات . لقد كنا نود أن نورد أمثلة كثيرة لكن مجال هذا البحث لا يتسم لها ولذلك نوجه عناية القارىء الراغب في التوسم الى الرجوع الى انتاج العبدرى ليقف بنفسه على هذا الاتجاه ، على هذه الثقافة الادبية واللغوية المتينة التى عرف بها مؤلف، الرحلة المغربية ، ومع ذلك فلا نريد أن نمر بدون أن ناتى هنا وسو يمثال واحد لاعطاء فكرة ولو وجيزة عن راينا ومذهب العبدرى في رحلته .

فلتستمع اليه وهو يتحدث في رحلته عن ابن خميس بعدما أنشده قصيدة من شعره(I): «قلت هذه القصيدة مهذبة الالفاظ والمعاني وألذ من نغمات المثالث والمثاني . ان مقطعها قلب ناب ، لا يلين ولو مضغ بدرس وناب ، ليس يلتئم بما قبله ولا يمتزج ولا يزال السمع به يقلق وينزعج وقد راودته أن يلتحم فأبي وحاولته يئتئم فنبا ، ... وهكذا يجد القارى وحلة العبدرى ، في كل صفحة من صفحاتها بل في كل فقرة من فقراتها نقدا مركزا ينصب على الالفاظ كما ينصب على المعانى ، يتنافل الكلمة والجملة والعبارة كما يتناول التركيب النحوى واللغوى والورث الشعرى لتميين صحيحه من فاسده .

وباختصار ، فالعبدرى فى رحلته هذه كان شاعرا وأديبا ولغويا ونحويا اختلف عن ابن بطوطة اختلف عن ابن بطوطة الذى لم يتعرض لهذا الجانب الا فى ظروف خاصة وقليلة .

بعد هذا العرض الوجيز ، يحسن بنا أن نتساءل عن الاسباب التي جعلت مؤلفي الرحلة يبحثون في تنقلاتهم عن العلماء والشيوخ والفقهاء للاتصال بهم . ذكر بعضهم أنهم كانوا ينزعون هذه النزعة لانهم يرون في علماء المشرق أساتذة يجب الاخذ عنهم لانهم سبقوهم الى الميدان ونهلوا من المورد الاصيل(2) أما نحن ، وان كنا نرى في هذا الرأى حظا من الصبحة ، فلا نجده كافيا لتبرير هذا الموقف وتعليله اذ السبب في رأينا أعمق وأبعد مدى ، ذلك أن الغاية من كثرة الاتصالات والاحتكاكات الفردية والجماعية كانت تهدف الى نتائج تربوية تعود على الرحالة المغوبي بتكوين شخصيته ، وتدعيم مركزه وتمتين ثقافته ، كما كانت ترمى الى وبط صلات مع أعلام في الممشرق أو في غيره ، توسيعا للافق وتوثيقا للعلاقات الثقافية التي كانت في العصر الوسيط جارية بصفة فردية وتلقائية ، اذ العلم حسب تعبير أنصار هذه الاساليب التربوية يؤخذ من أفواه الرجال لا من الكتب ، ولا تزالت هذه النظرية

¹⁾ انظر الرحلة المغربية ص 127 .

 ²⁾ شعر المغرب الاسلامى بثقل هذه التبعية وبخطرها على شخصيته قاصبح ابتداء من القرن الحادى عشر يتحرر منها ، انظر مقدمة اللخيرة لابن بسام ،

سائدة الى اليوم ، لاسيما فى بعض مراحل التعليم حيث يعتبر الكتاب مصدرا ضرره أكثر من نفعه فى بعض الاحيان ، وهى نفس النظرية التى آمن بها روسو (فى القرن الثامن عشر) الذى اعتبر الكتاب باعثا على الكسل والملل ودعا الى جعل الطفل بين أحضان الطبيعة ، يتعلم منها بواسطة الحواس وعن طريق الملاحظة المباشرة .

ومهما يكن فهذه الاساليب التربوية والتعليمية التى ظهرت فى الرحلات المعربية فى زمن بنى مرين تنطوى على فوائد جمة يعترف بها الآن علم التربية وعلم النفس الحديث. ولقد سبق لابن خلدون ان أعطى رأيه فى الموضوع حيث قال: «ان الرحلة فى طلب العلم ولقاءالمشيخة مزيد كمال فى التعليم فالرحلة لابد منها فى طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»(2) ، فابن خلدون بكلامه هذا ما زاد على أن عبر عن الاتجاه المغربى فى ميدان التربية والتعليم وهو رأى سديد من الوجهة التربوية والتعليمية لا زال علماء العصر الحديث يعملون به حتى الآن .

وبما امتازت به الرحلة المغربية في هذا العصر أيضًا تضمنها لابيات شعرية من نظم المؤلف نفسه أو من انتاج غيره . وأول من يرز في هذا الميدان هو العبدري الذى أكثر من النظم في رحلته فكان شاعرا مجيدا ، ذا قلم سيال كما يقال . فالشعر بالنسبة اليه يصدر عن طبع سليم وعن تذوق للفن الادبي بصفة عامة ، ولا غرابة في دلك ، فالرجل كما رأيناكان يتوفر على ثقافة أدبية ولغوية متينة ، جعلته قادرا على نظم القصائد الطوال في مواضيع مختلفة ومتنوعة ، فالسهولة كانت تطبع انتاجه ، والمرونة والغزارة كانتا الصفتين الغالبتين على هذا الانتاج . فقد رأيناه وهو يؤلف رحلته بتصرف في اللغة والنحو والعروض والبيان تصرفا مطلقا اذ كانت هذه الوسائل أداة طبعة في يده ، يسخرها متى شاء وحيث اراد ، فلا تكاد تقرأ صفحة أو فقرة من رحلته دون أن تعش على بيت أو أبيات أو قصائد كاملة من بنات فكره . ينظمها نقدا أو معارضة أو تعقيبا على انتاج الغير ؛ أو لاعطاء مثال في موضوع معين ، وهكذا نبعد في رحلته ، فضلا عن كثرة أبيات قالها في عدة مناسبات ، ثلاث قصائد طوال : الاولى مدح بها أبا يعقوب يوسف والثانية بعثها كوصية لابنه والثالثة وهي آخر ما نطمه الرحلة نفسها التي حرص على تدوينها شعرا كما دونها نثرا . فالإمثلة اذن كثيرة ومتنوعة في رحلته ، ولا يمكن أن نورد منها الا نسبة قليلة خوفا من الاطالة والاطنساب .

فمن القصيدة الاولى قوله في مدح السلطان المريني أبي يعقوب يوسف : فمن مبلغ علياه عنى من نظمى نظمى (2)

¹⁾ المقدمة ، ص 148 . إ

²⁾ الرحلة ص. 2

الى أن قال:

وليتهم في الحرب والغيث في السلم

الى الملك السامي صعودا على الوري

ومن قوله بها الى ابنه:

وصية واله بس حفسي قضاء جاء مسن ملك على

أصغ سمعـــا أوصك يا بنـــى جرى القدر المتاح لنا ببين

ومن قصيدته التي ختم بها رحلته :

وفي ذي الجهل أعنى من عيسي

لسان حال أبلغ مـن بليــغ مسحت الارض غربا ثم شرقا أسائل عن عواقب كل حيى

واذا كانت رحلة العبدري مرصعة بالإبيات الشعرية حافلة بالقصائد الطوال حتى كادت تصبح ديوانا لصاحبها فان رحلة ابن رشيد تضمنت هي الاخرى أبياتا كثيرة منها:

ولولا اغتراب ما حــل في تــاج -

تغرب ولا تحفسل بفرقسة موطسن فلولا اغتراب المسك ما حل مفرقا

ان ابن رشید ضمن رحلته ابیاتا کثیرة وان لم یکن یعنی بقرض الشعر کما عنى به العبدري ، فقد عرفنا له قصيدة في رثاء ابنه أوردها الاستاذ كنون في كتابه مشاهير رجالات المغرب ، يقول في مطلعها :

وغصن دوى تاقت اليه الحداثــق

شباب توى شابت عليه المخارق

الى أن قال:

محمد ان الوجـد فـيك مواقـف على أنه حلـــو المتابــه سابـــق وان جلدا فالله للوعسد مسادق وما طلعت شمس وما ذر شارق(2)

محمد أن الصبر فيك مصارم محمد أن الصبر صبير وعلقهم فان جرعا فالله للعبد صابر عليك سلام الله ما ان حن عاشق

الغا

¹⁾ قابن رشید کان اذن شاعرا .

²⁾ انظر الرجع المدكور ، ص .

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version

أما بالنسبة لابن بطوطة فالامر واضح ، اذ أن ما عرفنا عنه أنه لم يقل شعرا الا بمناسبة اتصاله بملك الهند ويستنتج من رحلته أنه نظم قصيدة طويلة بهده المناسبة غير أننا لم نجد في هذه الرحلة سوى الابيات التالية :

اليك أمير المومنيسن المبجسلا فجئت فحلا من عسلاك زائسسرا فلو أن فوق الشمس للمجد رتبة ولى حاجة من فضل جودك أرتجى أذكرها أم قد كفانسى حياؤكسم فعجل لمن وافسا فحلك زائسرا

أتينا نجد السير نحوك في البلا ومغناك كهف الزيارة أهسلا لكنت لأعلاما الملما مؤهللا قضاها وقصد عند مجدك سهللا فان حياكم ذكره كان أجمللا قضى دينه ان الغريمة عجلاً

والغالب كما يتضح من هذه الابيات ان ابن بطوطة رغم تكلفه وتصنعه مارس نظم الشعر قبل هذه المناسبة التي اضطرته الى التكسب بواسطة المدح . ولولا المحاجة الملحة والظروف المادية القاسية التي كان يتخبط فيها ، لما ظفرنا مسن صاحبنا بهذه الابيات التي قالها تحت الضغط ، ضغط الديون التي ارتكبها واستعجله أصحابها . أيكون ابن بطوطة في هذه الابيات رغم قدرته على نظم الشعر يتحاشى خود رهذا الميدان ويتعالى عن الانتساب الى زمرة الشعراء كما فعل غيره في هذا العصر وفي عصر آخر ؟ ذلك ما لا نستطيع الاجابة عنه الآن ، لان الوثائق التي بين أيدينا لا تساعدنا على القطع ما دمنا لم نام بجميع ما يتعلق بحياة الرجل وبظروف بشأته . كل ما أمكننا الوصول اليه لحد الآن هو أن الرحالة المغربي يجيد الشعر رغم كون رحلته لم تتضمن من انتاجه في هذا الفن الا تلك الابيات التي أوردناها آنغا .

وهكذا يتضع لنا أن الرحالين المغاربة في هذا العصر كانسوا الى جانسب ثقافتهم الدينية واللغوية يتوفرون على ثقافة أدبية ظهرت آثارها جلية في رحلاتهم ، فكانوا يمزجون النثر بالشعر ، وتلك ظاهره أدبية ظهرت في الشرق العربي قبل هذا العصر منذ القرن الثالث والرابع قبل أن تستفحل في القرون التالية وتصبح أمرا مقصودا يلتزمه الكتاب للترصيع والتنويع وتبيين قدرتهم على الجمع بين الفنون الاخرى . ونتيجة لذلك ، تضمنت هذه الرحالات المغربية كما رأينا ، لاسيما رحلة العبدرى ، أبياتا وقصائك طويلة في بعض الاحيان .

والنتيجة التي نخرج بها من هذا البحث المندى خصصناه لفن الرحلة في المغرب هو أن هذا الفن اكتسب شخصية قوية قائمة على أسس متينسة مشتركة وامتازت بخصائص معينة نجدها في جميع الرحلات التي الفت في عصر بني مرين ، فالرحالة المغاربة كما رأينا اتحدوا في كثير من هذه الخصائص واتجهوا في رحلاتهم انجاها يكاد يكون واحدا . أما الفروق التي استنتجناها من المقارنة التي عقدناها أحيانا بينهم فهي فروق كمية في أغلب الظروف ، راجعة الى رغية هذا أو ذلك في

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التركيز والاهتمام ببعض النواحى التى قد تستأثر بعناية الرحالة وتظهره متفوفا على صاحبه فى هذا الجانب أو ذلك . فالميدان واحد رغم تعدد جوانبه وتشعبها ، والخصائص مشتركة لا تنفرد بها رحلة دون أخرى . كل ما هنالك أن رحلة العبدرى علبها النزعة الادبية ورحلة ابن رشيد طغت عليها النزعة العلمية الدينية . أما رحلة ابن بطوطة فقد امتازت بطابعها الاجتماعى وهكذا نصل الى نتيجة وهى أنه اذا اجتمعت هذه الرحلات كونت وحدة كاملة متكاملة الجوانب متناسقة الإطراف متماسكة الاجزاء تشبه دائرة معارف أو موسوعة حسب الاصطلاح الحديث .

وهكذا تخلف لنا البيئة المغربية في عصر بني مرين تحفة نفيسة وأثرا اديبا خالدا يتمثل في ادب هذه الرحلات القيمة التي اغنت المتراث الفكرى المغربي وأكسبته شهرة واسعة بفضل جهود هؤلاء الرحالين المغاربة وعبقريتهم . وناهيك بابن بطوطة الذي أصبح ذكره تردده السنة الطلبة والمثقفين وتتحدث عنه الاوساط الشعبية في المغرب وخارج المغرب .

نظرا لما احتوت عليه رحلته من فوائد جغرافية واجتماعية تتصل بحياة المجتمعات البشرية بثقافتهم باخلاقهم ، بعاداتهم ، بتقاليدهم بنماذج حضارتهم الخ... تلك المعلومات التى لم يكن من الممكن الحصول عليها فى ذلك العصر لولا هؤلاء الرحالة الذين أفادوا الطالب والاستاذ والعالم الجغرافى والاديب وعالم الاجتماع والمؤرخ والفقيه .

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البساب السرابسسع مظاهر اخرى للحياة الادبية

- 1) العلوم الدينية
- 2) العلسوم العربيسة
- 3) العلسوم البحتسة
- 4) السريانيسات
- 5) العلسوم الطبيعيسة

العلىوم الدينيسة

جرت العادة عند مؤرخى الآداب العربية أن يقسموا العلوم الى قسمين قسم يتضمن العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وقسم آخر يشتمل على ما سوى العلوم الدينية من طب وفلسفة ورياضيات وكيمياء وفيزياء وتنجيم ، وباختصار قسموا العلوم الى نقلية وعقلية بمعنى أن النوع الاول يكتفى فيه المسلم باستيعاب ما وضع فى الميدان الدينى والالمام بما خلفه الاجداد الواضعون لهذه العلوم للحفاظ عليها والدفاع عنها فى كل مناسبة وكل ظروف . أما النوع الثانى فهو يتطلب مجهودا فكريا آخر نظرا لاعتماده عسلى العقل واهتمامه بالبحث والنقاش والاختسراع والاستكشاف .

وواضح من هذا التقسيم ، كما يستفاد من موقف بعض مؤرخى الاسلام(I) ان العالم فيما يرجع للعلوم الدينية يكتفى ، كما أشرنا الى ذلك ، بمعرفة ووعى ما تركه السلف مقصرا مجهوداته الفكرية ولادارية على فهم هذا التراث الدينى وفحصه وتتبع مراحل وضعه والتأكد من سلامة أسسه .

ومهما يكن من أمر فالعلوم الدينية في الشرق العربي خطت منذ الفتسع الاسلامي ، خطوات جريئة وأرست قواعدها وتبثت أركانها ، وحافظت على كيانها عبر العصور والظروف العصبية التي اجتازتها فخرجت منها ظافرة منتصرة ، معززة البجانب وقوية الشخصية ، فلم يكد يشرف القرن الثالث الهجرى على النهاية حتى كانت هذه العلوم قد نضجت ، واكتسبت شخصيتها واستقلالها ، وأدركت مكانتها المنيعة وتحصنت بحصن حصين . لم يكد ينتهى هذا القرن حتى كان الطبرى قد أنجز مشروعه الضخم في التفسير وحتى كان مالك قد أتم مؤلفه الضخم في الحديث كما ظهرت الكتب الصحاح التي ظلت الى اليوم المرجع الاساسى في هذا الميدان الاخير . وفي القرن الثالث تم كذلك تأسيس المذاهب الفقهية الاربعة التي انفردت بالسلطان وبالزعامة . وسيطرت على العالم ، وتنازعت اجزاءه ، رغم ظهور مذاهب باخرى سرعان ما خفت صوتها ، واندثرت معالمها ، وتركت الميدان فسيحا للمذاهب الاخرى كي تكتسحه وتظل مسيطرة عليه الى اليوم .

ومن هنا يتضبح أن العلوم الدينية الاسلامية أنمت بناءها وشيدت صرحها بسرعة أثارت اعجاب كثير من مؤرخى الديانات الاخرى ومؤرخى الاسلام أنفسهم . ان علماء الاسلام لم ينتظروا طويلا في هذا الميدان . ولم يضيعوا وقتهم في الجدل

¹⁾ ابن خلدون نفسه في المقدمة حيث تأثر بهذا التقسيم للعلوم أنظر الفصل الخاص بالعلوم •

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والنقاش ، فبادروا الى رسم الطريق بصغة نهائية ، وكأنهم خافوا على مستقبل هــذه العلوم فأنجزوا بتلك السرعة ما أنجزوه من أسس ومشاريع ، وكأنهم أرادوا أن يغلقوا الابواب كى لا تتسرب اليها يد عابئة ..

أما القرون التالية ، أى ما بين الثالث والثامن هجرى فلم تزد هذه العلوم الا تباثا واستقرارا ومناعة رغم محاولات المعتزلة والصوفية الجريئة ، ورغم نداءات ابن حزم وابن تيمية المتكررة للرجوع الى الاصل وفتح باب الاجتهاد ، رغم تلك المواقف الجريئة ، ورغم تلك المجهودات الجبارة التى قام بها بعض الفلاسفة بصفة أخص ، بقيت العلوم الدينية محافظة على كيانها وعلى اطارها الاساسى ، ممتنعة من كل تجديد يرمى الى العنق وقلب الاوضاع .

ذلك ، يصفة اجمالية ، هو الوضع الذي ساد الشرق العربي فيما يرجع للعلوم الدينية . فماذا كانتعليه الحالة بالنسبة للمغرب ؟ ان المغرب الاقصى جزء لا يتجزأ من العالم العربي ، وبهذه الصفة خضع لما خضعت له باقي الاجزاء المكونة لهذا العالم ، ليس بخاف ما كانت عليه الاقطر العربية ، لا سيما في انقرون الوسطى ، من روابط دينية متينة وعلاقات ثقافية وحضارية جمعت اواصر المسلمين ووحدت صفوفها سواء كانوا في الشرق أو في الغرب ، فكان طبيعيا أن يتأثر المغرب بما كان يجرى في المسرق ، بل كان حتميا أن يتأثر به نظرا لنفوذه المعنوى وزعامته الدينية وصلطته الروحية التي ظل المغرب يستمد منها تعاليمه وقيمه الى عصور متاخرة . ان السرق العربي هو مهبط الوسى والقبلة التي كان المغاربة يولون وجوههم شطرها في الحل والترحال لياخلوا منها قوتهم ويقتبسوا منها طريست الرشد والمعرفة أن يقوموا سلوكهم وينهجوا الطريق المستقيم التي رسمها لهم أساتذتهم في العلوم الدينية على الخصوص . ألم يكثروا من الرحلة الى هذا الشرق رغم المشاق والخسائر التي كانوا يتكبدونها ، للاخذ عن هؤلاء الاساتذة والرجوع الى بلادهم وهم مزودون باقوى سلاح .

الا ان ما حدث فى الشرق العربى لم يحدث مثله فى المغرب الاقصى بالنسبة للعلوم الدينية . لم يعرف المغرب تلك الصراعات العنيغة وتلك الخلافات الحادة التى كانت تقوم بين علماء الدين والمعتزلة والفلاسفة على الخصوص ، والتى عرضت العالم العربى ، غير ما مرة ، الى أزمات سياسية خطيرة ، لم يعرف المغرب من ذلك أى شيء تقريبا بالنسبة لما كانت عليه الحالة فى الشرق فكانت النتيجة ان قويت هذه العلوم وسيطرت على ما سواها ، كما أشرنا الى ذلك فى فصل سابق ، نظرا لخلو الميدان من تلك النزاعات العنيفة وتلك المعارك الطاحنة التى كانت تتنازع الشرق العربى بوجه أخص . وفى مقدمة هذه العلوم نرى مذهب مالك فى الفقه ياخذ الشرق العربى بوجه أخص . وفى مقدمة هذه العلوم نرى مذهب مالك فى الفقه ياخذ الشرق العربى ، بل ينفرد بالميدان ويهيمن على البيئة المغربية منذ قيام دولة المرابطين،

thought to the term of the standard of the sta

ورغم الاصلاح الذي قام به بنو عبد المومن والاجراءات العنيفة التي أخذوها للقضاء على مذهب مالك وعلى أنصاره فان الحالة في جوهرها بقيت كما كانت عليه الى أن استولى بنو مرين على الامر فازدادت عمقا وتركزت في جميع القطر المغربي على الصعيد الرسمي وعلى الصعيد الشعبي .

فانتصر المذهب المالكي وانتصر اصحابه من جديد، ولم يكن غريبا ان تبغل السجهودات الجبارة والعناية الخاصة لوقايته ولرعايته ، وللالسام باصوله وفروعه ، فكان الامر كذلك في الواقع اذ اصبحت الدولة والاوساط العلمية وطبقات الشعب المختلفة لا تفكر في سواه ، ولا تقتبس معلوماتها الدينية والدنيوية الا منه ، باذلة أقصى الجهود لتفهم تصوصه واحكامه ، مطبقة بالحرف ما جاء في أصوله وفروعه . فكثر عدد الفقهاء وضخم انتاجهم حتى اصبح من العسير احصاؤهم بالضبط كما أصبحت مؤلفاتهم تقدر بالكميات الوافرة التي لا يمكن الاتيان على ذكرها وجمعها في قائمة محصورة . لذلك نرى من المناسب هنا ان نذكر بعض الشخصيات المغربية الباورة في عصر بني هرين قصد اعطاء فكرة للقادىء عما ذهبنا اليه .

وقبل ذلك نلاحظ اولا هنا ان التخصص بمعناء الحديث لم يكن معروفا في ذلك العصر الذكنت تجد الفقيه أديبا ، والشاعر فيلسوفا والصوفي عالمها رياضيها وفقيها وطبيبا في نفس الوقت ، كما كنت ترى بعض الشخصيات التي سنتعرض لها فيهما بعد تلم بعلوم كثيرة وتتقن فنونا مختلفة ، مما يثير الاعجاب اليسوم ، ويدهش علماء النفس والتربية خصوصا المتطرفين في الدفاع عسن ميدان التخصص في سن مبكرة ، الا أن المهم بالنسبة لموضوعنا هنا هو أن الثقافة الاسلامية في عصر بنى مرين اصبحت تعتمد على الفقه المالكي كأساس للمعرفة واصبحت المناهبج تنص عليه كعادة رئيسية لذلك كان الطبيب فقيها والشاعر فقيها والفيلسوف والكاتب والحسابي وغيرهم كانوا فقهاء قبل كل شيء . كذلك كـان ابن المرحــل والعبدري وآين رشيد وابن بطوطة وابن البناء (x) وغيرهم من اعلام هذا العصر . يكفى أن نشير الى أن هذا الاخير ، رغم اشتهاره بالعلوم الزياضية وبسروره فيها ، ترك لنا مؤلفات في التغسير وفي الحديث وفي المفقه ، نذكر منها تفسير الباء من البسملة ، الجزء الصغير على سورتى انا أعطيناك الكوتس ، والعصر ان الإنسان لفي خسر . حاشية عي كشاف الزمخشري ، الاقتضاب والتقريب للطالب اللبيب في أصول الدين ، المقالة في السود على مسائل مختلفة فقهية ونحوية ، كتاب تسمية الحروف وقضية وجودها في اواثل صور القرآن ، رسالة في اسماء الله

¹⁾ انظر ترجمة هذه الشخصيات في الباب الثاني .

الحسنى ، هذه كلها مؤلفات تعالج مشاكل دينية من تفسير وحديث وفقه ، وهى ان دلت على شيء فانما تدل على ان صاحبها كان يتوفر على ثقافة دينية وعلى تضلم كبير في الفقه واصوله بالاضافة الى تبحره في علوم اخرى سنرى في موضع آخر ما هو نوعها .

الا أن علماء آخرين ، فضلا عن مشاركتهم في علوم مختلفة ، برزوا في ميدان الفقه ، واشتهروا به وصالوا وجالوا في ميدانه ، فكانوا أساتذة عصرهم واثمة لمن جاء من بعدهم ، نذكر منهم على سبيل المثال العلامة الفقيه عبد الرحمان بن عفان الجزولي المتوفى سنة 741ه بفاس اتفق مترجموه على أنه كان ذا منزلة رفيعة في الاوساط العلمية بفاس وشهرة واسعة في ميدان الفقه . ذكر صاحب الجذوة (I) انه كان اعلم الناس بمذهب مالك وان مجلسه كان يضم اكثر من ألف فقيه معظمهم يستظهر المدونة ، كما حكى ان السلطان ابا الحسن المريني نزل عن عرشه عند ما لقيه ، اجلاله وتعظيما لمقامه ، ومنهم الفقيه موسى بن محمد بن المعطى العبدوسي المتوفى سنة 776ه، وحكى عنه مترجموه أنه كان من أثمة الفقهاء في عصر بني مرين، ويكفى دليلا على ذلك أن عددا كبيرا من الفقهاء والمدرسين وحفاظ المدونة تتلمذوا له رغم مكانتهم العلمية وثقافتهم الدينية العالية . ومنهم القباب أبو العباس احمد ابن عبد الرحمان(2) المشهور بحفظه لمذهب مالك وتأثيره المباشر على فقهاء عصره. لقد كان هو الآخر اماما من ألمة الفقه المالكي في عصر بني مرين كسما بدل نشاطا في ميدان البحث والنظر . وقد توفي بفاس سنة 779ه . ومنهم محمد بن الفتوح التلمساني المتوفى بمكناسة الزيتون سنة 818ه ، وهو في نظر كثير من المؤرخين أول من ادخل مختصر خليل ابن اسحاق المالكي الى فاس ، عاصمة المغرب العلمية ، وقلبها النابض ، ومهد حضارتها وازدهارها العمراني في هذا العصر الذي مؤرخ له . كما نبغ في هذا العهد عالم آخر من اعلام الفقه المالكي ، اعنى به ابا الحسين الصغير الزرويلي المتوفى سنة 19هـ ذكر ابن القاضي(3) انه كان يفتح في مجلسه ما ينيف على الثمانين ديوانا فيعرضها حفظا عن ظهر قلبه ، وقد ولى القضاء بتازة ثم بفاس ، ومن اعلام هذا العصر في الفقه كذلك محمد بن سليمان الشطى الفاسى شيخ الفتيا وامام المذهب اختاره أبو الحسن سفيسرا له بتونس سنة 746ه ليخطب الاميسرة عزونة الحفصية ثم قفل راجعا.

¹⁾ ابن القاضى ، جادرة الاقتباس (الطبعة الحجرية بغاس) صفحة 251 .

²⁾ انظر ترجمته المفصلة في الباب الثاني من هذا البحث .

³⁾ الجارة (الطبعة الحجرية) صفحة 278 .

لكنه غرق فى البحر سنة 750ه. ولا يجب أن ننسى هنا العلامة الشهير ابن الشاط اباالقاسم بن عبد الله بن محمد الانصارى السبتى ، كان من اثمة مالك واستاذ عصره ، تتلمذ له عدد كبير من الفقهاء والقضاة والمدرسين . ولو بسبتة شفة 643ه و توفى بها سنة 723ه ، أما ابن غازى المكناسى فشهرته فى الفقه والاصول لا تخفى على ذى اطلاع على الحركة الفكرية فى هذا العصر . هو أبو عبد الله محمد بن احمد ابن على بن غازى نشأ بمكناس ثم رحل الى فاس واستوطنها الى أن توفى بها سنة 918 م كان له المام كبير بالعلوم اللسانية والتفسير والحديث الى جانب شهرته الواسعة وتبحره فى الفقه وأصوله . كان من الفقهاء البارزين فى عصر بنى مرين . اما الكتب التي ظهرت فى هذا العصر والتى تعالج مسائل دينية وفقهية فهى كثيرة كما ذكرنا .

مؤلفات ابن البناء المراكشي : تفسير سورة الكوثر : تفسير سورة العصر، حاشية على الكشاف ، تفسير الباء في البسملة ، المتشابه اللفظ في القرآن ، كتاب تسمية الحروف وخاصية وجودها في اوائل السور : الاقتضاء والتقريب للطالب اللبيب في أصول الدين رسالة في اسماء الله الحسني . منتهى السهل في علم الاصول مؤلفات ابن رشيد ، المحاكمة بين البخارى ومسلم : السنن الابين في السند المعنعن ، ترجمان التراجم في ابدال وجه مناسبة تراجم صحيح البخاري ، مؤلفات ابن غازى العثماني المكناسي ، التعلل برسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنسزل والناد ، شفاء العليل بشرح خليل . تكميل التقييد وتحليل التعقيد ، كليات في الفقه المالكي ، نظم على الطرق العشر . ارشاد اللبيب الى مقاصد الحبيب ، اسعاف السائل، امتاع ذوى الاستحقاق ببعض زوائل الرادى وفوائد أبي اسحاق المرادى . مؤلفات مالك ابن المرحل: التوشيات النبوية: الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيسا والآخرة . العشريات الزهدية : ارجوزته المسماة بسلك النخل : نظم كتاب التيسير ارجوزة عارض بها الشاطبية: قصيدة الفرائض المسماة بالواضعة: نظم غريب القرآن لابن عزيز شرح حرز الاماني في القراءات والبارع في قراءة نافع ابن جروم ، تقييد على المدونة ، شرح الرسالة ، شرح التهذيب لابن أبي يحيى التسولي المتوفى سنة 749 ، الدر النثير ، تقييد على المدونة ، تقييد على الرسالة تقييد على التهذيب لابي الحسن الصغير ، تقييد على المدونة ، تقييد على الرسالة ، تقييد على التهذيب لابي عمران العبدوسي المتوفي سنة 776ه ، شرح مختصر خليل للقوري المتوفي سنة 872هـ. تعليق على المدونة للسطى المتوفى سنة 750ه(I) .

¹⁾ ارجع ألى النبوغ المغربي ج 1 ص 181 -190 للتوسع في الموضوع .

هذا بعض من كل جزء من مجموعة الكتب التي ألفت في هـذا العصر في الميدان الديني بصفة عامة وهي ، كما يلاحظ القارئ تعطينا فكرة واضحة عسن نسوع النشاط الفكرى الذي بذله فقهاء هذا العصر . انه نشاط كمى قبل أن يكون كيفيا بمعمى ان المجهودات الجبارة التي بذلوها كانت كلها تقريبا منصرفة نحو الجمع والحصر . والتعليق والشرح ، والتفسير والتقييد على الهوامش والاختصار والمقارنة واختصار المختصرات مجهودات هامشية قلما تعالج الموضوع في جوهره لتخرج بنظريات جديدة أواصلاح جذري يتقدم به البحث النظري خطوة الى الامام ولعسل القارىء لاحظ من خلال الكتب التي مسردناها أنها تدور كلها تقريبا حول مدونة سلحنون ررسالة ابن أبي زيــد القيرواني وكتــاب ابــن يونس وكتــاب التهذيب للبرادعــي وواضحة ابن الحاجب في الفقه كما كانت تدور في التفسير حول الزمخشري والطبسري وفي ميدان الحديث لم تكن تتجاوز الموطئ وصحيح البخاري ، وصحيح مسلم وسنن النسائي وباقى الكتب الاخرى المعتمدة في الحديث لم تمكن تتجاوز هذه المراجع الاساسية التي ظلت المحور الرئيسي الذي تدور في فلكه . نعم لقد بذل عؤلاء الفقهاء جهودا لا تنكر في الجمسع والتأليف والشرح والتحليل فأنتجوا مؤلفات ضخمة جديرة بالاستحقاق لكن يلاحظ عليهم انهم لم يستطيعهم تحطيم القيود والاغلال والخروج بنظريات جديدة من شأنها أن تخلق تيارا جديدا وتطويرا للمغاهيم والاحكام الفقهية لجعلها هلائمة للظروف التي كانت تجتازها البيئة في عصس بني مرين ، لم يستطيعوا التحور من القيود والتقدم بالبحث كما فعل ابن حزم وابن تيميه ، وبذلك بقيت مجهوداتهم رغم قيمتها الادبية محدودة الافق راجعة الى الوراء في معظمها ، فكانت النتيجة ان ساعدوا على الاستقرار ثم الخمود الذي أصاب العالم العربي كله في هذا العصر قبل أن يصاب بالانحلال في حيدان العلوم الدينية وفي غيره من الميادين الآخرى التي تمثل حضارته ، فماذا فعل هؤلاء الفقهاء اذ تركنا جانبا تلك المجهودات التي بذلوها في الجمع والتأليف والشرح والتحليل ؟ لم يقوموا بشيء يذكر اذا استثنينا نظرية العدوسي التي تعتبر جريئة لاسيما في عصر بنى مرين حيث الابواب مغلقة وحيث «الاجتهاد مستحيل» : ويتعلق الامر هنا يعيد اللة محمد بن موسى بن معطى العبدومس الخطيب بجامع القرويين ذكر عنه ابن القاضي (I) انه كان اماما في تصبح الامة وانه أمات كثيرا من البدع الكائنة بالمغرب وأقام الحدود والحقوق ، واذا كانت هذه النظرية البريئة لم يكتب لها النجاح ولم تخلق تيارا فكريا أو عمليا فان صاحبها يعطينا فكرة عن بعض المحاولات التجديدية التي كانت تظهر في بعض الاحيان لتحطم القيود وتحرير الوضع من سيطرة سلطة الفقهاء وجمودهم . هخصوصا اذا تصورنا الوضع القائم في عصر بني مرين من الناحية

¹⁾ الجدوة صه 137

الدينية واستطعنا تقدير خطورة الموقف بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا يحاولون التجديد في بعض الظروف. .

ومع ذلك فالاوضاع في جوهرها بقيت هيهي ، مستقرة ، جامدة لم تات بشيء جديد بل كانت تحاول الرجوع الى الوراء والتشبث بالقديم والاعتصام به كي لا تتزحزح أركانه وتضيم آثاره .

فمن المسؤول اذن عن هذا الجبود ؟

ليس من السهل هنا تحليل جميع الاسباب التي كانت وراء هذا الجمود الذي أصاب العلوم الدينية في الصميم ، ومع ذلك فمن المكن اذا أردنا الاختصار، ان ترجعها الى عوامل رئيسية نحصرها في النقط الرئيسية إلتالية :

- ت) بنو مرین
- 2) الوضع الاقتصادي
- 3) الوضع السياسي
 - 4) سلطة الفقهاء
- 5) المذهب المالكي نفسه
- 6) طرق التربية والتعليم

ان بنى مرين بوصفهم ممثلى السلطة المربنية والروحية شجعوا العلوم الدينية تشجيعا خاصا الا أن تشجيعهم كان من حيث لا يشعرون ، عاملا من عوامل الاستقرار والجمود الذى طبع هذه العلوم فى عصرهم ، فعا أن استولوا على أرض الدولة حتى أصبحوا ينادون ، بكل قواهم ، بالرجوع الى مذهب مالك . والعصل على تقويته وصيانته ، وتركيز أسسه فى جميع القطر المغربى انتقاما من بنسى عبد المومس الممنهارين ، وأصحاب الدعوة الجديدة ، والنزعة الخطيرة التى كانت وبالا على مقهاء مالك فى ذلك العصر حيث كانت كتبهم تحمل أكداسا لتحرق على مرأى ومسمع منهم ومن سائر طبقات المشعب ، شجعوا باموالهم وبنفوذهم الطلبة والعلماء على نهج طريق واحد واتباع خطة واحدة وهى الاكتفاء بما سبق أن قرره فقهاء مالك وما سبق أن فرعوه فى عهد المرابطين .كان باستطاعتهم ، نظرا لما كانوا يتوفرون عليه من سلطة مادية ومعنوية أن يحولوا الاتجاه ويغيروا الاوضاع ويصرفوا أنظار الفقهاء الى البحث والنظر للقيام بمحاولات جديدة أو أى اصلاح ، كما فعل بنو عبد المومن لكنهم لم يغملوا ، جل حدوا الافق ، وضغطوا على التفكير فوجهوه توجيها هرجعياء لكنهم لم يغملوا ، جل حدوا الافق ، وضغطوا على التفكير فوجهوه توجيها هرجعياء

فصرفت الهمم والطاقات العقلية في المجمع والحشر والتكديس والبحث عن القديم ، وصكاء اتجاهـ وهكذا كانت الوظائف لا تسند الا لمن تأكدوا من سلامة عقيدتـ ، وصفاء اتجاهـ ولا أدل على ذلك مما حكاه ابن مرزوق في مسنده عـن أبـي الحسن المريني الـني كان ينفر من كتاب أبي العباس احمد بـن شعيب الجزنائي ، روى ابن مـرزوق أن السلطان المريني كان يميل عن هذا الكتاب لسبب يجهله ، رغم غزارة عـلم صاحبه ومشاركته في فنون مختلفة كالطب والكتابة والادب وغير ذلك ـ فلماذا كان أبو الحسن لا يعطف عليه كسائر الكتاب ؟ يجيب ابن مرزوق «انه لم يعرف سبب هـذا النفور وأنه ما عرف عن أبي العباس شيئا يخل بالعقيدة وأنه تحدث معه وجربه في الور كثيرة فلم يلاحظ فيه ما يتنافي والاتجاء المستقيم» (1) «والاتجاء المستقيم» في نظر ابن مرزوق هو تطبيق أحكام مالك بالحرف والنص ، واذا كان ابن مرزوق يحار في تعليل هذا النفور ، فالسبب في نظرنا راجع الى ان الجزنائي كان يشتغل ، كما سنري فيما بعد ، بعلوم أخرى ربما كانت تتعارض مم ما قرره الفقهاء .

أما العامل الثاني الذي شجيع هذا الجمود هو الفقهاء انفسهم وتعاونهم مع رجال الدولة من ملوك وعمال وغيرهم ، فالفقهاء ، كما أشرنا الى ذلك ، استرجعوا قوتهم التي أصبحت في عصر بني مرين أقوى مما كانت عليه في أي عصر آخر ، فاستبدوا بالرأى العام ، وسيطروا هم الآخرون على الاتجاه السائــد في العقيدة وفي الاحكام الشرعية ، ونعتوا كل من حالفهم في التفكير وفي العقيدة وفي السلوك العملي. بالسلوك القبيح ، ورموه بأوصاف من شأنها أن تعرضه لانتقادات كثيرة ، فلنتذكر بهذا الصدد ما وقع لابن الخطيب في المغرب الاقصى حيث هدر دمه وأحرقت جثته ، لا لذنب ارتكبه ، وانما كان ذلك بايعاز من الفقهاء الذين رأوا في شخصه خطرا على مصالحهم ، فلفقوا ، تحقيقا لغايتهم ، وانتقاما منه ، أقاويل ، وحبكوا المؤامرات ، واتهموه ، باسم الدين ، في عقيدته حتى أصيب بما أصيب به في العاصمة العلمية المغربية في عصر بني مرين على مرأى ومسمع من الملأ ، ان سلطتهم ، بعيدة عن النقد والمناقشة ، معصومة من الخطأ والعيوب ، فكان الفقيه اذا أفتى أو تدخل في قضية ما سمع وأطيع ونفذ أمره في الحين ، بدون مراجعة واستثناء . فلنذكر هنا أيضا ما وقع بين القاضي أبسى الحسين الصغير والوزير ابن يعقوب الوطاسي وما دار بينهما من خصومات عنيفة أدت الى تدخل السلطان نفسه للبت في الامر ، فما كان من هذا الاخير ا لاأن انتصر للقاضى الفقيه ضد وزيره الذي أصبح معزولا منذ ذلك الحين ولنفس السبب أيضا أصبح في استطاعة الفقهاء أن يثوروا حتى على الملوك أنفسهم نظرا لما كانوا يتمتعون به من تفوذ معنوى ومن سلطة لدى الشعب ، يكفى ، كمثال آخر ، أن نشير هنا الى

 ¹⁾ داجع السند الصحيح الحسن مخطوط الخزانة المامة بالرباط رقم ودقــة 65 ،
 انظر ايضا بحثا لليغى بروقانسال فى مجلــة هيسبريس سنة 1925 ج 5 ص 8 .

المؤامرة التي حبكها الفقيه عبد العزيز الورياغلى ضد السلطان عبد الحق المرينى الذي فقد عرشه اثر هذه المؤامرة التي دبرت بايعاز من فقهائه .

ونتيجة لما سبق لم تكن تسمع في أيامهم ، كما يحدث في الشرق العربي ، لا خلافات مذهبية ولا صراعات عقدية ولا اننى معارضة فكرية الا في القليل النادر . فبقوا وحدهم في الميدان فارضين سلطتهم على غيرهم ، سالكين سياسة ثقافية دكتاتورية ان صح التعبير .

أضف الى ذلك أن الحالة السياسية بالبلاد لم تكن من شأنها أن تساعد على خلق جو يناسب التفكير الحر ، ويشجع باب الاجتهاد والاعتماد على العقل . ان الحروب والاضطرابات والفتن الداخلية والخارجية لم تكن قط عاملا مشجعا للحركة الثقافية بصفة عامة وللتفكير الحر بصفة خاصة . لقد سبق أن رأينا في الباب الاول من هذا البحث ما كانت تجتازه البيئة المغربية في هذا العصر من أزمات سياسية خطيرة وأحداث انقلابية كثيرا ما عرضت البلاد ، لاسيما في البداية وبعد انقضاء عهد أبى عنان ، لاخطر العواقب وأسوأ النتائج ، لقد رأينا ما كانت عليه هذه البيئة من صراع حاد بين بني مرين وبين بني عبد الواد بالجزائر من جهة وبين قبائل عبد المومن من جهة أخرى ، أما الحرب في الاندلس فكادت تكون مستمرة ومهددة ، فالدولة ورجالها كانوا دائما في شغل شاغل ، وفي استعداد دائم لمواجهة الحروب والفتن والاضطرابات الداخلية في السهول والجبال ، حتى العلماء والفقهاء أنفسهم كانوا يشاركون الجنود ويصحبونهم هنا وهناك ، ألم يكن أبو الحسن يصحب معه عددا كبيرا منهؤلاء الفقهاء في كثير من تنقلاته وتحركاته العسكرية حتى ان عددا لايقل عنار بعمائة ذهب ضحية هذه التحركات العسكرية وغرق في البحر(I) وغني عن البيان أن جوا عسكريا مثل هذا لا يساعد على تحرير الفكر وعلى راحة البال اللازمة لكل نشاط ثقافي . فلم تكن من مصلحة الدولة أن ينشغل خدامها ورجالها بأمور أخرى غير الوضع الراهن والاستعداد لحالة الطواريء ، ولم يكن يهمها الا أن تبقى ما كان على ما كان كما يقال .

وأهم من ذلك ، وكنتيجة لهذه الحالة السياسية المضطربة اصبح المغرب يعيش من الناحية الرسمية في عزلة شبه تامة عن الشرق الذي كان يستمد منه كثيرا من قيمه ومثله ، اصبح يعيش وحده بعد ان كانت صلاته وثيقة مع الشرق ، نعم لقد وقع الانفصال منذ انسحاب الفاطميين من المغرب : لكن العلاقات المشرقية المغربية ازدادت فتورا وضعفا بحيث أصبحت مقتصرة على علاقات فردية تتمشل

¹⁾ ابن القاضى الجادوة (الطبعة الحجرية بقاس بدون تاريخ) صفحة 248 •

فى بعض الاشخاص المغاربة الذين كانوا يسافرون بقصد الحج او يقصد الاختفاء العلماء ، وفى بعض المشارقة الذين كانوا يفدون على الانبدلس او المسغوب لاسباب لا مجال لتفصيلها هنا ، وبقطع النظر عن هذه الصلات الفردية لم يسبق للمغرب اى اتصال عمل بالشرق ، والا ، فكيف يمكن ان تبقى المواصلات مستمرة والمغرب يجتاز آنذاك ظروف عصبية من أقصاء الى أقصاء هو المسافر القاصد بيت الله الحرام لا يأمن على نفسه ولا على متاعه وهو لم يبعد عن فاس الا بمسافة قصيرة(1) . فالطرق اذن كانت مخيفة والاهوال محيطة بالمسافر اينسا ولى وجهه وارتحل الا فى أماكن قليلة يجد فيها الراحة والامن الضرورى لوقاية نفسه من شر العابثين وظلم الفاسدين واجرام قطاع الطرق . ولذلك وقع بالمغرب الانكماش ، وحل به الانظواء الذى اصابه فى ثقافته وفى اقتصاده ، فكانت المنجية أيضا هى الجمود والركود فى ميدان العلم والمعرفة بصفة عامة وفى ميدان العلوم الدينية بصفة خاصة .

ولو بقى المغرب على اتصال وثيق مع السرق العربى لا استفاد من تلسك الصراعات العنيفة وتلك المعارك المطاحنة التى كانت رحاها تدور هناك بين الفقهاء وبين المعتزلة والفلاسفة ، ولو قدر له ذلك لا استفاد ايضا من الاحتكاك المياشس الذي كان قائما بين الحرب وبين الاجاتب ممن يتوفرون على ثقافات مختلفة تظرا لما للاحتكاك بين عناصر مختلفة من آثار ايجابية على الفكر والعاطفة اذ بغضله يقسع المجدل والمنظر والمتقاش ، وردود فعلية من المطرفين تعود على المبحث والمسادات المجدل والمنظر والتقاش ، وردود فعلية من المطرفين تعود على المبحث والمسادات المجدية بفوائد جمة ، لو وقع ذلك لغير المغرب من وجهة نظره وتطور فكره وانطلق من عقاله الى آفاق جعيدة ربما كانت السبب في فستح أبواب جديدة اهام الفسكر

اما الحالة الاقتصادية فكانت هي الاخرى تشكل عاملا أساسيا في هسدا الركود الذي تميزت به العلوم الدينية في عصر بني مرين . أن الازدهار الاقتصادي يبعث على التفاؤل ويخلق النشاط للبحث العلمي ، لكن الحالة في مجملها لم تكن تبعث على الارتياح والاطمئنان النفسي والهدوء الفكرى نظرا لهيمنة بعض الاشخاص على ثروات الشمب وعلى خيراته ونظرا لما كان ينتج عن نظام الاقطاع وتعاليق مختلفة السائدة آنذاك من تفقير وتجويع بالنسبة للطبقات الشعبية ، لذلك لا تلمس الازدهار الثقافي الاحيث الازدهار العمراني والاقتصادي . أن المراكز الثقافية التي اشتهرت على عهد بني مرين كانت في اغلبها مراكز تتوفر على امكانيات اقتصادية كافية (اكبرحجة عاصتهم العلمية ومهد حفارتهم) فالعامل الاقتصادي مرتبط الرتباطا وثيقا بالعامل الثقافي:

I) أنظر رحلة العبدري مخطوط الخزانة العامة بالرباط حرف د 55 مسقحة I4 .

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ان معظم شحصيات المغرب وكبار رجاله المثقفين كلهم نبغوا في فاس أو نشاوا فيها أو وردوا عليها من أقطار أخرى نظرا لما كانت تتوفير عليه هذه المدينة من فوائد مادية ومعنوية تجلب هذه الشخصيات وتقربها . واذا استثنينا فاسا وبعض المعن الرئيسية لم نجد صوى شغلف العيش ان لم نقل الجوع والبؤس والفقير المدقع النتى يحول دون نبو الفكر وازدهاره . ان المادة تضغط على التفكير دينيا كان أم فلسفيا وتوجهه توجيها معينا فتحتكره وتجعله أداة طبعة في يد أصحاب الثروة الذين كانوا يسخرون لخدمتهم الفقهاء والعلماء وغيرهم ، وذلك ما وقع تقريبا في هنا العصر .

ويرجع السبب أيضا في هذا الجمود الى طرق التربية والتعليم التي كانت سائدة في عصير بني مرين اذ من المعلوم أن أهل هذا العصر كانوا يعتمدون في تعلمهم وفي تعليمهم على الذاكرة وعلى الاستطهار قبل كل شي ع، وكثيرا ما كانوا يحفظون ويستظهرون دون ان يغهموا ويعرفوا ما كانوا يحفظونه ويستظهرونه. ولمقد كانت هذه الطريقة متبعة في جميع مراحل التعليم الابتدائي والثانوي والعالي ء فكان الطفل يبدأ بحفظ القرآذ حفظا عن ظهر القلب ثم يعمد الى حفظ الامهات في المفقه وفي الملغة والنحو والادب ، وكان يقضى السنوات الطوال في ذلك الى أن يبلغ من العمر أشده فيقعد به ذلك المحفظ عن متابعة دروسه لكبر سنه ، واشتفاله بامور حياته المعاشية التي لم يكن له مناص من مواجهتها لكسب قوته وفي المراحل الاخرى أيضا كان الطالب يهتم بالحفظ والاستظهار ويكتفى في غالب الاحيان بذلك رغم الشروح التي كان يتلقاها من أساتذته الذين كانوا هم الآخرون يعلقون أهمية كبرى على الذاكرة ، ألم يكونوا يحفظون المدونة ونواهد ابن أبى زيد وكتاب المتهذيب للبرادعي والتسهيل لابن مالك والشافية والالفية له ، كل هذه المتن كاثمت تحفظ وتستظهر وربما أضيفت الميها حواشي كثيرة كان المتعلم يطالب يها ويقاس نبوغه بها ، وكنت اذا طلبت منه تفسير مسألة فقهية أو حسابية أو نحوية سرعان ما يجع بذاكرته الى هذه العلوم التى حفظها ليستبد منها الجواب ويستدل بشواهدها يل بنصها الحرفى دون أن يحاول التفكير والتعليل وربط الصلات والخروج عن النص المألوف ، والدائرة التي كان يدور في فلكها . أما أذا أعوزه النص أو خانته الذاكرة فالهوة كانت عميقة أمامه والعجز واضحا في جوابه ، لانه لم يتعبود المناقشة والتحليل والتعليل المنطقى الا في نوادر الاحوال ، ولم يكن يستطيع التكيف مع طروف حياته رغم علمه الغزير الا في أحوال شاذة . بمعنى أن علمه الواسع لم يكن ينفعه في حياته العملية الا اذا بذل أقصى الجهود ليتحرر من سيطرة الذاكرة ومن تأثيرها القوى في سائر الملكات العقلية ، وحتى فيما يرجع للشرح الذي كان يقوم به الاستاذ لتوضيج النصوص ، فان الطريقة كانت لفظية ، . شكلية أكثر منها موضوعية جوهرية ، فكثيرا ما كان الطالب ، نتيجة لذلك ، يكتفى بالعروض التي تلقى عليه ، فيتقبلها بدون مناقشة ولا اعمال فكر ، الا اذا كان

يتوفر على استعداد فطرى وذكاء ثاقب يؤهله لمحاولة فهم ما يلقى عليه . وحتى البراميج نفسها لم تكن ترمى الى اكثر من حفظ ومعرفة ماسبق ان قاله الفقهاء ودونوه بصفة نهائية ، أن سلطة الفقهاء وغيرهم ، كما رأينا من قبل ، لا تقبل لا مناقشة ولا مراجعة وبالاحرى النقد والنسخ . فكان الهدف اذن هو حمل الطالب على الرجوع الى القديم وحصر ذهنه فيه كي يعرفه ويستظهره لا أقــل ولا أكــش ، وليس بخاف ما لهذه الطوق من اثر سيء على التفكير ، وعلى روح الملاحظة والنقــد والتعليل وعلى تكوين الشخصية بصفة عامة . ولقد تنبه ابن خلدون الى هذه الاساليب التربوية السائدة في عصره فانتقدها مرارا في مقدمته حيث عقد أكثر من ثلاثة فصول(I) للتحدث عن هذه الطرق بتفصيل ، وابداء وجهة نظره فيها بعد ابراز عيوبها وأثرها السيء بالنسبة للتعليم والمتعلم ففي الفصل السابع والعشرين(2) يتحدث ابن خلدون عن كثرة التا ليف ومساوئها بالنسبة للتعليم قائلا: ﴿ مَمَّا اصْرِ بالناس وتحصيل العلم والوقوف على غاياته ، كثرة التا ليف وتعدد ضروبها واختلاف اصطلاحها ثم مطالبة المتعلم باستحضارها، ومثل لذلك فيما يرجع للفقه المالكي بكتاب ابن يونس وكتاب اللخمى ، وفيما يرجع للعلوم العربية يذكر كمثال كتاب سيبويه وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والاندلسيين وكتب ابن الحاجب وابن مالك التي كان على المتعلم أن يحفظها ويقضى عمره في تحصيلها ، ثم يتعرض في الفصل الثامن والعشرين(4) من مقدمته الى ما ينتج عن اختصار الكتب ومطالبة المتعلم بحفظها من نتائج سيئة للتعليم وللثقافة بصفة عامة . وفي هــذا الموضوع يقول : وذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطــــرق الى أن قال : هوصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسيرا على الفهم ، وربما عمدوا الى كتب الإمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ كما فعهل ابن الحاجب في الفقه وابن مالك في العربية ، وهو فساد في التعليم ، وذلك لان فيه تخليطا على المبتدىء بالقاء الغايات عليه وهو لم يستعد بعد لقبولها، واذا كان ابن خلدون يكرر ويعيد ما قاله في الفصول السابقة ، فذلك لسبب واحد هو أن هذه الطرق العقيمة أثرت فيه تأثيرا سيئا جعله يثور عليها وينادى في الفصل التاسع والعشرين باصلاح التعليم وطرقه . ومما هو ظريف جدا في هذا الفصل هو أن ابن

خلدون يدعو الى ترك الاعتماد على الذاكرة وحدها كما يلح على السير بالطفل

¹⁾ المقدمة (مصر الكتة التجارية بدون تاريخ) صفحة 531 .

²⁾ نفس البصدر صفحة 532 .

³ نفس المصدر صفحة 533 .

⁴⁾ نفس المصدر صفحة 534 .

تدريجيا مع مراعاة سنه ومستواه العقلى واستعداده الفطرى وامكانياته الوجدانية وقدرة ذكائه وميوله الى غير ذلك من المبادىء التى أصبحت التربية الحديثة ننادى بها وكأنها تبنتها ولم تضف اليها الا بعض الجزئيات ؟

على أن المهم فيما اوردناه هو ان ابن خلدون وهو معاصر لبنى مرين ومن صميم البيئة المغربية ، أثار انتباهنا الى هذه الاساليب التربوية الفاسدة التى لاحظها في عصره ، وهي أساليب ، في الحقيقة ، عتيقة خالت دون السير بالتفكير الحر الى الامام وقعدت بالهمم ، وجعلت الجهود الفكرية والارادات القوية تدور حول السكليات والطاقات تبذل وتستزف في الهوامش والتعاليق وحصر المعلومات وجمعها في شبه قواميس ودائرة معارف ، مما ساعد على الركود والجبود رغم بروز شخصيات لامعة في الفقه وفي التفسير وفي الحديث تركت لنا مؤلفات ضخمة نفيسة قد لا تجود بها القرائح اليوم في هذا الميدان .

العلبوم العبربيسية

عرفت الحركة اللغوية في هذا العصر نشاطا لا يقل عن النشاط الذي عرفته العلوم الدينية فكان دهذا عصرها الذهبي(I)» ، واستمرت هذه الحركة منذ قيام دولة بني مرين الى أن أصابها الخلل والانهيار ، بذلت ، في أيام عزها وعظمتها ، الجهود الجبارة للنهوض بمستوى اللغة ، ولتبسيطها وجعلها في متناول المتعلمين وغيرهم . وليس من شك في أن هذه الحركة كانت أقوى وأكثر انتشارا من الحركة التي عرفتها البيئة المغربية على عهد بني عبد المومن الذين كانوا ، كما أشرنا الى ذلك في فصل سابق ، يعتمدون على الازدواج اللغوى باستعمالهم

¹⁾ عبد الله كنون ، النبوغ المغربي ج 1 صفحة 195 ·

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version

اللهجة البربرية الى جانب اللغة العربية الفصحى . فكانت المناظرات ، كما سنوى ، تعقد بين العلماء والادباء في موضوع لغوى أو نحوى قصد التحقق والتأكد من سلامة اللسان وصفائه وخلوه من التحريفات والتشويهات التي كثيرا ما تصيب اللغات بحكم الاحتكاكات العنصرية وامتزاج الثقافات المختلفة . فكانت تقام حول هذه المناظرات صبحات شفوية وقلمية تسترعى الانظار ، وتحرك الهمم وتحث الناس على تتبع ذيولها ومعرفة آثارها فيتدخلون مؤيدين أو معارضين ، فيزداد التشاط وتتنوع مظاهره ، وتتسع آفاقه ويصل صداه من المسراكز الرئيسية الى أماكن بعيدة ما كان لها أن تستفيد من هذا النشاط اللغوى لولا هذه المناظرات التي كانت تعقد من حين لآخر . كما تجلت معالم هذه النهضة في الشخصيات التي لمبت في هذا الميدان دورا ايجابيا وخدمت الملغة خدمة بقيت آثارها واضحة في المتوفر عليه الآن من أبحاث أو مؤلفات .

ومن العوامل التى ساعدت على تنشيط الحركة اللغوية وتوسيع دائرتها ، بنو مرين أنفسهم اذ كانوا ، كما أسلفنا ، يتصفون بكثير من صفات العرب وأخلاقهم ، ميالين بطبعهم وبتكوينهم الاجتماعى الى اللغة العربية وكل ما يرتبط بها . ويكفيك منهم أنهم اتخذوها لغة رسمية للبلاد بحيث له تكن تحرد المراسلات الرسمية وغير المرستها ولا القرارات القانونية الا بها . فتفرغ لدراستها كثير من ملوكهم ضاربين المثل بأنفسهم ، كما شجعوا الطلبة وغير الطلبة على اتقانها وأغذقوا الاموال والهدايا لكل من كان له المام بها ، فوقع التنافس والاقبال عليها والتفنن في اجادتها لجعلها أداة طيعة في يد الكتاب والادباء والشعراء والفقهاء اللين برهنوا في مختلف الظروف عن خبرتهم الكبيرة فيها وتصرفهم في فروعها .

ثم ان هناك عاملا آخر كان له تأثير مباشر على هذه الحركة ، ألا وهو ارتباط العلوم العربية بالعلوم الدينية ارتباطا وثيقا ومستمرا ، ذلك أن لغة البلاد كانت هى لغة القرآن والشريعة والاسلام فكان طبيعيا أن تنهض هذه العلوم كما نهضت الاخرى ، فسارت جنبا الى جنب الى الامام ، لم تعرف عقبة في سيرها بهلا عرقلة من أى نوع كانت تخل بتطورها كما كان الشأن بالنسبة للعلوم الفلسفية وما يرتبط بها . وإذا تذكرنا ، من جهة أخرى ، أن البيئة المغربية كانت في عصر بني هرين محافظة أشد المحافظة على دينها وتقاليدها الاسلامية ، وتذكرنا تمسكها المتين بالكتاب والسنة ومقاومتها لكل بدعة أو ظاهرة اصلاح أو تجديد ، إذا تذكرنا ذذنا يقينا وإيمانا بما كانت تتوفر عليه هذه العلوم من حظوظ ، ومن المكانيات مختلفة كفيلة بتنميتها وتطويرها .

والى جانب ذلك يجدر بنا أن لا نغفل حركة التعريب التى انتشرت فى هذا العصر أكثر من غيره ، وامتدت الى آفاق بعيدة كانت منزوية منطوية على

نفسها ، لا تعرف الا لهجتها البربرية وتمسكها بها ، ورغم كون هذه الحركة كاثت تلقائية ، خاضعة لعوامل اجتماعية معينة بمعنى أنها لم تكن تعتمد على جهود ادادية مقصودة ، فإن فضلها على لغة الضاد كان قويا وذا تأثير بعيد البدى ، إن كثيرا من القبائل البدوية العربية انضمت الى بتى مرين وعاشت في ظلهم مستغلة نفوذهم وثقتهم وتأييدهم لها (١) ، الشي الذي جعلها تتحرك في تنقلات كثيرة وتغتشر انتشارا واسعا في أماكن قريبة وبعيدة ما كان لها أن تصل اليها لولا تأييد بنى مرين لها ، ومتحهم اياها اقتطاعات أرضية كثيرة يتعيشون عليها في مختلف نواحي القطر المغربي ، وبفضل استقرارها في بعض الاماكن عمت المغرب موجة من الاستعراب بحيث وقع اندماج كثير من القبائل البربرية التي أصبحت بحكم هذا الاحتكاك لا تعرف سوى اللغة العربية ، بل أصبحنا نلاحظ ظاهرة عكسية تجلت في مقاومة كل ما من شانه أن يمس بسلامة اللغة العربية أو يحرفها أو يخرج بها عن اطارها الاصلى ، فكان ذلك رد قعل لهذا النقص الذي كان يشعر به أولئك المستعربون الجدد الذين ما فتثوا ، تعويضا لهذا النقص ، يكة ون ويجتهدون عاملين على تخليص اللغة مما أصابها من تحريف ودخيل. وفي هذا الصدد تحدثت بعض الصادر التاريخية عن محاولات تسام بهسا بعض المغاربة حفاظا على سلامة اللغة وابعادا عنها كل شبهة وشائبة ، من ذلك ما ألغه في هذا الموضوع ابن هاشم اللخمي السبتي المتوفى سنة 575ه ومؤلفه الذي يهمنا في هذا الميدان هو دالمدخل الى تقويم اللسان وتعليم البيان، وقد ألفه تحقيقة لهذا الغرض الذي اشرنا اليه ، اي لمحاربة اللحن الذي لاحظه على السنة بعض العامة . ولقد كان لهذا العالم مؤلفات أخرى قيمة تدل على باعه الطويل في علوم اللغة ، منها : وشرح الفصيح لثعلب وكتاب الفصول والجمل في شرح ابيات الجمل وفي اصلاح ما وقع في أبيات سيبويه وشرحها للاعلام من الوهم والخلل، (2) ولقد تطور مؤلف ابن هاشم في لحن العامة ، فتناولته الإقلام (نظموا لغيمته وأهميته) بالبحث والدراسة حتى غدا مرجعا أساسيا اهتم به المنقدمون والمتأخرون ، وهكذا قام بترتيبه وتنقيحه العالم اللغوى ابن هانيء اللخمي المتوفى سنة 733 هـ حيث أخرجه في مؤلف قيم تحت عنوان : (3) وانشاد الفوال وارشاد السؤال، ثم قام باختصاره عالم لغوى آخر ، ابن خاتمة الانصارى المتوفى سنة 775 ه وسمى هذا الاختصار وأيواد اللئال من انشاد الضوال؛ ونظرا لاهبية هذا الموضوع

¹⁾ أنظر في هذا الموضوع الباب الاول من هذا البحث .

²⁾ محمد الفاسى ، تاريخ الدراسات اللغوية ،بالمغرب الاقصى (مجلة دعوة الحق مسعد 10 ، الرباط سنة 1960) صفحة 36 ،

³⁾ انظر م. ن. صفحة 37 .

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version

قسام الاستاذ كولان بنشر هذا المؤلف الاخير(I) ويحدثنا الاستاذ محمد الفاسى أن هذه التآليف توجه منها نسختان مخطوطتان بخزانة الاسكوريال وثالثه عند الاستاذ كولان بالرباط (2) وما هذه التآليف كلها الا أمثلة وجيزة تعطى القارىء فكرة عن مدى اعتمام المغاربة باللغة العربية ومدى دفساعهم عنها واخلاصهم لمبادئها كي لا يتسرب اليها دخيل أو لحن أو عجمة او غير ذلك من الشوائب . وكثيرا ما كانت هذه التآليف تصدر عن شخصيات كانت الى زمن قريب متشبئة بلهجتها البربرية ، محافظة على تقاليدها العتيقة . مما يدل على استعراب القوم استعرابا كليا .

ومن أهم العوامم التي كان لها فضل على تقدم اللغة العربية تلك الحركة النشبيطة التي عرفها فقه مالك وفروعه على يد رجال الدولة وخدامهم ، وعلمــاء وأدباء ورجال الفكر المغاربة بصفة عامة ، لقد مر بنا ونحن نتحدث عن هذه العلوم أن هذه الحركة عرفت تقدما منقطع النظير ، وان جل الابحاث والتآليف الضخمة الوافرة العدد كلها كانت تدور حول مذهب مالك ، وأصوله ، وفروعه لقد كان جل المئقفين فقهاء وجل المؤلفات في الفقه والتفسير والحديث حتى أصبح من المستحيل احصاء هؤلاء الفقهاء وعد مؤلفاتهم التي بلغت كمية وافرة لا تكاد تعد ، لقد رأيناهم يختصرون ويفسرون ، ويعلقون ، وينظمون ويجمعون الشتات ويبسطون المؤلفات الصخمة القديمة ، ويحللونها ، ويضمونها وينتقدونها ويذيلونها ويكملونها ، مضيفين اليها ما عندهم وما عند غيرهم . فكانت هذه الحركة ، بصفة غير مباشرة ، عاملا أساسياً في خدمة اللغة وتطويرها واحياء ما بات منها وما ضعف خصوصما وان الجهود التي بذلت في هذا الميدان كانت في أغلبها منصبة على الجانب الشكلي، وهو اللغة العربية ، فالشروح والتحقيقات والتعليقات والمختصرات والحواشي كانت تقتضي، بصفة منطقية النظر في الكلمة وتحديد مفهومها ومعرفة التغييرات التي طرأت عليها ، وتمييز صحيحها من فاسدها . والوقوف على أوجه الاختلاف التي كانت نفرق بين مذهب البصريين ومذهب الكوفيين ومذهب البغداديين وغيرهم . لقد رأينًا غير ما مرة في بحثنا هذا أن الجانب الشكل تغلب على الجانب الجوهري في أبحاث علماء وفقهاء هذا العصر حتى كاد يقضى عليه وحتى كاد الفقهاء يضحون به . فكان الربح ، في الواقع ، للغة العربية التي استفادت أكبر استفادة من جهود الفقهاء الجيارة ، وعنايتهم الخاصة بالالمام بمذهب مالك وبفروعه وأصوله .

¹⁾ هيسبريس سنة 1931 ص 10 ـ 24 ·

²⁾ أنظر دعوة الحق العدد العاشر سنة 1960 صفحة 36 .

وهكذا يتجلى بوضوح ما كانت عليه العلوم العربية من ازدهار نظرا للظروف الاجتماعية التى كانت تسود البيئة المغربية فى زمن بنى مرين وللعوامل الماشرة وغير المباشرة التى اجتمعت كلها وتضافرت فى زمن واحد لفائدة الوضعية اللغويسة .

وجريا على الطريقة التي سرنيا عليها في حسدا البحث سنتعرض هنيا لبعض الشخصيات المغربية التي اشتهرت بنشاطها في ميدان العلوم العربية كي نعطى للقارىء فكرة ولو موجزة عن بعض هؤلاء الإعلام وما قاموا به من جهود عملية أو نظرية .

نبدأ بذكر شخصية كبيرة نظرا لما لها من صيت ذائع وشهرة كبيرة وسمعة عظيمة فاقت حدود المغرب الاقصى وتعدته الى المغربين الاوسط والادني ثم الى الشرق ، انها شخصية أبى عبد الله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي المعروف بابن أجــروم المولود بفاس سنــة 672 هـ « في السنــة التي توفي فيها ابسن مالك صاحب الالفية في النحسو ، (I) . هو صاحب المقدمة المشهورة التي لا يكاد يجهلها أحد في الشرق وفي الغرب نظرا للطريقة التي استعملها صاحبها في صياغة قواعد النحو ، وهي طريقة مبسطة خالية من التعقيدات والتعاليق والاستطرادات والاطنابات المملة ، تتناسب وعقل المبتدىء في النحو لانها تراعى مستواه وامكانياته الذهنية ولانها تصرفه عن عالم المجردات الى عالم المحسوسات في الامثلة التي ياتي بها لشرح القواعد التي تريد من الطالب اتقانها . وبالجملة ، كانت ، في جوهرها مراعية ا لقواعد علم التربية وعلم النفس الحديث اذ لا زلنا نراها الى اليوم تغزو معاهدنا ومدارسنا نظرا لما اتت به من جديد وما قامت به من ثورة ضد الصنفات الطويلة المعقدة التي كانت مستعملة في عصر ابن جروم . والواقع ان هذا الاخير حقــق بفضل مؤلفه البسيط معجزة في ميدان النحو الذي أصبح مقرونا باسم أجروم أو الاجرومية هذه اللفظة التي أصبحت جارية على الالسنة على مبر العصور وفي مختلف البيآت . ونظرا لكل ما ذكر أصبحت مقدمة ابن جروم مقررة في مرحلة التعليم الابتدائي يتناولها الطالب بالحفظ ثم بالشرح بعدما يتم حفظ القرآن الكريم ، وبعد الالمام بها ومعرفة محتواها والقدرة على تطبيق قواعدها ينتقل الى المرحلة الثانوية في النحو حيث يشرع في دراسة ألفية ابن مالك التي تعتبر امتدادا وتوسيعا للقواعد التي سبق له أن درسها بواسطة مقدمة ابن أجروم .

¹⁾ أبن القاضي ، الجاوة 138 ،

فابن أجروم اذن يعتبر من الشخصيات المغربية التي أسدت لعلوم اللغة في عصر بني مرين خدمة لا تكاد تقدر قيمتها . وبذلك خلد اسمه على من الدهر

واستطاع غزو كل بيت وكل مدرسة وكل مكتبة .

لم تذكر المصادر التي عرضت لترجمته شيئا كثيرا عن حياته ونشأته . كل ما هنالك أن ابن القاضى ذكر في جذوته أنه كان من مؤذني مدينة فاس وانه توفي سنة 270ه(1) لا أقل ولا أكثر ولعل السر في ذلك راجع الى كون صاحبنا لم يتصل اتصالا مباشرا بالبلاط المريني ولو فعل ذلك لتعرضت له المسادر التاريخية بشيء من التفصيل نظرا لاعتناء هذه المصادر خصوصا بالبلاطات وما يجرى فيها وما يتصل بالملوك وما يتعلق بشؤونهم الدينية والدنيوية .

ومن بين هؤلاء الاعلام نذكر كذلك أبا عبد الله بن عيد المنعم الصنهاجي السبتي المتوفي سنة 750م كان عالما لغويا شهيرا بمدينة سيتة : أخذ عنه كثير من الطلبة ودرس كثيرا من الفنــون لا سيما علمي اللغة والنحو اللذين اشبتهو بهما ونبغ فيهما نبوغا جعلت بعض المصادر تهتم بهذا الجانب من ثقافته . ولعل من المفيد أن ننقل منا ما حكاء عنه صاحب وبلغة الامنية ومتصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب،(2) الذي تعرض له بشيء من التفصيل والتعظيم وفي ذلك يقول : «... حافظ للغات العرب متفني يقول الشعر واتفق له أنه توجه الى حضرة فاس في وفد أهل سبتة في أيام السلطان أبي الحسن وكان قد تقرر لديه حفظه فذكر ذلك لبعض كتبته فأراد الكاتب أن يغض منه فقال نصركم الله ان الرجل يحفظ لغة حوشية وان شئت أن تعرفها عنده فلخترع له اسما وسله عن معناه فقال له السلطان وما يكون الاسم . فقلل : يا مولاى سله عن التمركل ففعل فقال مجيبا : هو التلفع في الكساء واستشهد له عليه بشبواهد للعرب فعرف السلطان مكانته دفي الحفظ وقام الدليل عنده على ذلك رحمه الله، الى أن قال استنادا الى ابن خميس : و وكان يحكم قراءة كتاب سبويه اتم احكام ويستظهر شواهده كلها ويطرح ما عداه من مصنفات فنه وكان بقدم صحاح الجوهري على سواها من كتب اللغة ويستظهر شواهدها كلها، (3) هذه قصة ظريفة ومفيدة في نفس الوقت تدل على مدى تضلم مترجبنا في علوم

¹ أنظر الجدوة صفحة 131 -

² توجد منه نسخة محفوظة بقسم المخطاطات في الخزانة المامة بالرباط تحت رقم ... وقد اعتمد عليها الاستاذ البحانة محمد بن تاويت في تحقيق ونشر هذا الكتاب الذي ظل اسم مؤلفه مجهولا الى اليوم رغم بعض التخمينات التي نسبته لابن عبد الملك الانصاري السبتي ، انظر مجلة تطوان (عدد 9 سنة 1864 صفحة 174 ـ 188) حيث نشر الاستاذ ابن تاويت هذا المؤلف القيم .

٦٦6 م، ن، صفحة ١٦6

اللغة ونبوغه فيها نبوغا جعل السلطان أبا الحسن المرينى يهتم به ويعنى عناية حاصة بمعرفته اللغوية .

ومنهم أبو يحيى أبو بكر الشريف الحسنى الادريسى العالم اللغوى الشبهير، الفقيه المحدث، المشارك في علوم كثيرة وفنون مختلفة ؛ كانت مكانته عالية بسبتة وسمعته منتشرة في جميع القطر المغربي بفضل علمه الواسع ومعرفته اللغوية الغزيرة. ذكر عنه مؤلف بلغة الامنية(١) انه كان قاضي سبتة واماما في العربية والقراءات السبع والحساب والفرائض ... كان يقرىء من كتب العربية جمل ابي القاسم والفية ابن مالك و پاتي بكلام الطائفة الشطوبية و بابن ابي الربيع وابن عصفور وابن المضائع وابن خروف وسواهم . ولصاحبنا أيضا مؤلفات أخرى كلها في هذا الباب ، منها " ترتيب كتاب الامثال لابي عبيد على حروف المعجم ، ونظم كتاب الفصيح لابي العباس ثعلب وشرحه ، وهي مؤلفات قيمة موجودة الآن بخزانة الرباط قسم المخطوطات .

ومن المشاهير المغاربة الذين عاشوا في هذا العصر وأثروا في ثقافته تأثيرا قويا يجدر بنا أن نذكر اسما آخر لامعا خالدا وهو النحوى الكبير المكودى الفاسى المتوفى سنة 807 هـ. هو ابو زيد عبد الرحمان بن على بن صالح من قبيلة بنى مكود المشهورة بالعلم والورع. وهي من القبائل التي نزحت من نواحي فياس الى العاصمة العلمية حيث أدركت شهرة واسعة في خدمة العالم والثقافة . يعتبر المحكودي اماما في النحو واللغة الى جانب فنون أخرى كان مشاركا فيها أكبر مشاركة . عرف بفاس أستاذا عظيما يفصده الطلبة من فاس ومن النواحي البعيدة ليتتلمذوا عليه وينتفعوا بعلمه وبمعرفته اللغوية والنحوبية الكبيرة . تذكر بعض المصادر أنه كان ديدرس كتاب سبويه بمدرسة العطارين وهو آخر من درسه وبعده صار العمل على الفية ابن مالك، (2) ومن آثاره الجليلة شرحه لالفية ابن مالك ، خلك العصر والمهورة الله شرح ابن عقيل ، على نفس المتن . ولمترجمنا أيضا شرح الاجرومية المشهورة وشرح المقصور والمهدود لابن مالك .

ولا يجب علينا أن ننسى هنا الدور الفعال الذى قام به مالك بن المرحل السبتى(3) في خدمة اللغة وفروعها . اشتهر ، الى ثقافته الادبية ، بثقافة لغوية

¹⁾ م، ن، صفحة 184 ،

²⁾ عبد الله جنون ؛ النبوغ المغربي ؛ ج : 1 صفحة 210 .

³⁾ أنظر الفصل الذي خصصناه للتراجم ،

واسعة مكنته من القيام بمناظرات في الموضوع ومناقشة كثير من علماء عصره في مواضيع لغوية محددة ، مما يدل على طول باعه في هذا الميدان ، من ذلك ما وقع بينه وبين أبي الربيع النحوى الشهير الذي لاحظ على مترجمنا استعماله هذا التركيب النحوى : «كان ماذا» جرت هذه المناظرة التي أشرنا اليها بسبتة وقامت حولها ضجة جلبت لابن المرحل أنصارا وخصوما فقام نلدفاع عن نفسه والف كتابا حول وكان ماذا» آتيا بكلام العرب ومستشهدا بأقوالهم المختلفة وبأبياتهم الشعرية ردا على خصمه ابن أبي الربيع . وفي ذلك يقول :

عاب قـوم كـان مـاذا ليت شعرى لم هـذا ؟ واذا عـابــوه جهـالا ودون علم كان مـاذا ؟

والقصة مشهورة فى كتب التراجم والتاريخ التى تعرضت لترجمة ابن السرحل ، هى ان دلت على شىء فانما تدل على تمكن ابن المرحل من اللغة وتصرفه فيها تصرفا مطلقا جعله ياتى بحجج قوية مستمدة من القرآن ومن كلام العرب والشعراء كما جعله يتصدى لامام النحاة ابن أبى الربيع ليرد عليه وينقض كلامه.

ونجد في هذا العصر شيخا آخر من شيوخ اللغة والنحو ؛ عرف بثقافته الواسعة في هذا الميدان وبأستاذيته لكثير من الطلبة الذين تخرجوا عليه في اللغة والنحو ، وأعنى به أبا عبد الله سحمد ابن يحيى العبدرى الفاسى المعروف بالصفدى . دكان اماما في العربية ، ذاكرا للغة ، أخهذ العربية والادب عن ابى الحسن بن خروف وعن النحوى الاديب أبى ذر الخشنى ، واكمل الكتاب تفقها وتقييدا» (2) .

ونرى من قول ابن القاضى انه كان يعتمد فى تدريسه النحو على كتاب سيبويه الذى كتب عليه تقييدا . أما أستاذه ابن خروف فهو من كبار النحاة فى هذا العصر ومن مشاهير أئمة اللغة العربية اذ ترك لنا مؤلفات قيمة فى اللغة وفى النحو الى جانب نشاطه الكبير فى التدريس بفاس وبمراكش ؛ شرح كتاب سيبويه وسمى شرحه هذا : « شفى الالباب فى شرح غــوامض الكتاب ، كما شرح الجمل للزجاجى . ولقد توفى العبدرى سنة 615ه كما توفى أستاذه سنة و608 على حد قول ابن القاضى(2) .

^{2؛} ابن القاضى جلوة الاثتباس ؛ صفحة 138 .

¹⁾ م، ن، صفحة 307

وهكذا نرى الى أى حد كان المغاربة يعتنون بالعلوم العربية كما يتبين لنا من خلال عرضنا السابق وهذه الامثلة التى سقناها الدور الايجابى الذى قاموا به فى التدريس ، والتأليف وشرح كتب الامهات واختصارها وتبسيطها كى تصبح فى متناول الطالب المبتدى الذى يقبل عليها بكل شغف وشوق .

العليسوم البحتسة

نعنى بالعلوم البحتة الفلسفة ، والطب ، والرياضيات ، والتنجيسم ، والكيمياء ، والفيزياء ، وغير ذلك من العلوم المجردة . ولقد عرفت هذه العلوم في الشرق نوعا من الرقى والازدهار بعد حركة الترجمة النشيطة التى قامت بها عناصر مختلفة ، تلك الحركة التى أطلعت العرب على فلسفة اليونان وحكمة الهند وغيرها من الامم التى خضعت لسلطانهم ، فاستطاعوا ان يلمسوا بجوانب تلك العلوم ويهضموها بعد مجهودات جبارة قاموا بها فى نقل هذه العلوم الى لغتهم ؛ ثم بعد ذلك قامت حركة التنقيب والبحث فى هذه العلوم مكنت العرب من التقدم فيها والانطلاق منها الى آفاق أخرى واسعة تمثلت فى الاكتشافات والاختراعات التى أنجزوها للنهوض بمستواهم الفكرى ، وتحقيقا لتقدمهم نظريات جديدة ما كان لهم بها علم من قبل ، فبرهنوا عن مقدرة جبارة ، وفكر خلاق تجلت معالمه فى اختراعهم وفى انتاجهم الضخم ، فنبغت منهم شخصيسات خلاق تجلت معالمه فى اختراعهم وفى انتاجهم الضخم ، فنبغت منهم شخصيسات خلاق تجلت معالمه فى اختراعهم وفى انتاجهم الضخم ، فنبغت منهم شخصيسات الكندى والفاربى والخوارزمى وعمر الخيام وابن سينا وابن طفيل وابن رشد وغيرهم من مشاهير العلماء العرب الذين ذاع صيتهم فى الشرق وفى الغرب ،

ورغم ما قيل عن هؤلاء الاعلام من تأثرهم بالفلسفة اليونانية ودورانهم في فلكها وعدم التحرر من سيطرتها في أبحاثهم ونظرياتهم ، ثم عدم استطاعتهم تحطيم قيود التفكير الديني ؛ ورغم ما نعتوا به من قصور في ميدان التفكير المجرد الذي يترك جانبا كل ما له صلة بالدين ، رغم ذلك كله لا يمكن أن ننكر جهودهم الجبارة في التوفيق بين الفلسفة والدين كما لا يمكن أن ننكر انتاجهم العلمي الضخم وفضلهم على النقافة بصفة عامة وعلى الحضارة الانسانية جمعاء .

ومن الملاحظ أيضا أن هذه العلوم كانت في أغلب الاحيان في صراع عنيف

مع العلوم الدينية وسلطة الفقهاء بصفة أخص ، تلك السلطة التي حاولت ما أمكنها ، وبشتى الوسائل ، القضاء على التفكير الحر والفكر الفلسفي بصفة خاصة .

تلك فكرة موجزة عن حالة العلـــوم البحتة فى العالم العربى بصفة عامة . اما فى المغرب الاقصى الذى يهمنا هنا فلقد عرفت هذه العلوم تطورات خاصة وخضعت لعوامل مختلفة سنحاول التعرض لها فيما يلى :

رغم كون هذه العلوم كلها تتصف بالترابط والتكامل والتداخل فان منها ما عرف ازدهارا ملحوظا ، ومنها ما لم يكتب له النجاح ، كما أن منها ما كان بطيئا في نموه وتطوره .

الغلسفيسية

أما فيما يرجع للفلسفة فقد كانت أسوأ حظا وأقل انتشارا من سائر العلوم الاخرى ، وأكثر تعرضا لتهجمات الفقهاء ورجال الدين بصفة عامة ؛ عرفت محنا كثيرة في الشرق العربي ، فعذب أصحابها واضطهدوا وقتلوا في بعض الاحيان شر قتلة ، نظرا لمحاولتهم الخروج عن الحدود المالوفة ، تلك الحدود التي رسمها الفقهاء بصغة نهائية ؛ فكانوا ، خوفا على أنفسهم ، يعملون في الخفاء ، ويتسترون وراه الخلفاء والملوك بدعوى أنهم كأنوا يدافعون عن سياستهم ونظمهم ؛ ووراء علوم أخرى كأنوا يتقنونها في نفس الوقت ومع ذلك لم ينجوا من هؤلاء الرؤساء أنفسهم الذين كثيرا ما فتكوا بهم لاقل الاسباب وأتقه الاحداث ، وإذا كان مصيرهم هذا في الشرق حيث الخلافات ، والإمارات، والمؤامرات والانقسامات السياسية ، ونوع من الحرية . فإن مصيرهم بالمغرب الاقصى كان اقسى وأمر ، بل لم يجدوا مكانا لهم فيه، من الحرية . فإن مصيرهم بالمغرب الاقصى كان اقسى وأمر ، بل لم يجدوا مكانا لهم فيه، قدمنا ، إن سلطة الفقهاء ـ العدو اللملود ـ كانت قوية الى درجة الطغيان والجبروت. قدمنا ، أن سلطة الفقهاء ـ العدو الملود ـ كانت قوية الى درجة الطغيان والجبروت.

يمكننا ان نستثنى منذلك ما وقع في زمن الموحدين ، في زمن ابي يعقوب يوسف وابنه يعقوب المنصور على الخصوص ، حيث كان ابن طفيل وابس رشد ينعمان بالاستقراد والطمأنينة ، والهدوء ويجدان لدى هذين الخليفتين تأييدا مكنهما من مواصلة أبحاثهما الفلسفية ، فاستطاعا أن يخلفا لنا أروع مثال وأضخم انتاج في الميدان الفلسفي حتى قيل «ان الفلسفة ماتت بموت ابن رشد (عمر المعقوب المعقيمة الفيلسوفين نعما في هذا العصر بحياة هادئة في ظل ابي يعقوب

المنصور اذ كاتا من المقربين اليهما ؛ الا أنهما كثيرا ما انقلبا عليهما وفتكا بهما فتكا . يكفى ، مثالا على ذلك ، أن نشير الى أن يعقوب المنصور اضطهد الغيلسوف ابن رشد وأمر باحراق كتبه ما عدا مؤلفاته : العددية والطبية .

لقد حدث هذا الاضطهاد في زمن الموحدين حيث كانت الحرب قائمة ضد فقهاء مالك وكتبهم وحيث كانت الابواب مفتوحة للتجديد والاصلاح ؛ فماذا كان يمكن ان ينتظر من عصر بني مرين حيث بلغ طغيان فقهاء مالك حده ، وتعصبهم درجته القصوى . لا يمكن في الحقيقة ، أن ننتظر من هذا العهد الا نتائج سلبية ، بل سيئة بالنسبة للعلوم الفلسفية . ولا غرابة في ذلك ما دمنا قد اطلعنا ، فيما سبق ، على الجو الذي كان يسود البيئة المغربية من الناحية الدينية عموما ومسن حيث الفقه بوجه خاص ، اذ العوامل السلبية كانت كلها متوفرة في هذه المبيئة التي قيدت الجهود الفكرية وخنقت الاجتهاد الحر .

ونتيجة لذلك ، أصبحت العلوم البحتة تدرس في أماكن ثانوية بعيدة عن جامعة القرويين التي كانت خاصة بالعلوم الدينية بمذهب ملك ، فالقرويين كانت اذن محل تبجيل وتعظيم وتشريف بحيث لم تكن تدرس فيها الا العلوم التي تستحق الاحترام والتعظيم .

ونتيجة لذلك ، أصبحت العلسوم البجتسة تدرس في أماكسن ثانوية فكان الفلاسفة ، تبعا لذلك يبقتسون من طرف ملسوكهم رغسم الخدمات الجليلة التسي كانوا يؤدونها، وهكذا أصبحابو العباس بنشعيب الجزنائي الفامني ، العالم الشهير والغيلسوف الكبير المتوفي سنة 940م يمقت من طرف مخدومه السلطان أبي الحسن المريني رغم الاخلاص التام الذي كان يكنه له . وقد شهد بذلك معاصره ابن الخطيب الذي قال عنه في احاطته (I) : «وتهتك في علم الكيمياء وخلع عليه العذار ، فلم يحصل بطائله الى أن قال : «والغالب عليه العلوم الفلسفية وقد مقت لذلك» ولم يختلف الامام ابن مرزق في مسنده عن ابن الخطيب في هذه الشهادة حيث يقول(2) : يختلف الامام ابن مرزق في مسنده عن ابن الخطيب في هذه الشهادة حيث يقول(2) : وكان مولانا(3) رضى الله عنه ينفر منه لموجب الله أعلم بحقيقته ، ولا يبدو على ظاهره ما يدل على طعن في طريقته في المعتقد ، ولقد خبرته وذاكرته وباحثته فما اطلعت ، والله ، منه الا على ما يرضى، . ولقد تساءل الاستاذ كنون في استغراب اطلعت ، والله ، منه الا على ما يرضى، . ولقد تساءل الاستاذ كنون في استغراب

¹⁾ الاحاطة في اخبار فرناطة (طبعة القاهرة بدون تاريخ) ج 1 صفحة 188 •

²⁾ ابن مرزوق المسئد الصحيح . مخطوط الخزانة العامة بالرباط صفحة 198 .

³⁾ يعنى أبا الحسن المريني .

عن سبب النفور قائلا: (I) فليت شعرى من الذى مقته وقد كان بحيث يتنافس فيه الخلفاء ويخدم فى خاصة رجال البلاط كاتبا وطبيبا، ولم يستغن عنه أبو الحسن حتى صحبه فى معركته وهلك بمعيته فى الكائنة المشهورة بتونس، ثم يضيف ردا على ابن الخطيب (2): «والمقصود أن لا يتقول متقول على عصر التقدم فى الحضارة والعرفان بالمغرب وهو عصر بنى مرين فينسب اليه استنادا على قول ابن الخطيب أن الاشتغال بالعلم والفلسفة فيه كان من أسباب المقت ويسجل عار ذلك على رجال الدولة والشعب.

واذا كان الاستاذ كنون يشك في شهادة ابن الخطيب ؛ فهل يمكنه أن يشك كذلك في الخطيب ابن مرزوق الذي كان من الملازمين الاولين لابي الحسن ؟ أما نحن فنرى أن موجب هذا المقت والنفور ليس هو الاشتغال بالطب او بالحساب ، بل بالفلسفة التي كانت تشكل أكبر خطر بالنسبة للفقهاء وللملوك أنفسهم . واذا كانت العلوم قد تقدمت في هذا العصر على حد قول الاستاذ كنون ، فإن الفلسفة لم تكن ضمن هذه العلوم التي تقدمت في هذا العصر .

واذا كان بعض الملوك يغضون الطرف ويتسامحون في بعض الإحيان ،
عندلك لمدة موقتة ولاغراض شخصية قاهرة ، لا من أجل الابحاث الفلسفية بل
للانتفاع بالعلوم الاخرى التي كانت مجتمعة في شخص الفيلسوف الذي ، كما قدمنا ،
كان ملما بعلوم كثيرة : منها الطب والرياضيات والفلسفة وغيرها . فالسخط كان
ينصب أولا وبالذات على الجانب الفلسفي لا على الجوانب الاخرى التي تجتمع كلها
في شخص واحد . واذا كان التسامح قد بدا في بعض الاحيان اتجاه فيلسوف ما ،
فما ذلك الا لكونه ينفع بطبه أو بحسابه أو بجانب آخر من علمه . أما اقتصاره على
الفلسفة وحدها أو تبرزه فيها واشتهاره بها فكان ذلك وبالا عليه . ولعل أقوى
دليل وأكبر مثال نورده هنا لتعليل ما سبق هو ذلك الحادث الخطير الذي ذهب
ضحيته العلامة الكبير الوزير لسان الدين ابن الخطيب المذي قتل شر قتلة في
ضحيته العلامة الكبير الوزير لسان الدين ابن الخطيب المذى قتل شر قتلة في
العاصمة العلمية المغربية حيث أضرمت النار في جثته نظرا لكونه ، يشتغل بالفلسفة
و «بنحرف عن العقيدة الخالصة» على حد زعم بعض فقهاء الاندلس والمغرب الذيب
وجهوا ضده تهمة الزندقة والالحاد .

ورب معترض تساءل ، في استغراب ، عن عدم تعرضنا في هذا الحديث لابن خلدون ، فيلسوف المغرب في القرن الرابع عشر (م) . نعم ان ابن خلدون يعتبر أكبر

¹⁾ النبوغ المنربي في الادب المربي . س

²⁾ المصدر السابق ، من

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شخصية عرفتها البيئة المغربية في زمن بني مرين في ميدان العلوم البحتة والمعرفة الواسعة ، ونحن لا ننكر دقة ملاحظته ، وقوة ذكائه ، واستعداده الفطرى ، ومواهبه العقلية الخارقة نعترف بزعامته الفكرية وبقصب السبق الذي حصل عليه في ميدان العلوم الاجتماعية ، اذ هو مؤسس علم الاجتماع وواضع أسسه المتينة قبل أحيست كونت ؛ الا أننا نستبعد أن يكون قد نهج نهج الفلاسفة وحذا حذوهم في ميدان البحث المجرد والنظر الى الكون والانسان وعلاقة بعضهمما ببعض نظرة فلسفيمة محضة . لقد فلسف التاريخ وأبرز قواعد علم الاجتماع ، وبين لنا القوانين التي تخضع لها الظواهر الاجتماعية لكنه لم يسر بعيدا ولم ينطلق الى آفاق أخرى تتصل بالوجود ، بالله بالطبيعة وبما وراء الطبيعة . لم يتعرض للمذاهب الفلسفية التي كانت موضوع النقاش والبحث في عصره من طرف فلاسفة عرب ، أمثال ابن طفيل وابن رشد . فلماذا تغاضي عن هذه المعطيات الفلسفية التي كانت رائجة في عصره ولم يتعرض لها لا بالسلب ولا بالايجاب؟ أكان ذلك تجنبا منه وخوفا من الظروف القاسية على من يخوض غمار هذه الابحاث آنذاك ؟ أم كان نفورا وتعصبا مقصودا أو عجزا ؟ ذلك ما لا يمكن الاجابة عنه اليوم بالقطع رغم كوننا لا نجهل ما كان يتوفر عليه ابن خلدون من طاقة عقلية خارقة للعادة تؤهله لمثل هذه الابحاث وبعد ، ذلك هو نصيب الفلسفة والفلاسفة من البيئة المغربية في عصر بني مرين ، وهو نصيب ضئيسل . هزيل لا يحسد عليه . وقد كنا نود ان ناتي هنا ، كما فعلنا بالنسبة للعلوم الاخرى ، بقائمة تعطينا فكرة واضحة عن بعض فلاسفة المغرب في هذا العصر وعن اتجاهاتهم المذهبية والايديلوجية ، لكننا ، في بحثنا هذا ، اصطدمنا بعقبات كثيـرة جعلتنا لا نطمئن الي. بعض الاشارات الخفيفة والكلمات العابرة التي وجدناها في ثنايا يعض المصادر بصفة عفوية ؛ فهي لا تمثل بالنسبة لبحثنا حججا كافية نبني عليها أحكامنا ونستدل بها في تعليلاتنا وفي وصفنا لهذه الظاهرة أو تلك . الا أن هــذا لا يعني مطلقا أن هذا العصر لم يعرف فلاسفة فقد يكون نبغ عدد قليـــل او كثير ، لكن الاضطهاد والتعسف غطيا عليهم وخنقا أنفاسهم حتى أصبحنا نرى الصادر تتعرض يتفصيل للفقهاء وعلماء الدين وتتعمد السكوت عن ذكر الفلاسفة الا في أحيان نادرة تشير اليهم اشارة خفيفة غير مبالية بانتاجهم او باتجا ههم نظرا للضغط الاجتماعي الخانق . أما أثر الفلسفة فقد كان متجليا لا في الابحاث الفلسفية وحدها بل كان ظاهرا في أصول الفقه وفي النحو وفي العروض وفي المنطق وان كان ذلك لا يتضح للباحث بصفة مباشرة ؛ فمن الممكن اذن أن يكون هناك فلاسفة تفلسفوا من حيث لا يشعرون ا

الريساضيسات

امتاز العصر المرينى بنشاط منقطع النظير فيما يرجع للرياضيات والعلوم المرتبطة بها كعلم التوقيت والمغواض وغير ذلك ؛ وعرف هذا العصر ما لم يعرفه في عصور أخرى سابقة أو لاحقة من شخصيات كثيرة لامعة ، نبغت في هذه العلوم وتقدمت فيها تقدما باهرا جعلها تتفرق على أعل زمانها ؛ فكان منها من أصبح أستاذا لمن أتى بعده بغضل ما قام به من ابحاث وما خلفه من آثار طلت الى يومنا المرجع الاساسى(ت) لكثير من هذه العلوم . فأصبحنا نرى شخصيات أخرى تفته على المغرب في الاقصى. من الاندلس ومن المغربين الاوسط والادنى لتاخه عن أساتانة المغرب في

ويرجع ازدهار هذه العلوم الى عوامل رئيسية ، منها أن الرياضيات ظلت ، على مو الازمان ، فى الشرق وفى الغرب ، العلم الوحيد الذى لم يعرف لا تنافرا ولا تعارضا مع علوم الدين والفقه ، تلك العلوم التى سبقأن رأينا ما كان لها من تأثير على أوجه النشاط الفكرى الاخرى كالفلسفة وما يرتبط بها ؛ فلم تكن الرياضيات ، من حسن حظها ، تمس بالفقهاء أو تخل بسلطتهم ؛ ولم تكن تتعارض لا فى قليل ولا فى كثير مع العلوم الشرعية السائدة آنذاك ؛ ولم يكن ملوك بنى مرين ينفوون من أصحابها أو يمقتونهم كما فعلوا بالنسبة لغيرهم ؛ بال كانوا يقربونهم منهسم من أصحابها أو يمقتونهم كما فعلوا بالنسبة لغيرهم ؛ بال كانوا يقربونهم منهسم وخدمة لمصالحهم (2) . فنجوا ، تبعا لذلك ، من المكر والتحديمة ، والمناورات والمؤامرات التي كانت تدبر ضد غيرهم . وبذلك استطاعوا أن يتفوغوا بكل هدوء واطمئنان لتشاطهم ، ويبذلوا فيه الجهود المجبارة التي خلدت ذكرهم وعملت على اذاعة صيتهم قى الشرق وفى الشرب .

ومن العوامل التى ساعدت على النهوض بمستوى الرياضيات في هذا العصر حاجة الكولة الى ضبط أحكامها ، ومواردها ومصاريفها ، واستخلاص ضرائبها . كل ذلك يحتاج الى دراية في علم الحساب وتفنن في تطبيقه تطبيقا مضبوطا خاليا من كل خطأ أو غلط . فالفاية منا كانت اقتصادية قبل كل شيء ، تستهدفها الدولة لتكوين أطرها وملء وظائفها الشاغرة بالحزن الذي كان يضم من بين موطفيسه مسئولين حسابيين يشرفون على الدواوين الخاصة بتسيير شؤون الدولة المالية .

I) تلخيص ابن البناء المراكشي .

²⁾ أبو سعيد عثمان يستدعى ابن البناء المراكشي ويطلب منه اطلاعه على وقت وقاته ،

على أن أهم عامل في نظرنا كان وراء هذه الحركة الرياضية النشيطة هو حاجة الشعب ، تطبيقا لتعاليم الاسلام وقياما بالواجبات الدينية ، الى ممن يعرف باوقات صلواته وصيامه ، كما كان في حاجة أكيدة الى معرفة ما أوجبه الله تعالى فيما يتعلق بنظام الارث وتوزيعه . وذلك يحتاج الى معرفة دقيقة بعلم الحساب ، لان مشاكل الارث ، كما لا يخفى ، مشاكل عويصة ، معقدة في بعض الاحيان ، كثيرا ما تستعصى على العدول والفرضيين ، فيلجأو في حلها الى أهل الدراية والمعرفة في هذا الميدان . ومعنى ذلك أن علم الغرائض وعلم التنجيم كانا من أهم الاسباب التي جعلت الرياضيات تنهض وتتقدم تقدما كبيرا، نظرا للترابط الوثيق الموجود بينها . فالسبب اذن كان دينيا في جوهره ، ويكفى أن يكون كذلك لتزدهر هذه العلوم في الاسبب اذن كان دينيا في جوهره ، ويكفى أن يكون كذلك لتزدهر هذه العلوم في الاولى كانت الدين وتطبيق تعاليمه نظرا لكون البيئة النغربية في عصر بني مرين الاولى كانت الدين وتطبيق تعاليمه نظرا لكون البيئة النغربية في عصر بني مرين كانت ، كما رأينا في فصل سابق ، بيئة دينية ، محافظة ، شديدة التعسك بتعاليم الاسلام وبشعائره ؛ كل حركة فكرية ساندت الدين وجدت فيه خير معين وخير نصير ، كما أن كل حركة حاولت القيام بمسه كان مآلها الفشل .

وتريد ، بهذا الصدد ، أن نشير الى ما ذكره الدكتور رينو في بحثه حول العلوم البحتة وتعليمها بالمغرب (r) .

لقد تعرض الدكتور المذكور لهذه العلوم وتناول طرق تعليمها بالنقد مبيئة ما كان لتلك الطرق من آثار سيئة على الذهن وعلى تطور الثقافة بصفة عامة . ولقد ذكرنا أولا بما سبقه اليه ابن خلدون الذي عقد فصولا كثيرة في مقدمته (2) عن أساليب التربية والتعليم العقيمة التي كانت سائدة في عصره . والدكتور رينو متاثر بابن خلدون تأثيرا شديدا ، ونحن نوافقه على أن تلك الطرق التي تعتمد على الذاكرة وحدها والاستظهار من شأنها أن تحول دون التقدم الفكرى والازدهار التعليم ؛ لا ريب في ذلك اذا كانت الذاكرة هي الاساس الوحيد الذي يعتمد عليه في التعليم ؛ الا أننا نراه يبالغ ويتطرف في حكمه ناسيا أن الذاكرة تلعب دورها الرئيسي في التعليم ، ولا يجب أن نحاربها ونقاوم كل ما من شأنه أن يتصل بها ؛ فالحفظ والاستظهار لا خطر فيهما اذا ما أحسن استعمالهما واستغلالهما في ظروف معينة وبعد استيعاب وفهم ما يطالب التلميذ بحفظه . ان التربية الخديثة التي قامت

المحمد ب، رينو ، تعليم العلوم البحته ونشر المؤلفات العلمية بالمغرب قبل الاحتلال الأوربي ، اريثيون ج 13 صفحة 325 روما ، بدون تاريخ ،

²⁾ أنظر الفصل المتعلق بالعلوم الدينية في المقدمة ص 422 .

على انقاض تلك الطرق العقيمة تنص فى مبادئها على عسدم التخلى عن المذاكرة بل تلح على تنميتها كسائر الملكات الاخرى ، لكن مع مراعاة التناسب والانسجام . فاذا كان المغاربة ، كما لاحظه رينو ، يكثرون من حفظ المنظومات الرجزية فى تعلمهم الدينى أو العلمى بصفة عامة ، فانهم كانوا يتخذون ذلك لبنة أولى لتركيز الاسس التى يبنون عليها فيما بعد ؛ فالحفظ لم يكن الغاية بل كان وسيلة فقط ، ولذلك استطاعوا فى هذا الميدان أن يحققوا انتصارات عظيمة . ومن ملاحظات الدكتور أيضا أن «العرب ، خلافا لعلماء اليونان ، كانوا يشتغلون بالعلوم الرياضية وغيرها لغاية نفعية لا من أجل العلم كما فعل اليونان الذين لم يستهدفوا من وراء خدمتهم للعلم أى شىء(1) .

اذا كان الدكتور يعنى «بالغايات النفعية» خدمة الدين وشؤون المسلمين التي تمس علاقتهم بالاله وعلاقة بعضهم ببعض فائنا لا نرى فى ذلك أى تشويه للحقيقة أو تعصب يحرفها ، ولكن اذا كان يعنى شيئا آخر اى خدمة المصلحة الشخصة المحضة أو هدفا اقتصاديا أو تجاريا فذلك ما لا نوافقه عليه ، لان المسلمين استطاعوا في اطارهم الدينى وأن يحققوا المعجزات» فى ميدان العلم والمعرفة بشهادة كثير من المؤرخين العرب وغيرهم الذين تصدوا لمدراسة مظاهر الحضارة الاسلامية دراسة موضوعية ونزيهة . وليس معنى هذا أننا نشك فى نزاهة وأمانة رينو ولكننا فقط أردنا فى عرضنا هذا أن نشير الى ما يقع من سوء فهم أو التباس فى تاريخ الحضارة الاسلامية .

وبعد هذا العرض الوجيز الذي قمنا به لاعطاء فكرة عن الحالة بالنسبة المعلوم الرياضية نريد الآن أن نتعرض فيما يلي لذكر بعض الشخصيات المغربية أو التي كان للمغرب فضل عليها فيما يرجع لهذه العلوم . فما هي اذن هذه الشخصيات التي برزت في عصر بني مرين ؟ لقد بحثنا عن اشهرها واكثرها ايجابية في تقدم هذا النوع من العلوم فوجدنا من خلال دراستنا للمصادر التي وقفنا عليها ظاهرة حديرة بالذكر والانتباه ، ذلك أن جميع من برثروا في الرياضيات كانوا تقريبا تلاميذ لاكبر شخصية وأعظم نابغة في العلوم الرياضية عرفها العصر المريني في المغرب : انها شخصية أبي العباس احمد ابن البناء المراكشي (2) الذي قاق أهل عصره وسيطر بنفوذه على المغرب وعلى المشرق ؛ كان يقصده الداني والقاصي لياخذا عنه وينهلا من علمه الغزير ، حتى صهار اسمه مقرونا بالرياضيات نظرا لتفوقه فيها وتبحره في

¹¹ رينو م. ن. صفحة 326 .

²⁾ أنظر ترجمته في الباب الذي خصصناه للمشاهير .

فروعها وتفننه فى تطبيقها وتهتكه فى تطويرها ، وسلوكه فيها مسلكا جعل الخاصة والعامة يتعجبون فى أمره لكونه سار بعيدا وقطع أشواطا حتى علا نجمه وأصبح فى السماء ضوءا لامعا مشرقا يستنير به كل من حاول اتباع طريقه والاهتداء بهديه والاسترشاد بنصائحه . ولقد أحببنا نظرا لهذه المكانة المرموقة التى حصل عليها ، أن نخصص له فى مكان آخر ترجمة كافية تجعل القارىء يطلع على جوانب شخصيته وعلى أطوار حياته ومظاهر ثقافته ؛ لذلك نتركه الآن لننتقل الى شخصيات أخرى كانت لها شهرتها فى نفس الميدان ودورها فى النهوض بهذا النوع من العلوم التى نحن بصددها .

وفى المقدمة نذكر أستاذه الكبير أبا زيد عبد الرحمان الهزميرى ، الصوفى الشهير ، مؤسس الطريقة الهزميرية بأغمات «كثيرا ما كان يزوره تلميذه ابن البناء اذا عنت له مشكلة أو حل به أمر حار فى التخلص منه (١) . «كان عارفا بالحساب والتعاليم والهيئة ، (2) توفى بفاس سنة 706 ه .

ومن شيوخه كذلك محمد بن محمد بن ادريس القلوشى المولود عام 607ه والمتوفى سنة 707ه . درس عليه ابن البناء بفاس كتابه فى العروض المسمى بالختام المفضوض وأراجيزه فى الفرائض كما درس ايضا على أبى عبد الله محمد بن مخلوف السجلماسى المراكشى التنجيم .

ومن مشاهير هذا العصر في الرياضيات العلامة الكبير محمد بن النجار التلمساني . درس على أبي عبد الله الابلى ثم انتقل الى فاس فاتصل بامام التعاليم أبي عبد الله بن هلال كماتتلمذ لابن البناء حتى أصبح متقوقا في علم النجوم . اتصل بأبي الحسن المريني فضمه الى بلاطه ، فصار في خدمته الى أن توفي بالطاعون سنة 749ه .

احمد بن ابراهيم بن محمد بن صفوان أبو جعفر حسبما جاء في الاحاطة(3). كان فيلسوفا ومتصوفا كلفا بالعلوم الالهية . انتقل الى العدوة ودرس على ابن البناء بمراكش .

¹⁾ رينو ، ابن البناء المراكشي ، هيسبريس ج : 25 سنة 1938 .

²⁾ ابن آلقاضي ، الجادرة (الطبعة الحجربة بفاس) صفحة 167 .

³⁾ الاحاطة تحقيق محمد عبد الله عنان (دار الطرف بمصر بدون تاريخ) المجلد الاول صغحة 230

على بن عبد الله بن محمد بن هيدور التمادلي . كان اماما في الفرائض والحساب واشتغل بتدريسهما بعد أن تتلمذ لابن البناء . اعتنى اعتناء خاصما دبتلخيص، استاذه فشرحه كما قيد على كتابه رفع الحجاب ، توفى بمجاعة فاس سنة 816ه .

عبد الرحمان بن محمد بن عبد الرحمان بن يوسف بسن محمد ابن عطيسة المديونى الشهير بالجاديرى ولد سنة 777ه ، كان متضلعا فى علوم الحساب والتوقيت الشىء الذى أهله لان يصبح موقت جامع القرويين . يقول ابن القاضى : «له كتاب جمع فيه بين العمل بآلة الاسطرلاب وبالصفيحة الشكازية وبربع الدائرة ، والعمل بالحساب ؛ والجدول ؛ وتنبيه الانام على ما يحدث فى أيام العام ، ومختصر شرح الخاقانية للدانى ؛ والرجز المسمى بالنافع فى أصل حروف نافع ؛ والمذكر والمؤنت وروضة الازهار فى علم وقتى الليل والنهار وشرح البردة (I) » ، كانت وفاته سنة 818ه ويتعلق الامر هنا ، كما نرى ، بشخصية ملحوظة ذات ثقافة واسعة ، وقدرة على التأليف ، ولو قدر لها أن تعيش آكثر لافادتنا بانتاج أضخم ، لكن المنية عاجلتها وجالت دون تحقيق ذلك .

ومن علماء هذا العصر في الرياضيات نذكر أيضا العلامة الكبير محمد بن شاطر أبا عبد الله المراكسي . قال ابن القاضي نقلا عن المقرى : دلتيت فيمن لقيت بفاس رجلين . أحدهما عالم الدنيا والآخر نادرتها . أما العالم فهو شيخنا أبو عبد الله بن احمد العبدرى الابلى واما النادرة فأبو عبد الله بن شاطر (2)» . انتقل الى مراكش فلازم أبا زيد الهزمرى ، واتصل كذلك بابن البناء اتصالا وثيقا مكنه من الاطلاع على ما عنده من معرفة واسعة بعلم الحساب .

وكان حيا في هذا العصر بفاس عالم كبير ، خلوف اليهودى المغيل وشميخ التعاليم، (3) أخذ عنه في الحساب طلبة كثيرون واشتهر في عصره بهذا العلم حتى أصبح الناس يقصدونه من الداخل ومن الخارج . يكفى أن نشير الى أن الابلى محمد ابن ابراهيم العبدرى العالم الشهير ، لما فر من بلاده قصد خلوف هذا واختفى عنده بفاس الى أن انتقل الى مراكش حيث قطب العصر وأستاذ زمانه ابن البناء . كنا نود أن نخص هذه الشخصية بترجمة وافية نظرا لكونها من دين آخر ، لكننا لم نعش على

الجارة صفحة 165 .

¹⁾ الجدرة صفحة 249 .

الجلوة صفحة 199 .

أكثر منا قلناه عنها . لم نكن نشك فى أن اليهود لعبوا دورا ثقافيا كما خاضوا غمار السياسة والادارة فى هذا العصر ، لكن المصادر قليلا ما تعرضت لهم لاسيما ممن المناحية المثقافية اما لتعصب واما لاسباب أخرى نجهلها الى اليوم .

وعلى كل ، فقد راينا ما كان لهذه الشخصيات التى سردنا اسماءها من تضليم فى الرياضيات على الخصوص كما رأينا أنها كانت فى أغلبها تدين الستاذ واحد انفرد بالرئاسة والزعامة فى هذا الميدان ، ألا وهو احمد أبدو العباس ابس البناء المراكشي . ولعل فى ذلك أمثلة كافية تتناسب وأهمية هذا البحث .

العلسوم الطبيسة

أكد كثير من المؤرخين ان الطب بالمغرب عرف نوعا من الالادهار أيسام المبرابطين والموحدين ثم أصابه الركود والجمود في عصر بني مرين ، وهم في حكمهم هذا يقرنون الحالة المغربية بالعالة في الاندلس وفي الشرق؛ بحيث أن الركود الذي تميزت به الحضارة العربية في القرن الرابع عشر (م) كان عاما وسائدا حتى بالنسبة للمغرب الاقصى . وأقدم نظرية في هذا الموضوع هي للطبيب المؤرخ الشهير لوسيان لوكلير الذي ذكر في مؤلفه تاريخ الطب عند العرب(I) أن المغرب عرف عددا من الاطباء تكونوا في القرنين الحادي والثاني عشر ولازموا ملوكهم في الاندلس ثم ما لبثوا أن انتقلوا مع هؤلاء الملوك الى المغرب ليقضوا آخر أيامهم به . وهكذا استفاد المغرب من المصائب التي حلت بالاندلس أما ما حدث بعد ذلك فهر عبارة عن جمع بعض المؤلفات القديمة وتنقيحها وتهذيبها وحصرها في شبه قوائم أو قواميس تضاف اليها بعض الحواشي والتعاليق، ذلك هو رأى الدكتور لوكلير فيما يرجم للطب بالمغرب في القرون الوسطى ، بل نراه في حكمه يغاني ويتطرف عندما يقول(2) : «من الممكن أن نسجل أنه كان هناك عدد لا يزيد عن أربعين طبيبا نسبهم من اسبانيا ، ولا نجد ولو واحدا منهم يصح أن ننعته بالشهرة والنبوغ ، ذلك أن كل انتاج أصيل قد كف وانعدم واصبحت الجهود تدور حول القديهم لتجمعه وتقتبس منه لا اقلل ولا أكثر ، ولقد كان لهذا الرأى الخطير تأثير مباشر على من جاء بعد لوكلير وحاول البحث

¹⁾ طبعة باريز 1876 ج 2 صفحة 241 .

²⁾ تنس المصدر صنحة 242 .

في آثار المغاربة في هذا الميدان . ويهمنا هنا ما قاله مؤلف معاصر محمد بن احمد العبدرى الكانوني (x) في مؤلفه تاريخ الطب بالمغرب حيث نجده متأثرا تأثيرا مباشرا بنظرية الدكتور لوكلير . ففي مقدمة كتابه هذا قدم لنا بحثه في تصميم واضح يشتمل على أربعة أقسام . في القسم الاول وهو القسم الذي أطلق عليه دور التكوين في القرون الاربعة الاولى ، تكلم عن نشأة الطب ومظاهره في المرحلة الاولى ، أما القسم الثاني فهو في نظر المؤلف دور الازدهار الذي يتحقق في القرنين الخامس والسادس، أى في ظل المرابطين والموحدين . أما الركود والجمود فقد تجليا في عصر بني مرين قبل عصر الاتحطاط الذي هو القرن التاسم وما بعده . ويلاحظ القاريء أن هذه النظرية لا يختلف لا في جوهرها ولا في شكلها عن نظرية لوكلير . فكلا المؤرخين اعتمد في بحثه على الازدهار الذي كان قائما بالاندلس في هذا الميدان وربطه بالحالة في المغرب في نفس العصر ، وكلاهما ذهب الى أن الانحطاط الذي أصاب الشوق العربي أصاب المغرب في نفس الوقت ، بمعنى أن ظاهرة الانحلال السياسي وتقهقر الاوضاع الاقتصادية حلت بالمغرب كما حلت بالمشرق بدون أدنى فرق ولا تفاوت لا في الزمن ولا في المكان . وإذا كانت هذ ه النظرية تعتمد على شيء مـن الصحـة وقليل مـن الحجم الواقعية(2) فان لنا رأيا خاصاً وهو أن المغرب، بقطم النظر عن صلاته بالشرق وبالاندلس اللذين كانا يمدانه بكثير من الابحاث والاطباء ، كسان له نشاط طبسى تقليدي يعتمد على التجارب الواقعية والاحداث التي مرت بالاجيال السابقة والتي عرف فيها المغاربة الاطباء كثيرا من النجاح والتوفيق. فالطب التقليدي كان مزدهرا بالمغرب كما هو مزدهر الآن ببعض الاقطار الاسيوية كالصين مثلا حيث توجد جامعة خاصة بهذا النوع من الطب الى جانب جامعات عصرية وقد ذكر بنسمون في بحثه حول الطب والاطباء بالمغرب (3): «أنه يجب أن للاحظ أن الطب التقليدي بالمغرب كان يستعمل في عدة حالات أنواعا من العلاج لم يعد نزاع في جدواها، وكثيرا ما كان الطب التقليدي ينجح في معالجة أمراض يخفق فيها الطب الذي يعتمد على النظر والبحث المجرد مثال ذلك ما وقع لابي عبد الله محمد الفهرى أو الشفرة (حسب

بعض المحادر) الجراح الشهير الذي يخكى عن نفسه (4) انه حاد في معالجة امرؤة

¹⁾ مخطوط وضعه رهن اشارتنا الاستاذ عبد السلام ابن سُودة .

²⁾ لقد سبق للدكتور لوكلير أن عبر عن أسفه لعدم استطاعته زيارة آلمغرب ولا سيما مدينة فاس كما جاء في كتاب العلب والاطباء بالمغرب لعبد العرير بن عبد الله (طبعة الرباط 1960) صفحة 91 .

^{3؛} أنظر المرجع السابق صفحة 75 حيث يستشهد الاستاذ ابن عبد اللــه بآراء الطبيب بتسيمون اللى كتب بعثا حول ألطب بالمغرب مجلة المترب الطبى (شتنبر 1951) .

^{4؛} انظر في مجلة هيسبريس (هدد 20 سنة 1935 صفحة 3) بحثا للدكتور رينو عنوان جراح من مملكة غرناطة .

من قبيلة بنى العلاء أصيبت بقروح كبيرة في رأسها فرفض معالجتها وترك الامر لحجام اعتنى بها . هذا ولقد تحدث الدكتور رينو بتفصيل في كتابيه الطب بالمغرب(١) والصحة والطب بالملغرب(2) عن وسائل العلاج التقليدية التي كانت مستعملة في المغرب مشيدا في كثير من الاحيان وتأثيرها بجدواها الصحى المباشنر نذكر من ذلك(3) أن المغاربة كانوا يعالجون النزيف بمسحوق اليفطين ودقيق الفول، كما كانوا يتخذون الكي لمقاومة هذا النزيف ، ومن بين الوسائل التي كانت رائجة في القديم عملية الدلك التي كان يلجأ اليها عندما يصاب المريض بكسر أو ما يشبه الكسر مع اطعام المريض ببعض المواد الغذائية الغنية بالفوسفاط والجير ، وكانت أمراض الاذن(4) تعالج بالجاوي والزعفران والزيت ، وذكر أيضًا استنادا الي الدكتور رينو أن أطباء العيون المغاربة ، كانت لهم «أساليب مفيدة لمعالجة أنواع الرمد ولهم فيه مهارة ؛ ويستطيعون أن يزيلوا محد: غشاوة العين المانعة من الابصار ، بل يتقنون عملية أصعب من هذه، وهكذا تدلنا هذه الامثلة القليلة على أن المغاربة لم يعدموا أطباء مهرة استطاعوا بخبرتهم الطويلة وبتجاربهم المبنية على بعض التقاليد المتوارثة أن يقاوموا أمراضا خطيرة وينجحوا في بعض الاحيان حيث تخفق عمليات الطب النظري المبني على البحث المجرد . حقا لم تظهر نظريات جديدة أو اكتشافات جديرة بالذكر كاكتشاف الدورة الدموية التي قام بها ابن نفيس المصرى(5) فاقتصر الامر على دراسة ومراجعة كتب ابقراط وجالينوس وديجينوس وابن سينا وابن البيطار والانطاكي وغيرهم من التبابعة الذين لعبوا في الطب دورا أو تناولوا الكتب القديمة بالشرح والنظم والتعليق، ولكن الطب العمني كما ، رأينا ظل نشيطا ومستمرا يعالج الامراض على اختلاف أشكالها وتنوع مظاهرها . ولنرجع لنتساءل مرة أخرى عن أسباب هذا الجمود الذي وصف به الطب المغربي في عصر بني مرين، هل كان هناك ، في البيئة المغربية ، ما يقاوم النشاط الطبي أو يعرقل تطوره كما حدث بالنسبة للفلسفة أو بعض العلوم المتصلة بها يوم كان الفقهاء ورجال الدين بصفة عامة يصبون جام غضبهم وحقدهم عليها ويكيدون ويتآمرون للقضاء عليها وعلى أصحابها هل كانت تتعارض مع هذه العلوم في فروع من فروعها ؟ لا نظن ذلك لان الواقع المعربي آنذاك يشهد بالعكس يشهد باعتناء الملوك بالطب وبالاطباء وبجميع ما له صلة بهما ؛ والشعب نفسه كان من مصلحته أن يعمل كل ما من شأنه أن ينهض بهذه العلوم وينمى مستواها نظرا

¹⁾ نشرة معهد الدروس العليا بالرباط سنة 1939 عدد 1 .

نشر بالجزائر 1950 .

³⁾ عبد العزيز بن عبد الله الطب والاطباء بالغرب (الرباط 1960) س 72 .

⁴⁾ نفس المرجع صفحة 73 ،

⁵⁾ اكتشف (بـــن نفيس الدورة الدموية العمفرى قبل الغربيين بنحو ثلاثة قرون

iverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لما يجد فيها من تحقيق لمصلحته السخصية ومقاومة بعض الامراض التي كانت تفتك به أيام المجاعات التي عرفها في هذا العصر والطاعون الذي حل بالمغرب بصفة خطيرة كما حل باقطار العالم الاخرى إن التاريخ يشهد لبني مرين باعتنائهم الخاص واهتمامهم المتزايد بهذا النوع من المعرفة والنشاط فكان اهتمامهم هذا يشمل الناحية النظرية والناحية العملية في نفس الوقت ، ولذلك أصبحنا نرى في هذا العصر كثيرا من الاطباء يخصونهم بأبحاثهم ويقدمونها لهم كهدايا ثمينة كالارجوزة(I) التي نظمت وقدمت لابي سعيد عثمان المريني وكعمل «من ظب لمن حب» لابن الخطيب لسان المدين الذي ألفه وقدمه هدية لابي سالم بن أبي الحسن المريني ، ويعتبر من المؤلفات المقيمة التي ألفها ابن الخطيب في الطب كما شهد بذلك الكانوني(2) وغيره ، ويوجد الآن بخزانة القروبين تحت عدد 7657 ضمن المخطوطات المغربية ، ولقد سبسق أن رأينا أن مؤلاء الملوك كانوا يتحملون بعض الفلاسفة رغم كراهيتهم الشديدة للفلسفة ويغنون البطرف عنهم نظرا لاشتفالهم بالطب أو بالرياضيات أو بالادب أو بغنون أخسيري ،

ومهما يكن من أمر فالنشاط الطبى كان فى هذا العصر يتجلى فى مظهرين اثنين : مظهر علمى نظرى يتعلق بالاطباء وبانتاجهم ومظهر ثان يتمثل فى المارستانات المتابعة لها .

المرستانيات:

لقد تعرضت المصادر التي اهتمت بتاريخ بني مريسن الى هذه المنشآت العمرانية التي أسست في هذا العصر لكنها في تعرضها هذا كانت وجيزة عابرة ثم كثيرا ما اختلفت في تسمية هذه المؤسسات التي كانت في نظر البعض مدارس طبية أو مستشفيات بمعناها الحديث أو مارستانات خاصة بالعلاج وباطعام المساكين والمعوزين . وهكذا وقع الخلط والالتباس في موضوع يكتسى صبغة هامة بالنسبة لتاريخ العضارة المغربية في عصر بني مرين ولا سيما الجانب الاجتماعي منها . مثال لذك ما وقع في تسمية المارستان الذي بناه أبو عنان المريني بسلا ؛ فقد ذكر الكانوني(3) أنه كان «مدرسة على ما جزم به الشيخ الوالد المقدس في تاريخ الاستقصاء

I) الارجوزة موجودة اليوم بالخزانة العامة كمخطوط يحمل رقم د 79 ومؤلفها ظل مجهولا الى السحدوم .

²⁾ أنظر مخطوطه صفحة 28

³⁾ انظر مخطوطته مقحة 29 ،

أو مارستانا على ما حققه تلميذه المحقق الفاضل السيد محمد بن على في تاريخه الاتحاق، ويتدخل الكانوني للتوفيق بين هذا الخلاف قائلا : « ويمكن الجمع بين كونه مدرسة ومارستانا بأنه كان أقساما على حسب المدارس الكبرى الطبية والعلمية فقد كانت المارستانات الاسلامية جامعة بين مواضع المرضى ومواضع الاطباء ؛ وغالبا ما كان هؤلاء الاطباء يشتغلون في بعض الاوقات بتحضير الادوية واستخراجها من المواد الكيماوية ويعلمون التلاميذ صناعة ذلك علما وعملا فكان القسم المعين للتعليم والقاء المدروس مدرسة ويسمى مارستانا باعتبار القسم المخصص للمرضى والمجانين ومن في معناهم وهذا شأن الكليات الآن في العواصم الاوروبية والمدن الكبرى ؛ فلا تنافر بين تسميته مدرسة أو مارستانا بحسب هذا الاعتبار .» واذا كنا لا نريد الدخول في مناقشة هذا الرأى فان الغالب على الظن أن المارستان كان في غالب الاحيان مكانا معدا للحمق والمجانين وذوى العاهات العقليسة والاسراض النفسية يحيسون فيسه خاضعين لنظام طبى الى أن يعالجوا بصفة نهائية اما الدروس النظرية فقد كانت تعطى ببعض المدارس التي بناها بعض ملوك بني مرين ، ولقد بقي هذا التحديد الذي أوردناه جاريا اليوم على السنة العوام الذين كثيرا ما يرددون اسم المرستان في حديثهم عن الحمق والمجانين ؛ ولقد بقيت بعض آثار هذه المارستانات الى اليوم شاهدة بما كان لبنى مرين من عناية بهذا الجانب الاجتماعي كما تدل في أغلبها على أمكنة خاصة لمعالجة نوع معين من الامراض العقلية والنفسية . ولا يزال المراكشيون يعرفون مكان وأنقاض المارستان الذي كان قائما بالطالعة بالقرب من جامع ابن يوسف وهم لا يتحدثون عنه الا كمكان خاص بالمجانين أما المرستان الذي بناه أبو عنان اللريثي بمدينة سلا قما زال يحمل اسمه الى اليوم وهو من أعظم المرستانات التي بناها بنو مرين ، ويوجد قريباً من باب حسين ويتوفر على بنايات ضخمة يغلب على الظن أنها المرستان كان قبل بنائه فندقا للزيت الى أن تولاه أبو عنان بعناية فبناه ثم جلب له الاطباء المهرة ليعالجوا المرضى المقيمين فيه ؛ كما عين موظفين ليشرفوا على تسييره وأغدق عليهم أموالا كثيرة مقابل خدمتهم الادارية والاجتماعية ؛ وكذلك مستشغى مدينة فاس الذي كان على جانب كبير من الاهمية نظرا لوجوده بعاصمة المملكة المغربية آنذاك ولقربه من ملوك بني مرين أنفسهم الذين كاتوا ، كما أسلغنا ، لا يالون جهدا في النهوض جهذه المؤسسات الاجتماعية ، وهذا المستشفى الذي يطلق عليه مستشغى أبى الجنود هو من تأسيس أبي يوسف يعقوب المريني . ومن أهم المرستانات بفاس مارستان سيدى فرج الذي كان مخصصا لحبس الحمق والمجانين ولمعالجتهم فيه بالموسيقي والغناء مع استعمال آلات الطرب المختلفة ؛ وقد كان على أرباب الطرب(١) دأن يحضروا في كل أسبوع مرة أو مرتين لان ذلك يفيد في اتشراح

¹⁾ الكانوئي تاريخ الطب العربي بالمنرب صفحة 38 (مخطوط خاص) .

الصدر وانعاش الروح فتقوى ضربات القلب وتعود الاعضاء الجسمية الى تأدية وظائفها، وهكذا كان اللجوء الى الموسيقى والغناء من الوسائل النافعة لعلاج داء الحمق كما هو الشأن اليوم فى مستشفياتنا العصرية ، والى جانب هذه المرستانات المنتشرة فى نواحى البلاد كانت هناك ارباض خاصة بالمصابين بداء الجذام وكان يشرف عليها نظار وعدول لتسيير الاموال والاملاك التى كانت توقف عليها من طرف الرؤساء وبعض العناصر الشعبية الموسرة وقد أشار بعض المؤرخين الى أن هذه الارباض كانت كثيرة بفاس وضواحيها وبمراكش أيضا حيث كانت بعض الحارات مأوى للمجذومين الذين كانوا يلجأون بل ينقلون اليها ويعزلون عن غيرهم من المارة والسكان الى أن يشفوا نهائيا ؛ وبعض آثار هذه الارباض والحارات ما زال ماثلا للعين كانقاض أو كاسوار انظمست معالمها الاصلية . لان الناس ما زالوا يعرفون موقعها ويتحدثون عنها خصوصا بحومة باب دكالة(I) .

الا أن الظروف سرعان ما تبدلت بتبدل الاحوال السياسية وتقهقر الاوضاع الاقتصادية فأصيبت هذه المنشآت الطبية تبعا لذلك في الصميم وانهارت معالمها وانطمست مآثرها وأسرع الى جلها الخراب بعد أن هجرها اطباؤها ومسيروها لما لحقهم من ضعف وخوف على مستقبلهم الذي كانت تتهدده الاخطار من كل ناحية ، وقد حدث ذلك عندما أصيبت أجهزة الدولة بالضعف والوهن وتضافرت عليها أواخر القرن الثامن الهجري عوامل الضعف والانحلال من اضطرابات سياسية داخليـة وأمراض وباثية وضربات قاسية آتية من تدخل بني الاحس في الشؤون الداخلية واحتلال الاسبان والبرتغال لمدن المغرب الساحلية فأصبح ، نتيجة لذلك ، بعض ملوك بني مريـن يطمعون في أخــة الاموال والامــلاك التي كانت توقف على هــــــــ المارستانات والمستشفيات ، تسديدا للعجز الذى حل بهم وبشؤون دولتهم وليس بغريب أن يقع مثل ذلك في أيام السلطان أبي سعيد عثمان المريني(2) الذي كان يتخبط في مشاكل سياسية خطيرة أدت به ، تلافيا للعجز ، الى التسلط على الاموال التى كانت مرصدة لهذه المؤسسات الاجتماعية فصرفها عبثا في قمع الثورات التي كانت تنشب ضده من حين لآخر . ويحكى عنه الكانوني(3) «انه قامت عليه ثورات أوجبها اختلال توازن السياسة ولم يكن لديه من المال ما يجهز به الجيش الكافي لاخماد الثورة فأشار عليه بعض شياطين الانس الى الاموال المرصدة لهذه المستشفيات، فأرسل بعض وزرائه لتنفيذ هذه الخطة ، فعارضته الامة الفاسية معارضة ووقفت في

¹⁾ من الابواب الرئيسية بمراكش .

²⁾ الكانوني س 38 .

³⁸ ن٠ م ص 38

وجهه فقال لهم ان هذه الملاجى، نفسها وأوقافها من صدقات أجداد الامير ، وحيث كان كذلك فمن حقوق الملك أن يفوت هذه الاملاك . ولم يزل هذا الموظف يحتج لهذه النظرية ويؤيدها حتى اقتنع الناس بذلك وبيعت تلك الاملاك الوافرة ؛ ولكن تلك التوراث انتهت بقتل الملك ولم تعد المستشفيات الى ما كانت عليه بل تدهورت حالتها وبقيت بيد بعض الاعيان من أهل فاس وبعض الاطباء هذا خبر أوردناه ، رغم طوله ، لما له من أهمية بالنسبة لموضوعنا وهو يعطينا فكرة عن مدى تدهور الحالة السياسية والاقتصادية ونتائج ذلك بالنسبة للمرستانات والمستشفيات المؤسسة في عهد بنى مرين .

ذلك هو الجانب العملى من النشاط الطبى الذى كان قائما فى هذا العصر أما الجانب النظرى فقد كان يتجلى فى تخرج الاطباء ونبوغهم وما خلفوه من انتاج . ورغم كون هؤلاء الاطباء كانوا ، كما أسلفنا ، الى جانب اشتهارهم بهذا الفن يلمون بفنون أخرى فاننا سنورد هنا أسماء بعض الشخصيات التى كانت لامعة فى هذا العصر مقتصرين على أكثرها تأثيرا فى الميدان

محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن احمد العزفى من قبيلة العزفيين المشهورين بسبتة بنفوذهم السياسى والمعنوى وبثقافتهم الواسعة . كان أحد رؤساء سبتة حيث عين بعد أبيه عام 719ه على حد قول ابن القاضى(I) وخلع سنة 725ه حسب ما ذكره الكانونى(2) . وكان له المام كبير بالطب وفن التوشيح ، رغم كوننا لم نقف له على أثر في هذا الميدان . ولقد انتقل الى مدينة فاس بعد خلعه فأقام بها كاتبا لملوكها الى أن توفى سنة 768ه بنفس المدينة التى رحل اليها .

وقى نفس العصر كان حيا الطبيب الماهر والفيلسوف الشهير احمد بن محمد بن شعيب الجزنائى الفاسى انتقل الى فاس من قبيلة جزناية الريفية . درس بفاس على كثير من أساتذتها منهم الاستاذ أبو عبد الله ابن جروم وأبو عبد الله بن رشيد الفهرى صاحب الرحلة المشهورة . كان الى جانب اشتهاره بالعلوم الطبية والفلسفية والطبيعية من أكبر حفاظ الشعر : فقد ذكر ابن الخطيب(3) أنه كان يحفظ وهي عن الشعر . ولقد رحل الى تونس فأخذ الطب والهيئة على الشيخ يعقوب بن الدارس ومهر في الطب والفلسفة والكيمياء وخلع العذار فيها ، وكان اماما

¹⁾ جدوة الاقتباس (الطبعة الحجرية بقاس) صفحة 241 .

²⁾ أنظر مخطوطه الذي تحدثنا عنه فيما سبق · ص 18 خلافا لابن القاضي الذي يرجع تاريخ وفاته الى سئة 720 ·

^{3؛} الاحاطة (طبعة مصر المجلد الاول) صفحة 198 .

فى الطب ماهرا فى صناعته دقيق النظر فيه ، غاية فى معرفة النباتات والاشجار، كانت وفاته بتونس سنة 749ه .

ومنهم غالب بن على بن محمد اللحمى الشقورى أبو تمام . ترجم له الدكتور لوكلير(I) لكن ترجمته هذه كانت وجيزة جدا . نشأ بغرناطة ثم رحل الى المشرق ليؤدى فريضة الحج فنزل بالقاهرة عند رجوعه فتعاطى فيها بصفة خاصة لدراسة الطب حتى حصلت له ملكة كبيرة فيه . فقفل راجعا الى مدينة فاس حيث أصبح فى خدمة أبى سعيد المرينى ثم فى خدمة ابنه السلطان أبى الحسن . وتنص بعض المصادر على أنه عين من طرف مخدوم الله المالك التى خاصها أبى الحسن شم صار من أطبائ الخواص الى أن توفى فى احدى المعارك التى خاصها أبو الحسن سنة 174م . ذكر الدكتور لوكلير وغيره من المؤرخين أنه ترك مؤلفات قيمة جدا فى الطب الا أننا لم نعتر عليها مع الاسف .

ومنهم كذلك الطبيب الشهير على بن عبد الله بن هيدور التادلى الفاسى أبو الحسن . كان مشاركا في فنون كثيرة لكنه اشتهر بالطب اد ترك فيه أثرا يدل على تضلعه فيه وهو عبارة عن رسالة سماها المقامة الحكيمة في الامراض الوبائية ولقد ألفها في هذا العصر الذي اجتاح فيه الطاعون المغرب وغيره من الاقطار العالمية الاخرى . توفي في المجاعة التي حلت بالمغرب سنة 28ه .

والطبيب الجراح على ابن أبى غالب الادريسى المولود بفاس سنة 765ه والمتوفى فها سنة 801 ميحكى عنه الكانونى(2) أنه نشأ يتيما تحت حصانة والدته فعلمته صناعة الحجامة ثم درس الطب حتى مهر فيه واشتهر وأخل يباشر العمليات الجراحية فكان موفقا فيها ، الشيء الذي لفت الانظار اليه وجعل الطلبة وغيرهم يقصدونه من كل حدب وصوب لياخذوا عنه أو لينتفعوا بنصائحه وارشاداته العلمية. ولقد حاولنا التعرف على ما قد يكون تركه من أثر لكن المصادر التي وقفنا عليها لم تشر لا بقليل ولا بكثير الى انتاجه أما لضياع واما لاهمال .

وفى هسندا العصر كسسان يعيش فى ظسل بنى مرين الطبيسب المقرشى أبو بكر المالقى . انتقل من مالقة الى غرناطة ثم الى فاس حيث استقر وأخذ يباشر مهنة الطب كما عين على رأس مارستان فاس الشهير مدة طويلة للثقة التى كان يحظى بها لدى رؤسائه وكانت وفاته سنة 754ه .

¹⁾ في كتابه تاريخ الطب العربي (باريز 1876) صفحة 243 .

²⁾ نفس المصدر صفحة 28 .

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أما الوزير لسان الدين ابن الخطيب فهو غنى عن البيان والترجمة فى هذا الميدان نظرا لشهرته الواسعة ومؤلفاته الطبية القيمة ولقد احببنا ان نخصه بترجمة كافية فى غير هذا المكان ونتعرض لبعض مؤلفاته الطبية . أما الآن فنذكر منها المسائل الطبية ، الرجز فى عمل الترياق ، اليوسفى فى الطب ، رسالة تكوين الجنين ؛ الوصول لحفظ الصحة فى الفصول ؛ رجرفى الطب رجز الاغذية ، البيطرة والبيزرة ، مقنعة السائل عن المرض الهائل وهى رسالة كتبها عن الطاعون الذى حل بالمغرب وغيره من الاقطار سنة 749ه ، ثم مؤلفه الشهير عمل من طب لمن حب الدى تعرضنا اليه فى فصل سابق .

الخساتمسة

وبعد ، هل عرف المغرب في عهد بني مريسن نهضة ادبية ؟

تعتبر المظاهر الادبية التي درسناها في هذا العرض الوجيز نتيجة حتية لما قمنا به من تحليل للبيئة المغربية التي تميزت في عهد بني مريئ بمميزات خاصة ، كان لها من المفعول المباشر والاثر القوى ما جعل أبناء المجتمع المغربي مع رؤسائهم يتجهون في تفكيرهم ، وفي ثقافتهم ، وفي سلوكهم المادى والروحي ، اتجاها بقي بعضه أثرا الى اليوم ، يقيت بعض الآثار تشتمل على ازدهار الفن العمراني في عصر بني مرين وتدل على ما كان يبذله الفقهاء والعلماء والادباء من جهد في ميدان العلم والادب ، واذا كانت بعض الظواهر الروحية طغت على كثير من مرافق الحياة وحالت دون انطلاق الشعر والنثر الفنى انطلاقهما في الشرق العربي وفي الاندلس فلن ما تحفل به المكتبات العامة والخاصة لشاهد على تراث فكرى ضخم توكه لنا العدماء والفقهاء في نفس العصر .

ويرجع الفضل في كثير من التشاط الادبى الى مجاورة المغرب الاقصى المعفربين الاوسط والادنى وللاندلس على الخصوص ، تلك المجاورة التي أتت بخيرها وشرها ، وخلقت في المجتمع المغربي تيارات فكرية وحضارية وأدبية حركت النفوس، وتهضت بالهمم ، وقوت العرائم وأثارت التنافس بين العناصر المختلفة المتعايشة . فكان بنو مرين أتفسهم في المقدمة يعطون المثال بمواقفهم وأنواع سلوكهم ؛ فلم يقع اصطدام بينهم وبين سائر الطبقات الاجتماعية التي ظلت تكن لهم المحبة الصادقة والاخلاص المتين ويتجاوبون معهم نجاوبا عميقا . فكان ذلك الانسجام عاملا من عوامل الوحدة والعمل المشترك الذي ظل يسود البلاد _ باستثناء دسائس داخلية _

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الى آخر أيام بنى مرين حيث استفحل الخلاف الداخلي وانحلت الاوضاع السياسية فتسربت عناصر أجنبية تثير الفتنة وتوقِد نار الحرب الداخلية .

على أنه ليس معنى هذا أن المغرب كان عالة على غيره فى جميع مجالات حياته الفكرية ذلك أنه أخذ وأعطى بحكم التبادل الثقافى الفردى والاجتماعى الذى ساد العالم العربى بأجمعه لاسيما فى العصور الوسطى . فالمغربى كان يتنقل من وطنه الى البلدان الشرقية بقصد أداء فريضة الحج وبقصد الاتصال بالعلماء والادباء ليأخذ عنهم ويتحقق من رواياتهم ومن سندهم . لكنه كذلك كثيرا ما كان يستقر بهده البلدان ويعمل فيها اما كاستاذ واما كقاض أو كامام فى المساجد ، فيطلع أهدا المشرق على نشاط وطنه ويفيد بعلمه وبتدريسه وانتاجه . وكذلك كان الامر بالنسبة للمشرقي وللاندلسي وللجزائري وللتونسي مما كون شبه وحدة ثقافية بين أجزاء العالم العربي كله رغم انفراد الثقافة المغربية بمميزات خاصة تجلت في تشبثها بالخط العربي المشتق من الخط الكوفي القديم وفي ترتيبها الخاص للحروف الهجائية، وفي استعمالها أرقاما لا يستعملها المشارقة وغير ذلك من المميزات التي طبعت شكلها وجوهرها والتي لا يتسع لها المجال هنا لذكرها كلها .

واذا كان بعضهم قد اتهم المجتمع المغربي بالقصور والتقليد الاعمى ، فان الواقع ينفى هذه التهمة ويؤيد أن المغاربة كغيرهم من الشعوب ، كانت لهم شخصية قوية ظهرت آثارها في ميدان السياسة والاجتماع وكذا في ميدان الثقافة والادب ، لاسيما الادب الروحي والعلوم الدينية لان التقليد ليس معناه أن يشبه انتاج فرد انتاج فرد آخر في هذا الميدان أو ذاك . اذ من الممكن نفسيا واجتماعيا أن يتصارع شخصان ويتغالبا فيصلا الى نتيجة واحدة . قمن الغالب اذن من المغلوب ؟ ان التيارات الاجتماعية واسعة النطاق وتجتاح مجتمعات كثيرة في نفس الوقت . فكيف يدعى شخص الاستاذية المطلقة ؟ يمكنه أن يدعى التفوق في بعض المياديس وفي بعض الجزئيات لكنه لا يصح له أن يدعى التفوق المطلق . قد يكون المغرب كما رأينا قد تأثر قليلا أو كثيرا في ميادين خاصة بالتيارات الاجتماعية أو الادبية الاجنبية لكن شخصيته بقيت واضحة المعالم بارزة الاصالة والقوة .

والا فمن ذا الذى يزعم أن بنى مريان (والشعب من ورائهم) لهم يكونوا شبعانا وذوى سياسة محكمة ؟ من يستطيع الادعاء أنهم تقاعسوا وركنوا الى الراحة والتلذذ بنعيم الحياة ، لقد رأيناهم يواجهون المعارك فى عدة واجهات ، حاربوا بكل ما كانوا يملكون من شبعاعة مادية ومعنوية فى طليعة الاندلسيين حتى كان لهم الفضل فى ابقاء غرناطة مدة طويلة واستمرارها فى الحياة تحت ظل بنى الاحمر الى أن سقطت نهائيا فى يد الاسبان ، نعم ، حاربوا فى الداخل والخارج لاقرار الامن كما قاوموا كثيرا من الفتن فى المغربين الاوسط والادنى من أجل اقرار وحدة مغربية قوية يستطيع بها المسلمون أن يواجهوا العدو والاجنبى مهما كانت الظروف ، وإذا كان

النجاح لم يحالفهم فى أهدافهم كلها ، فقد استطاعوا أن يطبعوا المغرب بطابعهم المخاص ، الذى ظل أثره قويا فى سائر مرافق الحياة الدينية والاجتماعية والثقافية والعمرانية على الخصوص .

أما الادب بمعناه التقليدى (يعنى الشعر والنثر الفنى) اذا كان لم يبلغ مستوى بيئات أخرى ، اذا كان قد ظل منحصرا في ميدان ضيق بحكم الظروف التي كانت تحيط به وتقلص من ظله نظرا للنزعة الروحية الطاغية عليه ، ونظرا لخلوه من شعر الطبيعة وأغراض أخرى مختلفة ، فان شخصية الإدباء المغاربة تجلت في ما خلفوه من آثار علمية ضخمة وادبية وفي ما تركوه من كتب فقه ، وحديث وتفسير ، ولغة ونحو أدب لاسيما أدب الرحلات التي اشتهر بها المغرب والادب الديني الذي وقفنا على كثير من مظاهره ألا يمكن أن يعوض هذا الانتاج الضخم ما سبق أن رسمناه من نقص في ميادين أخرى ؟ ومهما يكن ، فاى بيئة خلت من مواطين الضعف والقوة ؟ وخلاصة القول ان المغرب في عهد بني مرين عرف نهضة أدبية من نوع خاص ، وخلاصة دينية قبل كل شيء وانطبعت بطابع البرجوالية اذ عاش جل الادباء التست صبغة دينية قبل كل شيء وانطبعت بطابع البرجوالية اذ عاش جل الادباء ما الماء ما الماء ها الماء التاحل كان في غالب الاحبان لهؤلاء الماه في الماء الماء الماء الماء الماء المؤلد المؤلد المؤلف المؤلد ال

اكتست صبغة دينية قبل كل شيء وانطبعت بطابع البرجوالية اذ عاش جل الادباء والعلماء والفقهاء في ظل الملوك وانتجوا انتاجا كان في غالب الاحيان لهؤلاء الملوك بايحاء أو بتشجيع منهم كما عاشت هذه النهضة بين جدران المدن الكبرى وبعض المراكز التي كان لها حظ من الحضارة والعمران

المسراجسم

لم نكتف باثبات المراجع التي اعتمدناها مباشرة ولكن أضفنا اليها مصادر أخرى لها صلة بالبحث وذلك لمساعدة من يريد التوسع في الموضوع:

ت - المراجع العربيـــة :

ابراهيم: عباس ابن المراكشي .

الاعلام من حل مراكش وأغمات من الاعلام 5 أجسزاء (فاس 1356هـ).

الابسار: أبو عبد الله محمد ابن كتاب التكملة لكتاب التكملة لكتاب التكملة لكتاب التكملة عدريد 1886).

الاحمر : أبو الوليد اسماعيل ابن

- ت) ... روضة النسرين في دولة بنى مرين ، مطبوعات القصر الملكي (الرباط 1962) .
- مستودع العلامة ومستودع العلامة تحقيق محمد التركى التونسى منشورات جامعة الرياط بدون تاريخ _ ومراجعة محمد بن تاويت التطوانى .

أجروم : أبو عبد الله ابن المقدمة شرحها الازهرى .

احمد بابا : أبو العباس III التمبكتي .

نيل الابتهاج بتطريز الديباج (مصر: 1951).

اصيبعة : ابسن أبسى .

عيون الانباء في طبقات الاطباء (بيروت : 1376هـ) .

أميسن: أحسسه

طهور الاسلام الجرَّء الاول (القاهرة 1946) .

أميسن: مصطفيي

تاريخ التربية (مصر 1926) .

ادهم : عسسل

بين الفلسفة والادب (دار احياء الكتب العربية 1945) .

أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن بطوطسة تحفة النظار في غرائب الامصار عجائب الاسفار (مصر 1924)

> بشكرال أبو القاسم خلف بن عبد الملك ابن كتاب الصلة في تاريخ أثمة الاندلس (مدريد 1882)

> > أبو العباس احمد ابن البنساء

I) التلخيص (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم ج II49) 2) منهاج الطالب في تعديل الكواكب (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 325) .

> عبد العزيس ينعيد الله

I) مظاهر الحضارة المغربية جزآن . (الدار البيضاء : دار السلمى الطبعة الاولى 1957 _ 1958) .

2) الطب والاطباء بالغرب (المطبعة الاقتصادية)

التطوانسي محمد بن أبي بكـر

ابن الخطيب من خلال كتبه

(تطوان : مطبعة كريما س 1959)

محمد ابن _ بالاشتراك مع محمد الضادق عقيقي تاويت الادب المغربي (بيروت 1960) ،

> أبو الحسن الجزناتسي

زهرة الآس في بناء مدينة فاس (الجزائر 1340هـ)

محمد أيسوب

مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح (الرباط 1345هـ)

حسن ابراهيسم

تاريخ الاسلام أربعة أجزاء (مصر 1958)

محمد بن الحسن الثعالبي الحجسوي

الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي 4 أجزاء (الرباط · (AI354

خليف___ة حاجسي كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون (ط. استنبول 1360هـ)

الحبسابسي محمد عزيسنز

مفكرو الاسلام (الرباط 1945)

خلمدون عبد الرحمان ابن ــ

I) المقدمة (نشر مصطفى محمد بدون تاريخ)

2) كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر 7 أجزاء (القاهرة 1284هـ)

3) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، نشر محمد ابن تاويت الطنجى (القاهرة 1951)

الخطيب لسان الدين أبو عبد الله محمد ابن

 الاحاطة فى أخبار غرناطة تحقيق محمد عبد الله عنان (مصر بدون تاريخ)

 كتاب المعيار في ذكر المعاهد والديار (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم : د 2092) .

 عمل من طب لمن حب (مخطوط خزانة القرويين بفاس رقم 3658)

 إلاعلام بمن بويع قبل الاحتلام (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم د 1552)

 5) كتاب الوصول في حفظ الصحة في الفصول (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم د 652)

تاريخ تطوان . المجلد الاول والثاني والثالث (بدون تاريخ) (تطوان المغرب) مطبوعات معهد مولاي الحسن (بدون تاريخ)

داود أبو القاسم بن السلوى

نوادر النظام في شرف سيدى الانام (مخطوط الخزانة العامة بالرباط ح ك 360)

رشيسه أبو عبد الله محمد بن عس ابن

رحلة مل الغيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين الى مكة وطيبة (مصور الخزانة العامة بالرباط رقم 127)

عبد الله بالاشتراك مع س. علوش (باريز 1954) الوجراجى فهرس المخطوطات يوسف التادلي ابن الزيسات التشوف الى رجال التصوف (نشرة ادولف فور بالرباط سنة 1958) الزبيس أبو جعفر احمد ابن صلة الصلة نشره ليفي بروفنال (الرباط 1938) أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم (مصر : الطبعة الاولى 1954) . عبد الرحمان ابس زيسدان اتحاف اعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس (الرباط (AI352 LI 347 محمد أيسو زهيسرة ابن حزم حياته وعصره آراؤه وفقهه (دار الفكر العربي بدون معلومات أخرى) جسرجسي زيـــدان تاريخ التمدن الاسلامي 7 أجزاء مراجعة الدكتور حسين مؤنس (مصر بدون تاريخ) عبد اللب كنسون I) النبوع الغربي في الادب العوبي 3 أجزاء (بيروت · الطبعة الثانية 1961) 2) مشاهير رجال المغرب من ١ الى 7 (تطوان : مطبعة كريماس بدون تاریخ) محمد بن حمو العبدى الكانونسي الطب بالمغرب (مخطوط خاص) محمد بن جعفسر الكتانسي سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس (١٦١٢هـ)

أبو عبد الله محمد ابن

الألفية . نشرها ابن عقيل ، جزآن (مصر 1961)

مالك

مرزوق ابن الخطيب محمد المسند الصحيح الحين في مآثر مولانا أبى الحسن (مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم III ق)

الموقست محمد ابسن السعادة الابدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية (طبعة فاس 2336هم)

المقرى احمد بن محمد

تفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب . تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد 10 أجنزاء (الطبعة الاولى مصر 1949)

2) ازهار الرياض ، نشـــر مصطفى السقا وابراهيــم
 الابيارى وعبد الحفيظ شلبى (القاهرة 1939 ــ 1942)

متـــز آدم

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ج: 2 نقله الى العربية محمد عبد الهادي أبو زيدة (القاهرة 1957)

مؤلفون مجهولون :

الذخيرة السنية في تاريخ الدول المرينية نشو ابن أبي شنب (الجازئر 1920)

بلغة الامنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب نشره محمد بن تاويت في مجلة تطوان ع: 9 سنة 1964.

المراكشى عبد الواحد المراكشى . ضبطه وصححه وعلق عليه محمد سعيد العربان ومحمد العربي العلمي (القاهرة : 1949)

المنونى محمسي

العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين (تطوان 1950)

الموحمل ماليك ابسن

الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والآخرة . مخطوط الخزانة العامة بالرياط 89 ج

الملزوزى أبو فارس عبد العزيز نظم السلوك في الانباء والخلفاء والملوك (المطبعة الملكية بالرباط سنة 1963) الناصوى أبو العباس احمد بن خالد

الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى 9 أجزاء (الدار البيضاء 1956)

النميشى أحمسد

تاريخ المعراء بغاس (فاس 1343هـ) .

صاحب الصلاة عبد الملك ابين

تاريخ المن بالامامة ، تحقيق عبد الهادى التازى (بيروت 1964)

عسكسر محمد بن على ايسن

دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر (المطبعة الحجرية بغاس بدون تاريخ)

البيان المغرب فى اخبار المغرب نشر الجزء الاول والثانى دوزى (طبعة ليدن 1948 ــ 1851) ونشر الجزء الثالث ليفى بروفانسال (باريز 1930)

عبد الملك ابن المراكشي

الذيل والتكملة (مصور الخزانة العامة بالرباط رقم 98)

عنسان محمد عبد الله

تهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين (مصر القاهرة:
 الطبعة الثانية 1958)

2) ابن خلدون (القاهرة 1953)

عيساض القاضي

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك الجزء الاول تحقيق محمد بن تاويت الطنجى (الرباط وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية 1965)

العبدرى أحمسد

الرحلة المغربية تحقيق إحمد بن حدو . نشر كلية الآداب الجزائرية بدون تاريخ

2) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم د 1012 و ك 356 .

العبادى أحمله مختار

مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والاندلس (الاسكندرية 1958)

غــازی محمد بن عثمان ابن

 الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون (المطبعة الملكية بالرباط 1964)

2) بغية الطلاب في شرح قيمة الحساب

الغــزالى أبـو حامــد

أيها الولد نشر الاونسكو (بيروت 1959)

القياسي مجمد المهدى

 تحفة أهل الصديقة بأسانيد الطائفة الجزولية (مخطوط الخزانة العامة بالرباط ط ج 76)

2) ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الاتباع (المطبعة العجرية بفاس ١٦٤٦هـ)

القاضي أبو العباس أحمد ابن

ا) جدوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام بمدينة فاس (المطبعة
 الحجرية بفاس بدون تاريخ)

2) درة الحجال في غرة أسماء الرجال . جزآن نشره يس
 علوش (الرباط سنة 1934) .

سودة عبد السلام المرى ابن

دليل مؤرخ المغرب الاقصى (تطوان 1950)

السوسى محمد المختمار

المسول 20 جزءا (الدار البيضاء 1960؛

الشقورى أبو عبد الله محمد

مقاله في الطب (مخطوط الخزانة العامة بالرباط د 1035) .

وافسى على عبد الواحد

ابن خلدون (مصر بدون تاریخ)

اليفريني محمد الصغير المراكشي

نزهة الهادى بأخبار القرن الحادى (طبعة فاس بدون تاريخ)

المجسسلات

- 1) دعوة الحق:
- مجلة شهرية تصدرها وزارة عموم الاوقاف الرباط.
 - 2) البحث العلمسي

مجلة يصدرها المركز الجامعي للبحث العلمي الرياط.

- 3) اللسان العربى:
- مجلة دورية للابحاث اللغوية ونشاط الترجمة والتعريب فى العالم العربى يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب التابع لجامعة الدول العربية الرباط.
 - 4) تطــــوان :

مجلة للابحاث المغربية الاندلسية يصدرها معهد مولاى الحسن تحت اشراف وزارة التربية الوطنية الرباط.

- 5) رسالة المغرب:
- مجلة شهرية فى العلم والادب والاجتماع كانت تصدر قبل أوائل استقلال المغرب . وهى محفوظة الآن بالخزائة العامة بالرباط .
 - 6) آفـــاق:

مجلة يصدرها اتحاد كتاب المغرب العربى بالرباط.

- 7) الايمـــان:
- مجلة شهرية تصدرها جمعية شباب النهضة الاسلامية (الرباط)
 - 8) البينــــة :

مجلة كانت تصدرها وزارة الشؤون الاسلامية بالرباط.

9) جامعة القرويين:

كتاب يتضمن أهم الابحاث والمقالات التي كتبت عن جامعة القرويين بمناسبة ذكراها المائة بعد الالف (سنة 1960) لقد رجعنا في بحثنا الى آهم المقالات والابحاث التي رأيناها تتصل بموضوعنا ولقد رأينا أن نخص منها بالذكر ما يلى :

- ابن تاویت ، محمد :
- ت) همن زوایا التاریخ المغربی، مجلة تطوان . العدد التاسع سنة 1964 (ص 31) .
 - 2) وبلغة الامنية ومقصد اللبيب، م.ن صفحة 173 .

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القياسي محميل :

- الرحالة المغاربة وآثارهم
 مجلة دعوة الحق (العدد أثنالث الرباط 1958) من 19 .
- 2) «الرحالة المغاربة، م.ن (العدد الثاني الرباط 1958) ص 8.
- 3) ابن رشيد الفهرى ورحلته الى المشرق ، م.ن (عدد 2 الرباط 1959) ص 33 .

المتوتى محمسد:

«نظم الدولة المرينية، مجلة البحث العلمي العدد 2 و 3 و 4 مسئة 1964 و 1965 .

السوسي محمد المختار :

دتاثير العربية في اللهجة الشلحية، مجلة اللسان العربي . العدد الثاني سنة 1965 .

. Documents en langue étrangère

```
Africain, Jean-Leon:
```

Description de l'Afrique.

edition traduite de l'Italien par A. Epauler, 2 volumes (Paris 1956)

Ayache, Albert:

Le Maroc (Paris 1956)

Alain, E. et Deverdun Gaston:

Les portes anciennes de Marrakech (Hesperis TxLLIV 1957).

Brokelman, Carl:

Geschichte der Arabischen:

Litteraturé 2 vol. (Berlin 1898-1902)

Brunschvig, Robert:

La Berberie Orientale sous les Hafsides : des origines à la fin du xv siècle, 2 tomes (Paris 1940-1947)

Bargès, L'Abbé I.J.L.:

Histoire des Beni Zeiyan, Rois de Tlemcen (Paris 1852)

Bellaire, Michaux

Essai sur l'histoire des confréries marocaines (Hesperie T. 1. année 1921) Bremond, Edouar (CR) Berbères et Arabes (Paris 1950) Bousquet, G-H.: Les Berbères - Collection que sais-je n. 718 (Paris 1961) Berque (Jacques): L'univers politique des arabes (Paris 1957). Bousquet, C-H.: L'Islam maghrébin (4édition Alger 1955) Benech, J.: Essai d'exploitation d'un Mellah (sans lieu ni date) Basset, Henri et Levi-Provencal: Chella, une nécropole mérinide (Hesperie tome II 1922) Benabdellah, Abdelaziz.: L'art Maghrébin Notes et documents. (sans Indication de lieu, an. 19?) Bel, Alfred: Inscriptions arabes de Fès, journal asiatique 1917. 198 T.X. Chouragui, André: L'Etat d'Israel (Paris 1955 coll. «que sais-je» No 673) De Castries, Henry:

Les sources inedites de l'histoire du Maroc de 1530 à 1845

(Paris 1905 et suite)

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Demombynes, Gaudefroy, éditeur.

Ibn Fadl Allal al Umari : Masalik al absar fi Mamalik al Amsar (Paris 1927)

les émirs des Hintata Ros de Marrakech (Hesperis 1937 TX

Deverdun, Gaston:

Marrakech (Rabat 1959)

Dozy, R.:

- 1) Supplement aux dictionnaires arabes (Lev de 1881)
- Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne pendant le moyen âge (Paris 1881)

Gautier, E.F.:

Le passé de l'Afrique du Nord. (Edition Payot Paris sans date)

Goulven, j:

Les Mellah de Rabat et de Salé (Paris 1927)

Gauthier, Leon:

Ibn Thofail, sa vie et ses œuvres (Paris 1909)

Julien, Charles-André:

Histoire de l'Afrique du Nord (Paris 1952)

Lévi-Provençal, 1.:

- 1) Conférences sur l'Espagne Musulmane traduite en arabe par M.A. Cheira (Le caire 1951)
- 2) La Peninsule Iberique du Moyen âge d'après de ki tab ar-Rawd al Mi, tar (Leiden 1938)

Une description de Ceuta Musulmane au XVe Siècle (Hespris 1931 tome XII)

4) Un nouveau texte d'Histoire merinide le Musnad d'Ibn Marzûk (Hesperis T.5 1925)

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

5) L'Espagne Musulmane (Paris 1932)

Leclerc, Lucien:

Histoire de la Medecine arabe. 2tomes (Paris 1876)

Le Tourneau, R.:

Fès avant le protectorat (Casablanca 1949)

Montel, Vincent:

Les arabes, Collection «que saije-je» (Paris 1959)

Malka, Elie.:

- 1) Essai sur la condition juridique de la femme juive au Maroc (Paris 1952)
- 2) Essai de Folklore des Mellahs (Rabat 1954)

Massignon, Louis:

Le Maroc dans les premières années du XVI siècles (Alger 1906)

Marçais, G.:

Manuel d'art musulman 2 tomes (Paris 1926)

Reinaud, H.P.J.:

- 1) Notes critiques d'histoire chez les Musulmans II Ibn al Banna de Marrakech (Hesperis tome XXV an. 1938)
- 2) Un medecin du royaume de grenade : Nahmad as Saquri (Hesperis tome XXVII 1946)

Un chirurgien musulman du royaume de grenade Mohamed as safra (Hesperis T.XXI 1935)

- 4) L'enseignement des sciences exactes au Maroc Hesperis T XIV 1932)
- 5) Trois études de la médecine arabe en occident (Hesperis TX II Fas 2 année 1931)

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Sourdel, A.:

L'Islam-collection que «sais-je» (Paris 1949)

Terrasse, Henri:

- 1) Histoire du Maroc 2 tomes (casablanca 1950)
- 2) L'art hespano-mauresque des origines au XIII siècle (Paris 1932)

Thomas Bertran:

Les arabes (Paris 1946).



فهرس الاعلام

لم نثبت فى هذا الفهرس الا الاسماء التى لها أهمية فى الصفحات المذكورة أما الاعلام التى تكرر ذكرها فقد تعمدنا اغفالها تاركين للقارىء مجال البحث عنها .

افريقش: 18

الاندلسيــون : 32 ، 37 ، 33 ، 49 ، 78

اجروم (ابن) : 194

البرجي ، أبو القاسم : 37

بنو مريئ : في معظم الصفحات

البرائيس: 18

البتــر : 18

البخاري : 196

بنو عبد المومن : 25 ، 34 ، 97 ، 196

ينو عبد الواد : 46

بنو ادريـس ؛ 34

ينـــو العـــلا : 34

ابن البيطار: 223

ابن نيسة: 196

جزی (ـ ابن ـ) : 37 ، 75 ، 174

جروم (_ ابن _) : 341

الجزنائي ، أبو العباس احمد بن شعيب : 213 ، 227

١٤٦ : الحاجب

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حزم (ابن ـ الاندلسي) : 500

الحفصيون : 48

الحسن (أبو ــ) : 209

خأتمـة ، ابن ــ : 205

الخوارزمي ، أبوبكر : 160

الربيع (أبو _) : 49 ، 92

الربيع (ابن أبي) : 210

رشيق (ابـن) : 198

رينــو: 223 ، 227

روسيو : 173

رشد (ابـن) : 212

زناتــة: 18 ، 22

زورق أبو العباس احمد .. : 146

ريد (ابن أبي ..) : 196

لوكلير (دكتور) : 222

مالك : ابن _ (النحوى) : 201 ، 207 ، 209

مالك (ابن انس) : 194 ، 213

مالك (ابو مالك المريني) : 137 ، 138 ، 163

ەسىلىم : 196

المكودي : 209

المورسكيون : 38

مصمسودة: 19

المرابطون : 193

النسائي : 196

صنهاجية : 18

عبد العزيز الورياغل : 199

عنان (أبو): 25، 128، 137، 128

العيساس أيو ... احمد : 137

العزفيمون : 78 ، 79

عمر بن عبد الله الوزير: 120

عمر أبو ... تاشفين : 120

عباس (أبو العباس احمد المريني) : I6I

الغينيقيـون : 22

سعيد (أبو عثمان) : 80 ، 109 ، 216 ، 226

سالم (أبو _ المريني) : 125 ، 112 ، 125 ، 125

سينا (ابن) : 223

السلحة: 212

وليم لنكو : 152

وقاصية : 41

يعقوب أبو : يوسف : 40 ، 45 ، 47 ، 64 -

يوسف (أبو يعقوب): 40 ، 68 ، 85 ، 85 ، 85

يوسف أبو يعقوب المنصور: 213

يوسف ابن الاحس: II2

يوسف ابن تاشفين : 26

يحيى (أبو _ المريني) 128

يونس (ابسن) : 196

اليهـود: 38 ، 39 ، 41 ، 43



فهرس الموضوعات

9	المقسدمسسة :
	البساب الاول
	البيئة المغربية في عصر بني مرين
16	x بنيو ميريين x
26	ه الاطار الاجتماعي
.29	3 العنصـــر العربــي العنصـــر العربــي
32	4 عنصس الاندلسييــن
38	5 عنصس اليهسود
44	6 الحياة السياسية العامـة المعياة العامـة العام
50	7 الحياة الدينيسة
	البساب الشساني
	مشاهين الادباء البغاربة
60	ع مالك ابن المرحسل عالك ابن المرحسل
66	ه عبد العزيز الملزوزيه
	3 أبو العباس القباب 3
	4 ابـن بطـوطــة
	5 أبو العباس احمد زروق5
78	6 ابــن رشيــق
82	7 أبو عبد الله محمد العبدري
89	8 ابسان رشیسسه
92	9 ابسن داود السلسوى
96	IO ابن عبد الملك المراكشي
	II ادر النباء الم اكشي

شخصيات مشتركـة

112	I ابسن الخطيب ا
117	2 ابـــن خلـــــــــــــــــــــــــــــــــ
123	3 ابىن مىسسىرزوق 3
	الباب الثاليث
131	I النهضة الادبية الغنية
145	2 مكانة الشعر بالنسبة للنثر
150	3 النزعة الروحية في الشعر المغربي
165	4 نتائج هذا الاتجاه بالنسبة لاغراض الشعر
170	5 أدب الرحــــــــــــــــــــــــــــــــــــ
176	6 النزعـة الدينيـة
180	7 عنصــــــــــــــــــــــــــــــــــــ
183	8 النزعــــــــــــــــــــــــــــــــــــ
	البساب السرابسع
191	I العلموم المدينية
	2 العلسوم العسربيـــة
	3 العلــوم البحتـــة 3
212	4 الفلسفــــة
	5 السرياضيسات
	6 العلسوم الطبيسة
229	الخاتمـــة
232	فهرس المراجعفهرس المراجع
246	، الاعـــلام



صدر للمؤلف

- ـ مظاهر الثقافة المغربية دراسة أدبية باللغة العربية نالت جائزة المغرب سنة 1970 (في العصر المريني).
- البيئة المغربية ومظاهرها الثقافية ، دراسة حضارية باللغة الفرنسية صدرت سنة 1970 (في العصر المريني) .
- الحياة الفكرية المغربية في عهد الدولة المرينية والوطاسية دكتوراه الدولة صدرت باللغة الفرنسية 1974.
 - _ معجم التربية والتعليم باللغة الفرنسية والعربية _ 1981 .
 - ــ التربية والتعليم في المغرب ، دراسة وتعريب ــ 1982 .
- ... الثقافة الشعبية المغربية ، باللغة الفرنسية ... 1980 (انطلاقا من العصر المريني) .
- كتاب الامتاع والانتفاع في مسألة سماع السماع لابن الدراج السبتي دراسة وتحقيق __ 1982 (العصر المريني).
- كتاب فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان لابن رزين التجيبي دراسة
 وتحقيق ــ 1982 (انطلاقا من العصر المريني) .
- _ فيض العباب وافاضة قداح الآداب أو رحلة أبي عنان المريني لابن الحاج النميري دراسة وتحقيق _ 1984 (العصر المريني).
 - _ التعليم والتربية في القرآن الكريم بالعربية والفرنسية (تحت الطبع).





مطبعة النجياح المجديدة التتاليمية نقلا عن مطبعة الرسالة الرباط الايداع القانولي رقم 1985/766



Mohamed B.A. Benchakroun

Aspects de la Culture Marocaine

